جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

مائة خطبة عصرية
في قضايا الساعة

الجزء الثاني

(٥١ – ١٠٠)

إعداد
الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف وتقديم
أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيدُ إلا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْـتُ وَمَا
تَوْفِيقِي إلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

(هود : ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فيسرنا أن نقدم للسادة الأئمة والخطباء والمثقفين والمعنيين بالشأن الدعوي في مصر والعالمين العربي والإسلامي ومختلف دول العالم الجزء الثاني من كتاب " مائة خطبة عصرية في قضايا الساعة " من الخطبة الحادية والخمسين حتى المائة ، في إطار خطة وزارة الأوقاف المصرية لتقديم خطاب ديني عصري رشيد مستنير نابع من روح العصر وتحدياته ، يراعي واقع الناس وحاضرهم وظروف زمانهم ومكانهم ، مع الحفاظ على ثوابت الدين والتحرك في إطار متغيراته .

وفي هذه الخطب ما يؤكد أن الخطاب الديني خطاب حيوي وديناميكي ومتجدد ، وليس بمعزل عن دنيا الناس وقضايا العصر ، وأنه حيث تكون المصلحة يكون الخطاب الديني المستنير .

ويسلط هذا الجزء الضوء على قضايا في غاية الأهمية مثل : ضوابط البيع والشراء ، النفع العام في ميزان الشرع الشريف ، التنمية الشاملة وسبل تحقيقها ، حماية الشأن العام والمصلحة العامة ، العمل التطوعي .. أهميته وضوابطه ، دور الشباب في بناء المجتمع ، ظاهرة أطفال الشوارع

وطرق علاجها ، رعاية المسنين وحقوقهم ، واجب المعلم والمتعلم ، الصحبة وأثرها في بناء الشخصية ، الحفاظ على البيئة وأثره في التنمية ، وغير ذلك من الموضوعات الهامة والحيوية ، قصد إحداث تغيير جذري في بنية الخطاب النمطية بالتحول إلى بنية أكثر عصرية وتفاعلاً مع قضايا العصر ومستجداته، وبما يؤدي إلى تصحيح الصورة الذهنية السلبية التي تكونت تجاه الخطاب الديني في مراحل الجمود الفكري .

وقد راعينا في أسلوب هذه الخطب السهولة واليسر ، والبعد عن التقعر والتكلف ، والنمطية ، والتقليد ، سائلين الله (عز وجل) أن يكتب لها القبول ، وأن تكون زادًا علميًّا وفكريًّا ومعرفيًّا في مجال الثقافة الإسلامية الرصينة الواعية ، وأن تشكل إضافة متميزة للمكتبة الدعوية في مصر والعالم كله .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف

هذا هو الإسلام

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}[النساء: ١٢٥] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الإسلام الحقيقي استسلام ، وطاعة ، وانقياد لله (عز وجل) ، ومحبة، واتباع ، واقتداء بسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وحسن خلق ، وخشوع وخضوع ، وطيب نفس ، وطلاقة وجه في التعامل مع الناس جميعًا ، ورأفة ، ورحمة ، وجمال مع الكون كله ، وبناء وتشييد ، وحضارة وعمران ، فالإسلام منهج حياة يعيشه أتباعه في حركاتهم وسكناتهم وجميع أفعالهم.

إن الإسلام دين يدعو إلى الصلاح والإصلاح وإعمار الدنيا بالدين، وليس تخريبها باسم الدين ، دين يدعو إلى الرحمة والأمن والأمان والسلام للعالم كله ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧].

إن المتدبر لأركان الإسلام التي جاءت في حديث جبريل (عليه السلام) حين سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) ، قائلاً: يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَ

اللهُ ، وَأَنَّ محمدًا رَسُولُ اللهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ...) (صحيح مسلم) ، يدرك أنها تسهم في بناء شخصية سوية ، فحين يعتقد الإنسان بأنّ الله واحد لا شريك له ، وأنّ سيدنا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) عبده ورسوله ، يسعى في تحقيق هذه الشهادة ، طاعة ومراقبة لله رب العالمين ، فيلتزم أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويقف عند حدوده ، فلا يقصر فيما كُلف به ، ولا يطلب ما ليس له ، كما أنه يجتهد في حسن اتباعه للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم (صلى الله عليه وسلم) ، من رأفة ، ورحمة ، وتواضع ، ولين.

فإن الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام تعود ثمارها على العبد؛ نهيًا عن الفحشاء والمنكر ، واستقامة على طريق الله ، فيعيش المسلم في سلم وسلام مع نفسه ، ومع المجتمع كله ، يقول الحق سبحانه: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥].

وأداء الزكاة فيه من الجوانب الإيمانية والإنسانية ما فيه ؛ فإنه يهذب النفس من التعلق بالماديات ، حتى يدرك الإنسان أن المال وسيلة وليس غاية ، كما أنه باب للتعاون ، والتراحم ، والشعور بالآخرين ، فالمجتمع المسلم لا يَعْرِف أنانية ، ولا سلبية ، فديننا دين العطاء ، والبذل ، والتضحية، والفداء ، والإيثار ، لا الأثرة ، ولا الشح ، ولا البخل ، فالمؤمن سمحٌ جوادٌ كريمٌ ، قال الله تعالى في مدح الأنصار (رضي الله عنهم): {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩].

وكذلك الصيام ، فإنه يضبط أخلاق المسلم ، بدوام مراقبة الله (عز وجل) ، ويروضه على الصبر ، والتحمل ، والارتقاء بالنفس ، والسمو بها عن كل ما يغضب الله سبحانه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (... وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ، فَلاَ يَرْفُثْ ، وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ) (صحيح البخارى) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) (صحيح البخارى).

كما أن الحج التزام سلوكي وأخلاقي قبل أداء مناسك الحج ، وفي أثنائه ، وبعد الانتهاء منه ، قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧] ، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يَقُولُ: (مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) (صحيح البخارى) ، وهكذا، فكل أركان الإسلام لها آثارها التي تعود على المجتمع بالخير ، والأمان ، والسلام.

إن من يمعن النظر في ديننا الحنيف يدرك أنه دين مكارم الأخلاق، ورسالته أتت لإتمام هذه المكارم ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (سنن البيهقى) ، فحيث يكون الصدق ، والوفاء ، والأمانة ، والبر ، وصلة الرحم ، والجود ، والكرم ،

والنجدة، والشهامة ، والمروءة ، وكف الأذى عن الناس ، وإغاثة الملهوف، ونجدة المستغيث ، وتفريج كروب المكروبين ، والرفق بالحيوان ، يكون صحيح الإسلام ومقصده .

ومما لا شك فيه أن فهم جوهر الإسلام ، ومعرفة أسرار رسالته السمحة ، والوقوف على مقاصده وغاياته السامية ، وتطبيق ذلك كله في ضوء مستجدات العصر ومتطلباته ، يعد ضرورة ملحة لمواجهة التحديات المعاصرة ، وكبح جماح الجماعات الإرهابية والمتطرفة ، ومحاصرة الفكر المنحرف، وكسر دوائر التحجر، والجمود ، والانغلاق، وسوء الفهم ، وضيق الأفق ، والخروج من هذا الضيق إلى عالم أرحب وأوسع وأيسر ، وأكثر نضجًا ووعيًا ، وبصرًا وبصيرةً ، وتحقيقًا لمصالح البلاد والعباد ، ونشر القيم الإنسانية الراقية التي تحقق أمن ، وأمان ، وسلام ، واستقرار ، وسعادة الإنسانية جمعاء.

إن من أوجب الواجبات وأهم المهمات التي ينبغي على كل مسلم أن يقوم بها أن يظهر للناس جميعا جوانب العظمة في الدين الإسلامي ، حتى يدرك العالم كله أن الإسلام دين السلام ، ويدعو إليه ، ويعلي من شأنه ، فالسلام اسم من أسماء الله تعالى ، يقول الحق سبحانه: {هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ} [الحشر:٢٣] ، وتحية الإسلام السلام ، يقول جل شأنه: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء:٩٤] ، وتحية أهل الجنة في الجنة السلام ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرّعد:٢٣-٢٤] ، وكان من دعاء النبي الكريم (صلى

الله عليه وسلم) عقب كل صلاة: (اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، تَبَارَكْتَ يا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) (صحيح مسلم).

إن الإسلام دين يحفظ للإنسان كرامته ، فينهى عن الغيبة ، والنميمة ، والتحاسد ، والتباغض ، والاحتقار ، والأذى في أي صورة من صوره ؛ قولا كان ، أو فعلا ، أو حتى إشارة ، أو إيماء ، حيث يقول الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: ١١] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ) (صحيح مسلم) ، ونَهى نبينا (صلى الله عليه وسلم) عَنِ الضَّرْبِ والوَسْمِ فِي الوَجْهِ ، وعندما رأى (صلى الله عليه وسلم) حيوانًا قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ) (صحيح مسلم).

ولما سئل (صلى الله عليه وسلم) عن امرأة صوامة قوامة ، غير أنها تؤذي جيرانها ، قال (صلى الله عليه وسلم): (هِيَ فِي النَّارِ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَلا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَان يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيومِ الآخِرِ ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَسْكُتْ) (متفق عليه).

أقولُ قولِي هذا وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا محمدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهم صلِّ وسلمْ وَبارك عليهِ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

إخوة الإسلام:

لقد رسَّخ النبي (صلى الله عليه وسلم) تعاليم الإسلام السمحة ، وأخلاقه الكريمة ، وقيمه النبيلة في قلوب أصحابه حتى أصبحت منهج حياة يعيشون ويتعايشون به مع الناس جميعًا ، فهذا جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) يقف أمام النجاشي – ملك الحبشة – موضِّحًا ومبينًا شيئًا من هذه القيم ، وتلكم الأخلاق بأسلوب راقٍ ، وكلمات واثقة ، قائلاً: (أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ ، وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ ، وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ ...) (مسند أحمد).

فالمسلم الحقيقي لا يكذب ، ولا يغش ، ولا يخون ، المسلم الحقيقي من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن الحقيقي من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم وأنفسهم ، المسلم الحقيقي هو الذي تظهر

عليه أخلاق الإسلام ، فلا يصل إلى الناس منه إلا الخير والبر ، ولو أردنا أن نضع تعريفا حقيقيا جامعا للمسلم الحقيقي لم نجد تعريفا أفضل ولا أجمع مما عرفه به نبينا (صلى الله عليه وسلم) بأنه من سلم الناس من لسانه ويده، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذَّنُوبَ) (مسند أحمد).

إن رسالة الإسلام رسالة الإنسانية ، والحكمة ، والسماحة ، والرحمة، والسعة ، والمرونة ، رسالة تجمع ، ولا تفرق ، توحد ، ولا تشتت ، فالإسلام عدل كله ، رحمة كله ، سماحة كله ، تيسير كله ، إنسانية كله ، وكل ما يحقق هذه المعاني الراقية السامية هو من صميم الإسلام ، وما يصطدم بها، أو يتصادم معها ؛ إنما يتصادم مع الإسلام ، وغاياته ، ومقاصده.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق إنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها إنه لا يصرف عنا سيئها إلا أنت ، واحفظ مصر وشعبها وجيشها وشرطتها من كل سوء ومكروه يا أرحم الراحمين.

* * *

حماية الشأن العام والمصلحة العامة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فقد بنى الإسلام دولة حقيقيةً ، أرسى قواعدَها ، وجعل لها مقوماتها ، وحث على الحفاظ عليها ، والذود عنها ، وجعل حماية شأنها العام ، والاهتمام به مسئولية مشتركة بين أفرادها جميعًا ، وكلما زاد الوعي بين أبناء المجتمع بقيمة الشأن العام وخطورته ، كلما زاد التعاون والتكاتف والترابط للحفاظ عليه ، فتتحقق للمجتمع قوة البنيان الواحد ، وشعور الجسد الواحد الذي حث عليه نبينا (صلى الله عليه وسلم): (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) (صحيح البخاري)، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (صحيح مسلم).

ومما لا شك فيه أن أحد أهم مقومات الحفاظ على الشأن العام: تقديم المصلحة العامة الواسعة التي يعود نفعها على جميع الناس على المصلحة الخاصة الضيقة التي يعود نفعها على أصحابها فقط ، تخليصا للنفس البشرية

من شرور الأنانية ؛ ذلك أن المصلحة العامة تشمل كل ما يحقق إقامة الحياة للمجتمع بأسره من أمور مادية ، ومعنوية ، تجلب الخير والنفع للناس ، وتدفع عنهم الشر والمفاسد ، وتحقق حماية الوطن ، واستقراره ، وسلامة أراضيه ، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات.

لقد أكد القرآن الكريم أن الحفاظ على المصلحة العامة وتقديمها على المصالح الخاصة هو منهاج الرسل والأنبياء جميعًا ، فلم يرسل الله (عز وجل) نبيًّا ولا رسولا إلا لإسعاد قومه ، وتحقيق الخير لهم ، دون مقابل مادي ، أو منفعة دنيوية ، قال تعالى على لسان نبيه نوح (عليه السلام): {وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ}[هود: ٢٩].

وقال سبحانه على لسان نبيه هود (عليه السلام): {يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[هود: ٥١] ، وقال تعالى على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام): {إِنْ أُرِيدُ إِلاَ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].

ولقد جاء الشرع الحنيف بما يتوافق مع العقل ، ويتناسب معه ، فرغب في أمور من شأنها أن تحقق المصلحة العامة لجميع أبناء الوطن ، منها: **تلبية حاجات المجتمع الضرورية ، ومراعاة فقه الواقع** ، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم ، فالأولوية لذلك ، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد ، وصيانتها ، وتجهيزها ، والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم ، فالأولوية

لذلك ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين ، وسدِّ الدَّين عن المدينين ، وتفريج كروب الغارمين، فالأولوية لذلك

فقضاء حوائج الناس والقيام بمتطلبات حياتهم من الواجبات الشرعية والوطنية ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ) (المعجم الكبير للطبراني).

ومنها: **الحفاظ على المال العام** ، فهو مما يشترك فيه المواطنون جميعًا ، وحرمة المال العام أشد من حرمة المال الخاص ؛ لكثرة الحقوق المتعلقة به ، وتعدد الذمم المالكة له ، ولذلك حذر الإسلام من إتلافه ، أو سرقته ، أو الإضرار به ، قال تعالى: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ١٦١] ، فالمال العام مِلْكٌ للناس جميعًا ، وليس مِلْكًا لفِئَة معيَّنة منهم ، والقائمون عليه إنَّما هم أُمَناء في حِفْظه ، وتحصيله ، وصَرْفه لأهْله ، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يعتديَ عليه، أو يأخُذَ منه ما لا يستحقُّ ، لأن ذلك يعد خيانة وظُلمًا ، وأكلاً لأموال الناس بالباطل.

كما أمر الإسلام **بالحفاظ على المرافق العامة** ، كدُور العبادة ، والمدارس ، والمستشفيات ، والحدائق ، وغيرها ، حيث إنها ملك للجميع ، ونفعها يعود على الجميع ، وحذَّر أشد التحذير من الاعتداء عليها ، أو تضييعها ، أو إفسادها بأي صورة من الصور ، يقول الحق سبحانه: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}[الأعراف: ٥٦] ؛ حتى لا يتوهم بعض الناس أنه يجوز له أن يستغل المِلك العام بالطريقة التي يريد ، وكيفما شاء، بدعوى أن له حقا شائعا فيه ، وهذا فهم خاطئ ، فالواجب علينا

المحافظة على المرافق العامة ، وحمايتها والقيام على تنميتها وتطويرها ؛ لأنها ليست لفرد دون فرد ، ولا لجماعة في زمن معين ؛ بل هي لنا جميعًا ، وللأجيال القادمة.

ومنها: **الحفاظ على الطريق** ، **ومراعاة حقه** ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ) ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: (غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلاَمِ ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (متفق عليه) ، وقال رسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم).

ومنها: **أداء الخدمة الوطنية** التي تعد من أهم الواجبات التي يقوم بها الإنسان نحو دينه ووطنه ، وهي دليل على ولائه لبلده ، وصدق انتمائه له، ومحبته إياه ، فليس الوطن والعِرض أقل خطرًا أو مكانة عند المسلم من نفسه ، أو دينه ، أو ماله ، أو متاعه ، كما أنها تغرس في أبناء الوطن معاني الرجولة ، والشهامة ، والمروءة ، والقيم النبيلة التي جاء بها ديننا الإسلامي الحنيف ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ ؛ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله) (سنن الترمذي).

ومن المصلحة العامة التي يجب مراعاتها – حفاظا على الشأن العام – ما يكون بين الدولة وغيرها من الدول ، أو المنظمات ، أو المؤسسات الخارجية من معاهدات ؛ فإن أي إجراء فقهي ، أو إفتائي ، أو فكري ، أو

دعوي ، لابد أن يكون أجراءً مؤسسيًّا ، صادرًا عن ولي الأمر ، أو من ينيبه في ذلك ، وعلى من يتحدث في مثل هذه الأمور أن يضع في اعتباره كل الملابسات المجتمعية ، والوطنية ، والدولية المتصلة بالأمر الذي يتحدث عنه ، حتى لا تصدر بعض الآراء والفتاوى الفردية المتسرعة في الشأن العام ، بما يصادم الواقع ، أو يتصادم مع القوانين والمعاهدات والاتفاقيات الدولية ، وقد أمرنا الحق سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود ، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[المائدة : ١] ، فهذه الآية الكريمة عامة ، تشمل كل العقود ، والعهود ، والالتزامات التي يلتزم بها الإنسان مع غيره ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً ، أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا) (سنن الدارقطني).

وهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرد أبا بصير (رضي الله عنه) بعد صلح الحديبة ، وفقًا للمعاهدة التي كانت بينه (صلى الله عليه وسلم) وبين قريش ، مع احتمال تعرض هذا الصحابي للأذى ؛ حفاظًا على العهد الذي عاهد عليه قريشًا ، وهذا من باب الوفاء بالعهد من جهة ، ومن باب تقديم وتغليب المصلحة العامة من جهة أخرى.

إن للحديث في الشأن العام – دون وعي ، أو فهم – مخاطره التي تضرب في بنيان الدولة وعضدها ؛ لأنه يجعل أمن الوطن ، واستقراره كلأً مباحًا ، ومادة للسخرية ، فيكثر اللغط ، ويتحدث من لا يعلم فيما لا يدري ، وما أكثر المرجفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وقد أمرنا الحق سبحانه أن نرد الأمر إلى أهله ، فقال سبحانه: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ

لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَ قَلِيلاً} [النساء: ٨٣].

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكمْ

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا محمدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهم صلِّ وسلمْ وَبارك عليهِ، وَعلى آلهِ وصحبِهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

إخوةَ الإسلام:

إنَّ مفهوم الشأن العام يتجاوز اهتمامات الفرد المحدودة إلى اهتمامات جموع الأفراد ، ومن أجل ذلك فأمره ليس مشاعًا لأفراد الناس؛ وإنما يقوم عليه متخصصون ، يدكون قيمة ما أسند إليهم من مهام تتعلق بالأمن القومي ، وحياة الناس ، ومصالحهم ، ومقدرات الأوطان ، ووضعها الإقليمي والدولي ، وشئونها السياسية والاجتماعية، والأمنية ، والعلمية ، وغير ذلك ، وأهل العلم على أن المجتهد أهل الاجتهاد والنظر، إذا اجتهد في مجال اختصاصه فأخطأ فله أجر ، وإن اجتهد فأصاب فله أجران ، ومفهوم المخالفة يقتضي أن من اجتهد من غير أهل العلم والاختصاص في غير اختصاصه ، وفيما لا علم له به ، إن اجتهد فأخطأ ، فعليه وزران ، وزر لخطئه ، وآخر لجرأته على الفتوى بدون علم ؛ وذلك لحرص الإسلام على احترام أهل العلم والاختصاص ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[النحل: ٤٣] ، وأهل الذكر هم أهل العلم والاختصاص في كل علم من العلوم بحسب المسئول عنه .

ومن ثم كان النَّهيُ عن التسرع في الفتيا بدون علم ، أو سند شرعيّ ، قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[الأنعام: ١٤٤] ، وقال سبحانه: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النحل: ١١٤ ، ١١٥] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ) (سنن أبي داوود).

وقد كان أكابر الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم) يتحرجون من الفتيا، لعلمهم بخطورتها ؛ فها هو الصديق (رضي الله عنه) ، يقول: "أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي ، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟" (مصنف ابن أبي شيبة) ، وسئل الشعبي (رضي الله عنه) عن مسألة ، فقال: لا أحسنها، فقال له أصحابه: قد استحيينا لك ، فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالت: {لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَ مَا عَلَّمْتَنَا} [البقرة:٣٢] (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر) ، وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت عشرين ومائة من الأنصار ، من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يُسأَلُ أحدهم عن المسألة ، فيردها إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول(جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر).

وحماية الشأن العام مسئولية مشتركة ، كل حسب موقعه ، وقدراته، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ؛ الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه).

إن كثيرًا من الناس ربما يستهينون بما يتحدثون به ، أو بما يكتبونه، أو ما يقومون بمشاركته على صفحات التواصل الاجتماعي ، بل قد يراه بعض الناس صورة من صور التسلية ، ولا يدركون أن صناعة الشائعات ، وترويجها بين الناس وسيلة من وسائل الهدم التي يستخدمها أهل الباطل في صراعهم مع أهل الحق ، فترى أمة الجسد الواحد يشكك بعضها في بعض، ويخوِّن بعضها بعضًا ؛ لذا قال النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) (صحيح مسلم) ، فإذا كان تحدث الإنسان بكل ما يسمعه نوعًا من أنواع الكذب ، يُعاقَب عليه قائله عقوبة شديدة في الآخرة ، فكيف بمَنْ يتحدث بما لم يره ، أو يسمعه ، ولا علم له به ، زورًا ، وبهتانا ، وافتراءً؟ وكم من كلمة كاذبة تبلغ الآفاق ، فتكون سببا في عذاب صاحبها يوم القيامة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً ، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً ، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) (صحيح البخاري) ، مما يتطلب منا الحيطة، والحذر ، والتعقل ، وعدم الخوض فيما لا نعلم ، أو الفتوى بدون علم.

لقد أمرنا الحق سبحانه بالتثبت ، وعدم الانسياق وراء المخربين ، والتحقق من كل الأخبار التي ترد إلينا ، حيث يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (التَّأَنِّي مِنَ اللهِ ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ) (السنن الكبرى للبيهقي) ، وقال

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ) (سنن أبي داوود).

ألا ما أحوجنا إلى الوعي بقيمة الشأن العام ، وتغليب المصلحة العامة ، وإدراك المخاطر التي تحاك حولنا ، ويراد لنا الانزلاق فيها كغيرنا ، فلنتعظ بغيرنا ، ونفوِّت تلك الفرص على أعداء الدين والوطن ، ولنَثْبُت متحدين على الحق ، حتى لا نسقط في مكائد أعدائنا المتربصين بنا ، ولننشر الثقة بيننا ، ولنتعاون على كل خير يعود أثره على الناس جميعًا.

اللهم وفقنا لأداء حقوق وطننا علينا ، واحفظ شعبنا ، وولاة أمورنا، وجيشنا، وشرطتنا ، واجعل مصرنا العزيزة أمنا أمانا ، سخاء ، رخاء ، وسائر بلاد العالمين.

❊ ❊ ❊

من سنن اللّه تعالى الكونية
إجراء المسببات على الأسباب

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة:١٠٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

وبعد:

فقد جعل الله (عز وجل) للكون سننا وقوانين تحكمه ، وقواعد تسيّر حركته ، فلا يتقدم لا حق على سابق ، ولا يتأخر سابق عن لاحق، قال تعالى: {لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٤٠] ، وقال تعالى: {فلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً} [فاطر:٤٣] ، وقد جعل الله (عز وجل) هذه السنن ميزانًا يضبط قواعد الحياة ، ويتحقق به إعمار الأرض ، والحفاظ عليها الذي هو غاية الخلق ، حيث يقول (تعالى): {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود:٦١] ، ويقول (سبحانه): {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}، ولا شك أن الأمم التي أدركت حقيقة هذه السنن الإلهية ، وعملت بمقتضاها ، سادت وتقدمت حتى ولو لم تكن مسلمة، بل ولو لم تكن تدين بدين أصلا ؛ لأن هذه السنن لا تحابي أحدًا ، ولا تجامل مخلوقًا.

وإن من سنن الله تعالى الكونية: إجراء المسببات على الأسباب ؛ فلقد خلق الله تعالى الأسباب ومسبباتها ، وأمرنا بالأخذ بالأسباب ، فإذا وجدت الأسباب تحققت النتائج ، وهذا قانون عام محكم ، يجري على الكون كله، في كل زمان ومكان ، فلكل شيء سببه ، فالنار سبب للإحراق ، والقتل سبب للموت ، والحرث والبذر سبب للزرع ، والأكل سبب للشِّبَع ، والجد والاجتهاد سبب للنجاح ، والكسل والإهمال سبب للفشل ، وهكذا.

إن الأمر بالسعي في الأرض والعمل فريضة دينية ، وواجب شرعي ووطنيّ ، حيثُ يقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك:١٥] ، ويقول سبحانه: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة:١٠] ، فهذا مفهوم الدين الإسلامي للسعي والجد والعمل والاجتهاد ، وإعمار الأرض ، فلا حجة لنا حين نتخلف ، تحت أي دعاوى لا تمت للدين بأي صلة؛ إنما هي دعاوى الخمول ، والكسل ، والتخلف عن ركب الحضارة.

وإن المتأمل في سيرة الأنبياء والصالحين يجد أنهم اجتهدوا في الأخذ بالأسباب في كل شئون حياتهم ، فهذا سيدنا نوح (عليه السلام) كان نجارًا ، وبعد عمر طويل في دعوة قومه أمره الله سبحانه أن يصنع السفينة ، قال تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} [هود:٣٧] ، وكان يمكن أن ينجيه الله تعالى بقدرته بلا سبب ، أو عمل ، ولكن الله تعالى يعلمنا كيف يكون الأخذ بالأسباب ، فاستجاب نوح (عليه السلام) لأمر ربه ، وأخذ يصنع السفينة ، ولم يتوان

رغم سخرية قومه منه ، قال تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}[هود:٣٨] ، واستمر في عمله ، وكافأه الله تعالى فنجاه هو والمؤمنين من قومه.

وكان سيّدنا داود (عليه السّلام) حدادًا ، علمه الله هذه الصنعة التي يعود أثرها ونفعها عليه وعلى الناس ، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سبأ:١١،١٠] ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (ما أَكَلَ أَحَدٌ طعامًا قطُّ ، خيراً من أن يأكلَ من عملِ يدِه ، وإنّ نبيّ اللهِ داودَ (عليهِ السّلامُ) كان يأكلُ من عملِ يدِه) (صحيح البخاري).

وفي قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) كان الأخذ بالأسباب والتخطيط المحكم سببًا لنجاة البلاد والعباد من مجاعة مهلكة ، وخطر محدق ، فقد أخذ نبي الله يوسف (عليه السلام) بالأسباب وأعدَّ خطة طويلة مدروسة ، لإنقاذ البلاد من مجاعة أحاطت بالعالم كله ، فتحقق لبلاده الرخاء والازدهار ، والحماية ، والقوة الاقتصادية، وجاءه الناس من كل فج عميق لينالوا من خيرات مصر ، وقد ذكر لنا القرآن الكريم ذلك على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام) في قوله تعالى: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف:٤٧:٤٩].

وهذه السيدة مريم (عليها السلام) والتي كان يأتيها الرزق رغدًا بصورة تعجَّب منها نبيٌّ الله زكريا (عليه السلام) فقال لها كما ذكر لنا القرآن الكريم ذلك على لسانه ، فقال تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران:٣٧] ، وفي موقف آخر على الرغم من ضعفها ومشقة الألم يأمرها الله سبحانه أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب ، ولو أراد الله تعالى أن يتساقط دون شيء لفعل ، ولكنه تعالى يعلمنا الأخذ بالأسباب وبذل الجهد ، قال تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[مريم:٢٥] ، ولله در أبي الهدى الصيادي حين قال:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ ... وَلا تَرْغَبَنْ فِي العَجْزِ يَوْمًا عَنِ الطَّلَبْ
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَـــرْيَـمٍ ... وَهُزِّي إِلَيْكِ الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزَّةٍ ... جَنَـتْـهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ

وهذا ذو القرنين الذي طوى الله تعالى له الأرض شرقًا وغربًا ، لما مرَّ على القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ، اشتكوا إليه ظلم يأجوج ومأجوج ، وإغارتهم عليهم ، وإفسادهم لأموالهم وزروعهم وأنفسهم ، قالوا كما قص القرآن الكريم: {يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} [الكهف:٩٤] ، فاكفنا شرهم ، ولك الأجر والعطاء، فسلك بهم طريق الأخذ بالأسباب ، واستثمر طاقاتهم المهدرة ، وحرك قوتهم المعطلة ، وجعلهم يتعلمون كيف يعتمدون على أنفسهم لا على غيرهم في قضاء مصالحهم ، فتحولوا بذلك أعوانًا له ، لا عالة عليه ،

وحكى القرآن الكريم ذلك على لسانه ، حيث قال تعالى: {فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [الكهف:٩٥:٩٧] ، ثم عندما بذل جهده في الأخذ بالأسباب ، وأتم البناء نسب الفضل لله (عز وجل): {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [الكهف:٩٨].

ولقد ضرب لنا نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة في الأخذ بالأسباب في رحلة الهجرة المباركة ، حيث علَّم النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أمته أن التخطيط المحكم ، والترتيب الدقيق ضرورة من ضرورات النجاح ، وتخطي الأزمات ، فقد جهز النبي (صلى الله عليه وسلم) راحلتين ، واختار الصاحب الأمين ، وحدد الوقت والمكان المناسب للخروج والانطلاق ، فخرجا ليلاً من بيت أبي بكر (رضي الله عنه) ، واختار دليلاً ماهرًا إيمانًا منه (صلى الله عليه وسلم) بتقديم الكفاءات ، واستثمار الطاقات ، مهما اختلفت الأفكار والرؤى، أو حتى العقائد ، ثم كلف (صلى الله عليه وسلم) عامر بن فهيرة (رضي الله عنه) بتتبع آثارهما للعمل على إخفائها أخذًا بالأسباب ، وهو يدرك غاية الإدراك أن الله كفيل به هو وصاحبه ، غير أنه (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يعلمنا أن سنة الله تعالى في كونه تقتضي الأخذ بالأسباب ، ثم تفويض الأمر لله (عز وجل).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلمْ وَبارِكْ عليهِ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين.

إخوة الإسلام:

إن الأخذ بالأسباب لا يتعارض ولا يتنافى مع التوكل على الله (عز وجل) ، فإن من علم حقيقة التوكل اجتهد في الأخذ بالأسباب ، فالمتوكل الحقيقي يأخذ بالأسباب ، ويبذل طاقته وجهده ، ويرد الأمر كله لله صاحب التوفيق والفضل والعون ، قال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] ، وفي تطبيق عمليٍّ لمعنى التوكل على الله يقول النبيُّ (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) [مسندأحمد] ، فالطيرُ لا تدخر طعامًا ولا شرابًا ، ولا تكسل عن السعي وطلب الرزق ، ولكنها تبدأ مع الصباح في السعي والانطلاق والبحث، وتعود وقد رزقها الله تعالى من فضله ما يكفيها ، وهذه غريزة وفطرة تتسق وحركة الحياة ، ولو كان عندها ما يكفيها عمرها كله ، ما كسلت ، ولا ركنت إلى الدعة ، بل تستمر في سعيها ، وبحثها ، وخروجها كل صباح.

لقد كان (صلى الله عليه وسلم) يعلِّم أصحابه المعنى الحقيقي للأخذ بالأسباب في الأمور كلها ، وينهى عن التواكل الذي يضر ولا ينفع ، ولا نبالغ إذا قلنا: إننا نأثم ونظلم أنفسنا وأبناءنا حين لا نأخذ بأسباب التقدم والرقي ، فديننا دين العلم والرقي والحضارة والجمال والنفع للناس أجمعين ، فقد قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أُطْلِقُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ أَوْ أَعْقِلُهَا

وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) (سنن الترمذي) ، فربط الناقة أخذًا بالأسباب لضمان بقائها ، أما تركها فأدعى لسرقتها ، أو ضياعها.

ولقد فقه الصحابة والتابعون الكرام ذلك من النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وطبقوه عمليًّا ، قال سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول: اللهم ارزقني ، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ، ولا فضة" ، وحينما أَتَى عَلَى قَوْمٍ لا يعملون، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ؟ فقَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فقَالَ: بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالْمُتَوَكِّلِينَ؟ رَجُلٌ أَلْقَى حَبَّةً فِي بَطْنِ الأَرْضِ ، ثُمَّ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ ، وقال الأزرق بن قيس: كنا على شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء ، فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس فصلى ، وخلى فرسه ، فانطلقت الفرس ، فترك صلاته ، وتبعها حتى أدركها ، فأخذها ، ثم جاء فقضى صلاته ، وفينا رجل له رأي ، فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ ، ترك صلاته من أجل فرس! فقال أبو برزة: ما عنفني أحد منذ فارقت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم قال: إن منزلي بعيد ، فلو صليت وتركت ، لم آتِ أهلي إلى الليل ، وهذا فهم حقيقي لمعنى الأخذ بالأسباب الذي دعا إليه ديننا الحنيف الذي يأمرنا بالأخذ بالأسباب والتوكل ، ويكافئ كل مجتهد بقدر سعيه وجهده ، قال الله تعالى: {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى}[النجم:٣٩:٤١].

اللهم وفقنا لما فيه صالح ديننا ، ورفعة شعبنا ، ورقي بلادنا ، وسائر بلاد العالمين.

العمل التطوعي ... أهميته وضوابطه

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ}[البقرة: ١٨٤] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن من أهم سِمات المُجتمعات الراقية أن تكون مترابطة ، متماسكة في بنيانها ، يشد بعضها بعضًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ" (متفق عليه) ، فالمُجتمع القوي هو ما يكون كالبنيان الواحد في ترابُطه وتعاونه ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(متفق عليه)، فعند الشدائد تظهر معادن الرجال، ونحن في حاجة إلى التعاون والتكافل والعمل التطوعي أكثر من أي وقت مضى.

ولا شك أن قضاء حوائج الناس باب واسع من أبواب الفضل ، لما فيه من تقويةٍ لروابط الأخوة وتنميةٍ للألفة والمحبة بين الناس ، يقول سبحانه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[المائدة: ٢]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أن النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنَ اعْتِكَافِهِ عَشْرَ سِنِين ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاثَة خَنَادِقَ كُلُّ خَنْدَقٍ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ" (المعجم الأوسط).

ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (متفق عليه).

والمتأمل في ديننا الإسلامي الحنيف يجد أنه دين يأمر بكل ما فيه صلاح الفرد والمجتمع ، فحثَّ على العمل التطوعي ، ودعا أتباعه إلى فعل الخير ، والتسابق إليه ، والمسارعة فيه ، بعيدًا عن الفردية أو الأنانية أو السلبية ، يقول الحق سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الحج: ٧٧] ، ويقول (عز وجل): {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [المائدة: ٤٨].

كما حثَّ على نفع الناس ، وقضاء حوائجهم ، والسعي إلى تفريج كرباتهم ، يقول سبحانه: {لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء:١١٤] ، ويقول (عز وجل) في صفات المؤمنين: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}[المؤمنون: ٦٠ ، ٦١].

وقد أرشدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهمية العمل التطوعي وبيَّن مكانته بدعوة صريحة إلى بذل الفضل الذي يأتي بالخير والذي يعود نفعه على الإنسان ، فيقول (صلى الله عليه وسلم): "يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَك وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَك وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى" (صحيح مسلم).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يحرص على متابعة أصحابه في فعل الخير، وخدمة الناس والسعي في مصالحهم ، وقضاء حوائجهم فيسأل عمن فعل واستجاب وعمن حرص واقتدى ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) ذَاتَ يَوْمٍ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه): أَنَا. قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): مَا اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ" (صحيح مسلم) ، فالعمل التطوعي يرفع عن الناس تعب الحياة ويفرج كربهم ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ..." (صحيح مسلم) ، ولما سُئل رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم): أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحبّ إلى الله (عز وجل)؟ قال (صلى الله عليه وسلم): "أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفعهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ (يعني المسجد النبوي) شَهْرًا..." (المعجم الكبير للطبراني).

ولا يقتصر الأمر على التطوع بالمال وحده ، وإنما يتعدى إلى مجالات متنوعة ، منها : السعي على الضعفاء والمحتاجين كالأرامل والمساكين

واليتامى وغيرهم ، يقول النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ" (متفق عليه).

ومنها: المنافسة في الخيرات ، ولو تأملنا حياة الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) لوجدناها زاخرةً بالبذل والعطاء وفعل الخير والتضحية في سبيل الله ، بل إنهم ضربوا أروع الأمثلة في ذلك ، فقد كانوا يسارعون ويتنافسون في هذا المجال ، فها هو عُمَر بْن الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) يقول: "أَمَرَنَا رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي ، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قُلْتُ: مِثْلَهُ ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللهَ وَرَسُولَهُ ، قُلْتُ: لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا" (سنن أبى داود).

وقد كان عمر (رضي الله عنه) يتعاهد الأرامل فيسقي لهن الماء بالليل ، ورآه طلحة يدخل بيت امرأة بالليل ، فدخل إليها نهارًا فإذا هي عجوز عمياء مقعدة فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندكِ؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني ، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى ، فقال طلحة لنفسه: ثكلتك أمك يا طلحة! عثرات عمر تتبع! (محض الصواب لابن عبدالهادي).

ولا ننسى موقف الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وعمله التطوعي بتجهيز جيش العسرة ، وشراء بئر رومة ، وذلك حين قال

النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَن يحْفِرُ بئرَ رُومَةَ فلهُ الجنةُ" ، فحَفَرَها عثمانُ ، وقالَ: "مَن جَهزَ جيشَ العُسْرَةِ فلهُ الجنةُ" ، فجهَّزَهُ عثمانُ (رضي الله عنه) (صحيح البخاري) ، ولكل عصر رجاله.

إن العمل التطوعي دليل على الإيجابية التي يجب على المسلم أن يتحلى بها ، والتي تعني الشعور بالمسئولية والمشاركةَ الفعَّالة في المجتمع بالتوجيه والإصلاح والارتقاء بالفرد والوطن ، ومن ثم يتحقق فيه قول الله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٧١].

إن دروب العمل التطوعي كثيرة ، تشمل جميع مناحي الحياة من إطعام الجائعِ وكساء العاري ، وتعليم الجاهل ، وإنظار المعسر ، وإعانة العاجز ، وقضاء حوائج ذوي الاحتياجات الخاصة ، والحفاظ على المرافق العامة للدولة والإسهام في صيانتها ، كل ذلك تطوع بالخير وتكافلٌ في المنافع وتضامنٌ في التخفيف من المتاعب ، وتأتي مجالات الرعاية الاجتماعية والصحة والتعليم في مقدمة مجالات العمل التطوعي التي ينبغي أن تنال رعايتنا واهتمامنا.

فما أحوجنا اليوم إلى قلوبٍ سليمةٍ منفتحة على كلِّ أبوابِ الخير، واعية بحقِّ ربِّها عالمةٍ بحقوقِ من حولها ، في حاجةٍ إلى أن نتآلف من أجل أن نعيش إخوة متحابين آمنين.

أقولُ قولِي هَذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّين.

إخوة الإسلام:

إن الإسهام في خدمة المجتمع بالعمل التطوعي وخاصة وقت الأزمات والشدائد والمحن له أجر كبير عند الله سبحانه وتعالى ، حيث وعد سبحانه وتعالى أهل الإيمان المسارعين إلى فعل الخيرات بجنة عرضها السماوات والأرض ، فقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وللعمل التطوعي عدة ضوابط لابد منها حتى تتحقق ثمرته ، منها:

إخلاص العمل لله (عز وجل) وهذا ما أمر اللهُ به رسولَه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، حيث قال: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام:١٦٢ – ١٦٣].

فلابد وأن يكون العمل التطوعي خالصًا متقنًا ، لأنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه ، وإخلاص العمل لا يكون إلا بإتقانه ، بحيث لا يوظف العمل التطوعي لمكاسب سياسية أو حزبية أو طائفية ، أو لصالح جماعة أو أية مصالح خاصة على نحو ما تفعل بعض الجماعات التي تتاجر بدين الله وبحوائج الناس.

ومن ثمَّ فلا ينبغي أن يصاحب العملَ التطوعيَّ أو يتبعه مَنٌّ ولا أذى سواء أنفق من المال أم الجهد ، يقول سبحانه: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٦٢].

ومنها: أن يكون العمل قائمًا على مرضاة الله (عزّ وجلّ) وخدمة المجتمع نافعًا محققًا العفاف والكفاية لأفراد المجتمع.

ومنها كذلك: أن يكون العمل وفق الأطر القانونية المشروعة حفاظًا عليه من المتلاعبين والمستغلين وأصحاب الأغراض.

وبهذا يحقق العمل التطوعي التكافل والتكامل بين أفراد المجتمع، ومن ثمَّ فلا ينبغي أن يتوانى الإنسان في العمل التطوعي، وفي فعل الخير الذي يعود بالنفع على الناس ، بل ولا يحتقر أي صنيع من صنائع المعروف حتى ولو كان قليلاً أو صغيرًا فله فيه أجر ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ" (صحيح البخاري).

نسأل الله العظيم أن يوفقنا لكل ما يحبه ويرضاه ، وأن يهيئَ لنا من أمرنا رشدًا.

* * *

حرمة التلاعب بأقوات الناس
وحاجاتهم الأساسية

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن الإسلام بوسطيته وشمولية منهجه جاء بما يتماشى مع حياة أتباعه الاجتماعية ، ويتوافق مع تطلعاتهم المعيشية واحتياجاتهم الدنيوية ، فلا يصطدم مع طبيعتهم البشرية بل يهذبها ويصون كيانها ، ولا يقف حائلاً دون رغباتهم الإنسانية بل يشبعها وينظم دوافعها دون ميل أو حيف ، فهو دين شامل لكل نواحي الحياة ، فلا تجد أمرًا من أمور الدنيا يحتاجه الناس ، إلا وُجد له العلاج الأمثل الناجح الذي يعالج هذا الأمر في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية بسُبل التعامل الحلال ، وبتيسير الأمور على العباد ، وحثت على تبادل المنافع بين الناس بما يحقق لهم السعادة والاستقرار ، فأمرت بالتراحم والإحسان بين الناس في التعامل حتى تنتشر بينهم المودة والمحبة ، ويشيع التعاون والتآزر في معاملاتهم ، قال تعالى:

{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥] ، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"(سنن الترمذي).

ولما كان الإنسان مجبولاً على حب المال حريصًا على طلبه وتحصيله - لأن به قوام حياته وانتظام أمره ومعاشه - جاء الشرع الحنيف بالحث على السعي في تحصيل المال واكتسابه مما أذن الله به وشرعه من طرق الكسب الحلال والعمل المباح ، فأباح كل كسب ليس فيه اعتداء ولا ظلم ولا ضرر على الغير ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: ١٧٢].

ومن ثمَّ حثت الشريعة الإسلامية التاجر المسلم على السهولة واليسر، والسماحة وحسن المعاملة ، ونُبل الأخلاق في البيع والشراء ، وحضت على الشفَقَة والعَطف بإخوانه المسلمين ، لا يُغالي في الرِّبح ، ولا يبالغ في التكسُّب ، ولا يرهق كواهل إخوانه ، فذلك سبب إلى وجود البركة في الرزق ، والسعة في الأموال ، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم في الدنيا والآخرة، فقد دعا (صلى الله عليه وسلم) بالرحمة لمن فعل ذلك ، فعَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "رَحِمَ اللهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى" (صحيح البخاري) ، وفي رواية أخرى "غَفَرَ اللهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ ، كَانَ سَهْلاً إِذَا بَاعَ ، سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى ، سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى" (سنن الترمذى).

وفي المقابل حرمت الشريعة الإسلامية كل صور المعاملات المحرمة، التي تؤدي إلى الكسب الخبيث ، والتي من شأنها أن توغر الصدور ، وتفسد العلاقة بين المسلمين ، فحرمت أكل أموال الناس بالباطل ، والغش في التعامل بين المسلمين ، و حرمت احتكار السلع الأساسية التي يحتاجون إليها ورفع أسعارها ، وحرمت التضييق على عباد الله في أرزاقهم ، والتلاعب بأقواتهم و حاجاتهم الأساسية.

فكل ذلك من المحرمات والكسب الخبيث ؛ لأنه إثراء بغير حق على حساب أقوات الناس وحاجاتهم الأساسية ، بل نوع من أنواع الغلول – السرقة – والله تبارك وتعالى يقول: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ١٦١] ، وسوف يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ" (سنن الترمذي) ، ولما كانت المكاسب الخبيثة محرمة ؛ لما يترتَّب عليها من ظُلمٍ وعدوان ، وعدم تحقيق العدل والمساواة بين المسلمين ، فقد حذَّرنا منها ديننا الحنيف ، وسدَّ الأبواب الموصلة إليها.

وحرِص على توجيهِ المسلم وإرشادِه حتى يكونَ حريصًا على تنقيةِ مكاسبِه من كلِّ كسبٍ خبيثٍ أو مالٍ محرَّم ، ومن ثمَّ حرَّم الكسبَ الخبيث بكل الطرق والأساليب ، ومن ذلك: أكل أموال الناس بالباطل.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}

[النساء: ٢٩] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "...كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ" (صحيح مسلم).

إنَّ المتأمِّلَ في عالم الناس اليوم يرى أنه عالمٌ تغيَّرت فيه كثيرٌ من القِيَم الصّحيحة ، وتبدَّلت فيه المفاهيمُ المستقيمة ، عالمٌ سَيْطَرَت فيه المادة على نفوسِ كثير من الناس ، وإيثارُ المالِ هَيْمَن على قُلوبِهم ، فراحوا يجمعون الدّنيا بكلِّ طريق ويستكثِرون منها بأيِّ سبيل ، وتساهلوا في جمع الأموال ، لا يهمهم حلالٌ أم حرام ، حتى صدَق عليهم إخبارُ المصطفى (صلى الله عليه وسلم) بقولِه : " يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنْ الْحَرَامِ" (صحيح البخاري) ، ونظرًا لما يترتب على الكسب الخبيث من آفاتٍ وشرورٍ جاءت شريعة الإسلام ضابطةً لتصرفات البيع والشراء والتعاملات المالية بما يحقق التوازن بين سعْي التجار في تحصيل الأرباح ، وسعْي العامة في تلبية احتياجاتهم ، فحرمت كل ما يؤدي إلى التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية

ومن ذلك: **الغش بجميع صوره**: فقد أكد القرآن الكريم حرمة هذه الآفة الخطيرة – وهي الغش– وتوعد عليها بالويل والخسران، لمن يتلاعب بالوزن والكيل، فقال سبحانه:{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}[المطففين:١– ٣].

وقد حذر نبي الله شعيب (صلى الله عليه وسلم) قومه من بَخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان ، كما حكي الله (عز وجل) ذلك عنه في القرآن ، فقال: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[هود: ٨٥].

فالذي يغش الناس يعتبر آكلاً للحرام ؛ لأنّ الواجبَ على البائع الصدقُ في بيعه ، وأن لا يخدَع ولا يغشَّ ولا يخون ، بل يكون إخبارُه صحيحًا صِدقًا ، فإن دلَّس وغشَّ وخان كان آكلاً للمال الحرام .

ومن الغش: دسُّ الرديء في ثنايا الجيد ، وبيعه جميعًا بقيمة الجيد دون بيان الواقع والحقيقة ، وكذلك إخفاء العيب الموجود في السلعة ، فإن باع بيعًا يعلَم أنَّ فيه عيوبًا قد لا يطَّلع المشتري عليها إلاّ بعد حين يُعتبر بهذا آكلاً للحرام ؛ لأن الواجب عليه أن ينصَحَ لإخوانه ، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّه لنفسه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً ، فَقَالَ: "ما هذا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟" ، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: "أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كي يَرَاهُ النَّاسُ" ، ثُمَّ قَالَ : "مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي" (صحيح مسلم) .

وكذلك من المكاسب الخبيثة التي حرمها الإسلام ونهى عنها : **احتكار السلع الأساسية التي يحتاجها الناس** ، ورفع أسعارها ، وتلاعب بعض التجار بأقوات الناس وضروريات حياتهم .

والاحتكار : حبس ما يحتاج إليه الناس من مال أو منفعة أو عمل ، والامتناع عن بيعه وبذله حتى يرتفع سعره ويغلو غلاءً غير معتاد ، بسبب قلّته مع شدة الحاجة إليه ، لتحصيل أكبر كسبٍ ممكن .

وهذا ليس خاصًا بالأقوات بل هو عامٌ في كل ما يحتاجه الناس ويقعون في حرجٍ أو ضيقٍ إذا فُقد أو قَلَّ أو ارتفع سعره ارتفاعًا فاحشًا ، سواءً كان طعامًا أو لباسًا أو دواءً أو عقارًا ، أو غير ذلك مما يحتاجه الناس ، فإن

العدالة الاجتماعية في المعاملات الإنسانية تقتضي أن يرعى الناس حقوق وحاجات بعضهم البعض ، وأن لا يكون كلٌ منهم سببًا في تضييق العيش على الآخر والإضرار بمصالحه ، فذلك مما تستنكفه الفطر السليمة وتترفع عنه الطبيعة الإنسانية ، وقبل ذلك تحرمه الأديان السماوية ؛ ذلك لأنه مسبب للفرقة مستنبت للكراهية والضغينة ، مولد لثقافة الحقد والبغضاء بين الناس ، كما أنه ضرار بالناس ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: "لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ" (سنن ابن ماجه).

لقد عانى كثير من المسلمين من احتكار السلع الضرورية وغلاء أسعارها، ولا يزال ذلك في ازدياد ، مما أثّر على معيشة كثير من الناس ، وأدى بهم إلى زيادة الحاجة والعوز ، وخاصة الفقراء وأصحاب الحاجات ، وهذا بطبعه فيه إضرار بهم ، وهو أيضًا منهيٌّ عنه شرعًا ؛ فقد تضافرت الأحاديث النبوية على التشنيع على المحتكرين لأرزاق وأقوات الناس بغية التغالي في أسعارها .

ومن ذلك : قوله (صلى الله عليه وسلم) : " مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَهُوَ خَاطِئٌ"، وفي روايةٍ : "... وقد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ ورسولِه " (مسند أحمد) .

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي اللهُ عَنْهُمَا) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : "مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الله ، وَالله بَرِيءٌ مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ ظَلَّ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعًا ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ الله" (مسند أحمد).

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

ومما لاشك فيه أن احتكار السلع يحمل في طياته بذور الهلاك والدمار؛ لما يسببه من ظلم وغلاءٍ في الأسعار ، وإهدارٍ لتجارة المسلمين وصناعتهم، وتضييقٍ لأبواب العمل والرزق ، وانتشار الحقد والكراهية بين الأفراد مما يساعد على تفكك المجتمع وانهيار العلاقات بين أفراده ؛ لذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَحْتَكِرُ إِلاَّ خَاطِئٌ" (صحيح مسلم) ، والخاطئ هو الآثم .

وليعلم المحتكر أن هذا الربح الزائد الذي يجنيه من احتكاره حرام ، لأنه ليس نظير زيادة في البضاعة ولا في صفاتها ، ولا نظير خدمة خاصة يقدمها البائع ، إنما هو إلجاء أصحاب الحاجات إلى شراء حاجاتهم بأكثر من أثمانها الحقيقية ؛ من أجل ذلك كان المحتكر للسلعة ملعونًا ، وخاطئًا، وقد برئت منه ذمة الله ورسوله ، وتوعده الله بالعقاب الأليم ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ" (سنن ابن ماجه) ، وعن عُمَرَ بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامًا ضَرَبَهُ اللهُ بِالْجُذَامِ وَالإِفْلاَسِ" (سنن ابن ماجه) .

فالتاجر الذي يزيد في السعر من غير مبرر أو يكتم ما في السلعة من عيوب ، أو يبخس في الكيل والوزن ، أو يتلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الضرورية يعد آكلاً للحرام .

أما التاجر الذي يرأف بالناس يرأف الله به ، ومن يرحمهم يرحمه الله ، ومن ييسر عليهم ييسر الله عليه ، ومن صدق في بيعه وشرائه نال الأجر العظيم والثواب الجزيل ، ويكفيه شرفًا وفخرًا أن ينال الجنة بفضل الله تعالى ورحمته ؛ فقد رُوى عن أَبِي سَعِيدٍ (رضى الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَالصِّدِّيقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ " (سنن الترمذى).

هكذا جاء الإسلام بشريعته الخالدة داعيًا إلى الخير والعدل والتسامح ومحاربًا لكل ما هو فاسد ويضرُ بالفرد والمجتمع ؛ لأن التسعير من غير ضرورةٍ ظلم كبير ، والاحتكار نوع من التلاعب بالأسعار واستغلال حاجة المحتاجين .

ولا شك أن لإغلاء الأسعار على الناس آثارًا سيِّئةً على الفرد والمجتمع، فقد يعجز الفقير عَن شِراءِ حاجاته الضرورية ، وقد يتحمَّل ديونًا يعجَز عن أدائها ، وقد يلجأ إلى طرق محرمة للحصول على المالِ ، وتتعمَّق الفجوة بين الناس ، وتهِن الروابِطُ ، وتنقَطِع الصِّلات ؛ ولذا رُوي عنه (صلى الله عليه وسلم) الوعيد الشديد لمن دخَل في شيءٍ من أسعارِ المسلمين ظُلمًا وعُدوانًا لِيُغَلِّيَهُ عليهم ، فعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ (رضي الله عنه) قال: سمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغَلِّيَهُ عَلَيْهِمْ فانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُقْعِدَهُ بِعُظْمٍ مِنَ النَّارِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ" (مسند أحمد) ، وعند البيهقي في السنن الكبرى : " كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَقْذِفَهُ فِي مُعْظَمٍ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".

اللهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ مِنْ جَهْلِ الجَاهِلِينَ وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا.

* * *

رعاية المسنين وحماية حقوقهم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــــد :

فلقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم ، وكرَمه وفضله على سائر مخلوقاته ، قال تعالى : {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [الإسراء: ٧٠] .

ولما كان الإسلام دين الإنسانية والرحمة بأرقى معانيها ، جاء ليُعلي قيمة الإنسان ويحفظ كرامته، ويرتقي به جسدًا وروحًا ، ويلبِّيَ كل متطلباته وفق منهج ونظام محكم دقيق ، يحث على البر ، وينهى عن الإثم ، ويأمر بالرحمة ، ويعلي من قدر الإنسانية ، فالإنسانية ليست مجرد كلمة أو شعار بقدر ما هي مسئولية وواجب يرعى حقَّ الضعيف قبل القوي ، والصغير قبل الكبير ، والمريض قبل الصحيح ، وتتجلى مظاهر هذه الإنسانية في رعاية المسنين ، وكفالة حقوقهم ، وقضاء حوائجهم ، والسعي على مصالحهم ؛ وذلك حرصًا على استقرار حياتهم وإدخال السرور عليهم ،

وإعطاء كلِّ ذي حق حقه ، وتقوية لأواصر الودِّ والمحبة والترابط بين الناس جميعًا .

فإنَّ إكرام الكبير ، ورعاية المسنين وحماية حقوقهم جزء لا يتجزأ من حضارتنا الإنسانية ، فالمجتمع الذي لا يوقر الكبير ، ولا يرحم المسنين مجتمع لا خير فيه ولا حضارة له .

ولِمَ لا ؟ وهم جزء أصيل من نسيج المجتمع ، أدُّوا ما عليهم فترة شبابهم ، فهم الأكثر حكمة وخبرة في الحياة ، وهم الأمان لغيرهم ، وبهم يتحقق نصر الله تعالى ، ويزداد الرزق ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : "هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلاَ بِضُعَفَائِكُمْ" (صحيح البخاري) أي : ببركتهم ، وبدعائهم ، وصدق نياتهم .

ولقد حثَّ النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) على احترام المسنين وإكرامهم ، ومعرفة قدرهم ومكانتهم ، وربط بين ذلك وبين إجلال الله (عزّ وجلّ) ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ" (سنن أبي داود) ، فقدَّم النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر ذي الشيبة على حامل القرآن والحاكم العادل مع علو منزلتهما ؛ إكرامًا لذي الشيبة ، وتقديرًا له ، حتى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفى كمال الإيمان عمن أنكر حق ذي الشيبة واستخفَّ به ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ" (مسند الشامي) ، وفي الحديث الشريف أيضا: أن شيخًا كبيرًا أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) فأبطأ الجالسون في أن

يوسعوا له ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (سنن الترمذي) ، وفي رواية: "وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا" (مسند أحمد) ، وفي رواية ثالثة: "وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا" (سنن الترمذي).

ولقد راعى الشرع الحنيف التخفيف والتيسير عليهم في أداء الطاعات والعبادات رأفةً بهم ، فقد أمر الإسلام بتخفيف الصلاة من أجل أصحاب الأعذار وكبار السن ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِن فيهِم الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبيرَ" (متفق عليه) ، وفي رواية: " إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ ، وَذَا الْحَاجَةِ" (مسند أحمد).

وكذلك رخَّص الإسلام لغير القادر منهم في الإفطار مع الفدية في رمضان ، قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [البقرة: ١٨٤].

والمقصود بالذين يطيقونه: من يتحملون الصوم بمشقة شديدة بالغة ككبار السن ، وأصحاب الأعذار ، وفي الحج رُخِّص لهم كذلك في كثير من الأحكام رفعًا للحرج عنهم ، ودفعًا للمشقة ، فهم أكثر فئات المجتمع احتياجًا إلى الاهتمام والرعاية بعد أن أفنَوا حياتهم في طاعة الله (عز وجل) ، وتربية أبنائهم ، وفي خدمة أوطانهم ومجتمعاتهم .

ومن حقوقهم أيضًا : حسن معاملتهم ، ورعايتهم ، جسديا ، ونفسيا ، وروحيا بغض النظرعن دينهم ، فهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة أتاه أبو بكر (رضي الله عنه) بأبيه (أبي قحافة) ، فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "هَلاَ تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا

آتِيهِ فِيهِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ ، فأسلمَ" (مسند أحمد).

وقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) أروع الأمثلة في حسن معاملة المسنين ورعايتهم ، اقتداء بنبيهم (صلى الله عليهم) .

فهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يرى رجلاً مسنًّا من أهل الكتاب يتكفف الناس ، فأخذ بيده وذهب به إلى منزله ، فأحسن إليه وأعطاه ما يسُدُّ حاجته ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: (انظر هذا وضُرباءه – أي وأمثاله – فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم) ، وتلا قول الله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ}[التوبة:٦٠] (الخراج لأبي يوسف) .

إن احترام الكبير وحسن معاملته يبرز حسن الإسلام وسماحته في معاملة الضعفاء وأصحاب الحاجات ، فالإسلام يدعو إلى التكافل والتراحم، ويهتم بالفئات الضعيفة التي لا تقوى على مطالب الحياة ، ولقد ربَّى النبي (صلى الله عليه وسلم) المجتمع المسلم على حب الخير للغير ، وتقديم يد العون ومساعدة المحتاجين ، وأمر به ، وكان عمر (رضي الله عنه) – وهو أمير المؤمنين – يخرج في سَوَادِ اللَّيل فرآه طلحة (رضي الله عنه) ، فذهب عمر فدخل بيتًا ، ثم دخل بيتًا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة ، فسألها : مَا بَالُ هَذَا الرَّجُلِ يَأْتِيكِ؟ قالت : إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ، ويخرج عني الأذى" (حلية الأولياء لأبي نعيم) .

فالإسلام يدعو إلى التكافل والتكامل بين أفراد المجتمع حتى تسوده روح الوئام والسلام ، وتتحقق الألفة والمودة والترابط بين جميع أبنائه.

فما أحوجنا إلى عودة حقيقية وجادة إلى قيمنا الدينية والمجتمعية والإنسانية ، من إكرام الكبير ، وذي الشيبة ، وذوي الاحتياجات الخاصة.

على أن رعاية المسنين وحماية حقوقهم ، تزداد أهمية ومسئولية إذا كان المسن ذا رحم وصلة ، فيكون أولى بالعناية والرعاية ، بل إنه يصل إلى حد المسئولية التي يأثم من يقَصِّر في الوفاء بحقها إذا كان المسن أبًا أو أمًّا ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَ تَعْبُدُوا إِلاَ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا}[الإسراء : ٢٣] .

ويقول تعالى:{وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[لقمان : ١٤ ، ١٥].

ولما جاء أحد الناس يستأذن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ، فقال: "يا رسول الله : إني جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإنَّ والديَّ يبكيان ، قال له (صلى الله عليه وسلم) : (فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا" (سنن ابن ماجه) .

وأقبلَ رَجُلٌ علَى النَبيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : " أُبَايِعُكَ عَلَى الهِجْرَةِ وَالجِهَادِ أَبْتَغي الأجْرَ مِنَ الله تَعَالَى ، قَالَ: فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ

أَحَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ ، بَلْ كِلاهُمَا ، قَالَ: فَتَبْتَغي الأجْرَ مِنَ الله تَعَالَى؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا" (صحيح مسلم) ، وفي رواية: "جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ في الجِهَادِ ، فقَالَ: أَحَيٌّ وَالِداكَ؟ قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: فَفيهِمَا فَجَاهِدْ" (متفق عليه).

ومن ثمَ فعلينا أن نمتثل منهج القرآن الكريم ، وتوجيهات النبي العظيم (صلى الله عليه وسلم) في رعاية المسنين والضعفاء ، والرحمة بهم ، والعمل على حماية حقوقهم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أَنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

إذا كان الإسلام قد حثَّ على رعاية المسنين عامَّةً وحماية حقوقهم، فإنه أكدَ على هذه الرعاية للوالدين وخاصة في سن الشيخوخة ، وجعل ذلك ضربًا من الجهاد في سبيل الله (عز وجل) .

فعن كعب بن عجرة (رضي الله عنه) " أن رجلاً مرَّ على النبي (صلى الله عليه وسلم) فرأى الصحابةُ (رضي الله عنهم) من جَلَدِهِ ونَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله؟! فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ

اللهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ" (المعجم الكبير للطبراني).

ولا شك أن رعاية الأبوين في الشيخوخة والكبر والقيام على أمرهما يُنجي من الأزمات ، ويُفرج الكربات ، ويُقيل العثرات في الدنيا والآخرة ، ففي حديث الثلاثة الذين انحدرت عليهم الصخرة من أعلى الجبل فسدت عليهم باب الغار ؛ توسل كل واحد منهم بعمل أخلص فيه لله (عزّ وجلّ) ؛ لعله يرفع عنهم ما هم فيه ، فكان من توسل الأول ودعائه: (اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَامْرَأَتِي ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا ، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ ، فَجِئْتُ بِالْحِلاَبِ ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ ، فَفَرَّجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً ، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ...) (متفق عليه).

وإن من سنة الله تعالى في خلقه أنَّ مَن برَّ والديه برَّهُ أبناؤُه ، ومن عقَّ والديه عقَّه أبناؤُه ، فالجزاء من جنس العمل ، فقد رُوي أن رجلاً ضاق بوالده المسن فصنع له وعاء خشبيًّا حتى لا تنكسر منه الأطباق لرعشة أصابته في يده ، فسأله أصغر أبنائه لمَ صنعتَ هذا الإناء يا والدي؟ قال: لنضع فيه الطعام لجدك حتى لا ينكسر ، فقال الولد : نعم ، حتى نضع لك فيه الطعام عندما تكون مثل جدِّي .

إن الاهتمام بالوالدين عند الكبر والعناية بهما هو أقصر الطرق إلى الجنة ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "رَغِمَ أَنْفُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ" ، قيل: من؟ يا رسول الله قال: "مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ ، أَحَدَهُمَا ، أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ" (صحيح مسلم) ، وعن طَيْسَلَةَ بْنِ مَيَّاسٍ ، قال لي ابن عمر (رضي الله عنهما) : " أَتَفْرَقُ النَّارَ ، وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ " ، قلت : إي والله! قال: " أحيٌّ والداك؟" ، قلت: عندي أمي ، قال: " فَوَاللهِ ! لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ ، لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَا اجْتَنَبْتَ الكبائر" (الأدب المفرد ، للبخاري) .

* * *

مكانة مصر في القرآن والسنة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابه العزيز على لِسَانِ يوسف (عليه السلام): {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ}[يوسف: ٩٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فقد اقتضت حكمة الله (عز وجل) تفضيل بعض الأماكن والبلدان على بعض ، ومن الأماكن والبلاد التي منَّ الله عليها بمزيدِ فضلٍ وتكريمٍ: بلدنا الغالية مصر ، فهي الأرض الطيبة ، أرض الأنبياء والعلماء ، والأولياء والشهداء ، أرضٌ شهد لها ربنا (سبحانه وتعالى) في كتابه الكريم بالكرم ، وعِظَمِ المنزلة ، وعُلُوِّ المكانة ، وخلَّد اسمها في القرآن الكريم ، فذُكرت صراحة في مواضع عديدة ، منها : قوله تعالى : {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[يونس: ٨٧] ، ومنها قوله (عز وجل) : {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}[يوسف : ٢١] ، وقوله سبحانه: {وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ}[يوسف: ٩٩] ، ومنها قوله تعالى على لسان فرعون: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ}[الزخرف: ٥١].

وكما ذكرها القرآن صراحة أشار إليها ضمنًا في كثير من الآيات منها: قوله تعالى:{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس: ٩٣] ، والمقصود هنا بالمُبَوَّأ: مصر والشام ، وقوله تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}[الدخان: ٢٥، ٢٦] يعني قوم فرعون الذين سكنوا مصر ، ثم تركوها بعد هلاكهم ، كما ذكرها في كثير من المواضع صراحة أو ضمنًا ، كقوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ}[المؤمنون:٢٠] ، وقوله: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: ٥١ ، ٥٢] ، وقوله: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص:٣٠] ، وقوله تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ}[التين:١-٣] ، وغير ذلك من الآيات القرآنية المتعددة التي أشار الله (عز وجل) فيها إلى مصر .

وأما عن مكانة مصر في السنة النبوية الشريفة فقد ذكرها النبي (صلى الله عليه وسلم) في كثير من أحاديثه ، منها قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا ، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا ، أَوْ قَالَ: ذِمَّةً وَصِهْرًا" (صحيح مسلم) ، والرحم هنا هي أُمُّنا هاجر زوج أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام)، وأم نبي الله إسماعيل (عليه السلام) ، أما الصهر فهي السيدة مارية القبطية التي أهداها المقوقس حاكم مصر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأنجبت له ابنه إبراهيم الذي سمَّاه على اسم الخليل إبراهيم

(عليه السلام) ، ولذلك قال عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله تعالى عنهما): "قبط مصر هم أخوال قريش مرتين" (فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم).

فهي وصية نبوية للأمة كلها ، يخاطب بها (صلى الله عليه وسلم) أصحاب العقول أن يحسنوا إلى مصر ، وأن يعرفوا قدْرَها ، وأن يحسنوا إلى أهلها ، وأن يكرموهم دون مَنٍّ عليهم ، فقد اختصّ الله (عز وجل) مصر بخصائص كثيرة ، ففيها تجلَّى الله دون غيرها من بقاع الأرض وأوى إليها الأنبياء والرسل ، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ١٤٣] ، وقد عاش على أرضها سيدنا إدريس (عليه السلام) ، وكان وجوده في مدينة (إدفو) بصعيد مصر ، والذي علَّم الناس علوم المدنية والتمدن منذ فجر الإنسانية ، كذلك زارها الخليل إبراهيم (عليه السلام) وتزوج منها بهاجر أم سيدنا إسماعيل (عليه السلام) ، ودخلها نبي الله يعقوب (عليه السلام) ، وعلى أرضها ولد موسى (عليه السلام) ، وكلَّمه ربه تكليمًا بالوادي المقدس طوى.

وكان بها من الصِّدِّيقين والصِّدِّيقات كثير ، منهم: مؤمن آل فرعون الذي ذكره الله (عز وجل) في القرآن في مواضع كثيرة ، منها قوله سبحانه: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ}[غافر: ٢٨] ، وآسية امرأة

فرعون التي قال الله (عز وجل) في حقها : {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[التحريم:١١]، وماشطة بنت فرعون ، وقَدِمَت إليها الصديقة مريم (عليها السلام) مع ابنها نبي الله عيسى (عليه السلام)، قال تعالى:{وَآَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} [المؤمنون: ٥٠] ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "هي مصر ، وانتقلا منها إلى مدينة القدس" (الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي).

لذلك كان الكثير من العلماء والعُبَّاد يثنون على مصر ويتمنون الإقامة بها ، قال عبد الله بن سلام (رضي الله عنه) : " إن مصر بلد معافاة وأهلها أهل عافية ، وهي آمنة ممن يقصدها بسوء ، من أرادها بسوء كبَّه الله على وجهه" (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي).

جدير بالذكر أننا إذا ذكرنا مصر ذكرنا الكعبة المشرفة ، فإن الفاروق عمر (رضي الله عنه) قد أرسل إلى عامله بمصر أن يصنع كسوة للكعبة المشرفة ، ففي الموطأ عن عبد الله بن عمر : كَانَ يُجَلل بدنه الْقبَاطِي وَالأَنْمَاط وَالْحلَل ثمَّ يبْعَث بهَا إِلَى الْكَعْبَة يَكْسُوهَا إِيَّاهَا ، فصُنعت الكسوة من عهد الفاروق عمر (رضي الله عنه) وظلت هكذا تصنع بمصر أكثر من ألف عام.

إذا ذُكرت مصر ذُكر الأزهر الشريف حصن الإسلام الوسطي بسماحته واعتداله ، على أرضها ظهرت أعلام كثيرة نشروا العلم في ربوع الأرض حتى في الأرض التي نزل بها الإسلام وتنزل الوحي بين جنباتها منهم: اللَّيث بن سعد ، والإمام الشافعي ، والعزُّ بن عبد السلام ، وابن حجر العسقلاني ، والإمام الشَّاطبي ، والسيوطي ، وغيرهم كثير .

إذا ذُكرت مصر ذُكر نيلها المبارك الذي هو أحد أنهار الجنة حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : "رُفِعْتُ إِلَي السِّدْرَةِ فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهَرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهَرَانِ بَاطِنَانِ ، فَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالْفُرَاتُ ، وَأَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهَرَانِ فِي الْجَنَّةِ" (متفق عليه) ، كما أنه لم يشر إلى نهر في القرآن الكريم كما أشير إلى نهر النيل ، فقال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}[القصص: ٧]، وقد اتفق المفسرون على أن المراد باليمِّ: نهر النيل.

إذا ذُكرت مصر ذُكر حُبُّها لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونُصرتُها لآل بيته (صلى الله عليه وسلم) ، لذلك استحق أهلها دعوة السيدة زينب (رضي الله عنها) حيث قالت: "يا أهل مصر نصرتمونا نصركم الله ، وآويتمونا آواكم الله ، وأعنتمونا أعانكم الله ، وجعل لكم من كل مصيبة فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا" ، وكانت ولا زالت وستظل هذه الدعوات المباركات حصنًا وملاذًا لكل المصريين ببركة حبهم لآل بيت الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام وتابعيهم وتابعي التابعين إلى يوم الحشر والزحام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

بلدٌ بهذه المنزلة ولها من المكانة ما لها يجبُ على جميع أبنائها وأحبابها الحفاظ على أمْنها وإيمانها ، وسلامتها من كلِّ مخرِّب ومفسد وأصحاب الدعوات الهدامة ، خاصة في هذه الظُّروف الصعبة ، فالحِفاظ على أمن مصر من دعوات الفَوضَى ورياح التخريب من أهم المهمَّات ولنعلم جميعًا أن لبلدنا حُقوقًا وواجبات يجب الوفاء بها ، منها:

نشْر قيمة الأمن والاستقرار ، فبالأمن ترتقي الأوطان وتتقدم الأمم والمجتمعات ويستقر الناس في حياتهم ومعاشهم ، وهذا ما بينه القرآن الكريم حين امتن الله (تعالى) على أهل سبأ بنعمة الأمن والاستقرار فقال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} [سبإ: ١٨] ، فما تقدمت أمة من الأمم، وما ارتقى مجتمع من المجتمعات إلا إذا ساد الأمن وعم الاستقرار بين أفراده ، وأَمِنَ كل فرد فيه على نفسه وماله وعرضه ، ومن ثمَّ يجب على كل مصري أصيل يحب بلده أن يسعى إلى الحفاظ عليه وتحقيق أمنه واستقراره .

كذلك من حق مصر على أبنائها : إخماد الفتن التي يشعلها أعداؤها ، فإشعالها يؤدي إلى زوال النعم ، وحلول النقم ، وقطع التواصل بين الشعوب والأمم ، وانتشار الرذيلة وطرد الفضيلة ، وبث روح العداوة والبغضاء ، والقضاء على روح المودة والإخاء ، فالفتن نار تأكل اليابس والأخضر ، وتفرق بين المرء وأخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، موقظها ملعون ، وناشرها مفتون ، يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

الْقَتْلِ}[البقرة: ١٩١] ، ويقول سبحانه: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥].

واعلموا أن النهوض بوطننا والسعي إلى رقيه إنما يكون بِالجِدِّ وَالاجتِهَاد ، والعمل والإنتاج ، والحفاظ على ممتلكاته ، والتقيد بأخلاقه وقيمه ، وأنظمته وقوانينه ، حتى نرقى بأنفسنا ونحافظ على أمننا واستقرارنا ، فالمواطن الصالح هو من يبني وطنه ويعمل على استقراره ويحافظ عليه ، ولا يسير خلف أصحاب الهوى والدعوات الهدامة الذين يسعون في الأرض فسادًا {وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥] ، وقد قال أحد الوطنيين الحكماء: إن كل شيء على هذه الأرض يُشْرَى مرة واحدة ، إلا الأوطان ، فإن كل جيل من أجيال الأمة لا بد أن يؤدى ثمن وطنه ، لا بد أن يضحي ويُستهدف للموت ليثبت حقه في أرضه ، فإذا أهمل أمر هذا الدفاع جيل من الأجيال ضاع الوطن ، مع تأكيدنا أن مصرنا الغالية ستظل مرفوعة الهامة عالية القدر بحفظ الله لها ، ولن تركع إلا للواحد الأحد ، غير أن ذلك كله يحتاج منا جميعًا إلى جهد وعمل دءوب.

وفي هذا نختم بقول القائل (١) :

مصــــر الأبيـــــة لــن تنحنـــي

ولــن تُحنـــي هامـــًا لغير العلـــيّ

فهــو الحفيظ وهـــو القديــــــــر

---

(١) الأبيات المذكورة للدكتور/ محمد مختار جمعة .

وهو العـــــليم وهو الــــــغني

ولن يستطيـــع العــدا قهرنـــا

ولن نحـــني هـــامًا ولن ننثنـــي

لكــــنّ هذا وذا بالــــــعمل

وبــذل الجــــــهود بعزمٍ قـــوي

اللهم احفظ مصرنا ، واحمِ بلادَنا وبلادَ المسلمين من كلِّ شرّ وسُوء وأدِمْ علينا الأمنَ والإيمانَ ، والسلامة والإسلام .

❊ ❊ ❊

ضوابط البيع والشراء

الحمد لله رب العالمين شدد النكير على من يأكل مال أخيه بغير حق ، وجعل مدار التجارة الرابحة على الأمانة والصدق ، فقال سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا}[النساء :٢٩،٣٠] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعــــد :

فإن من جوانب عظمة الدين الإسلامي التي تميز بها من بين سائر الأديان والشرائع أنه ما ترك خصلة من خصال الخير تبث بين الناس المودة والرحمة والألفة إلا أمر بها ورغب فيها الناس كافة .

وبما أن النفس البشرية جُبلت على حب المال الذي به قوام الحياة وانتظام أمر المعاش جاءت الشريعة الإسلامية بتعاليمها السمحة تحث أتباعها بضرورة السعي في تحصيل المال واكتسابه من طرق مباحة ومشروعة ، فأباحت جميع صور الكسب الحلال التي ليس فيها اعتداء ولا ظلم ولا ضرر على الغير ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[البقرة :١٧٢] ، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : " أَيُّهَا

النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[المؤمنون:٥١] ، وقَالَ سبحانه وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[البقرة: ١٧٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ" (صحيح مسلم).

والبيع والشراء أحدُ طرق الاكتساب المباحة لتعلق مصالح العباد به كما قال تعالى: {وأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاْ}[البقرة:٢٧٥]، وعدَّه النبيُ الأمين (صلى الله عليه وسلم) من أهم المكاسب وأطيبها ، فعَنْ عَبَايَةَ بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قال: "كَسْبُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ" (المستدرك للحاكم) ، كما أن البيع والشراء ضرورة من ضروريات الحياة يتحقق ، بهما إعمار الكون واستقرار المجتمع وأمنه .

ومن هنا حثت الشريعة الإسلامية في البيع والشراء على السهولة واليسر، والسماحة وحسن المعاملة ، وطلب الربح اليسير دون عنت أو مشقة على الناس، والتزام الشفَقَة والتلطف بالمتعاملين ، حتى تتحقق البركة في الرزق ، والسعة في الأموال ، وجعلت الالتزام بهذه التعاليم بابًا عظيمًا من أبواب الرحمة والإحسان ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قال: "رَحِمَ اللهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى" (صحيح البخاري)، وفي رواية الترمذي من حديث

جابر – أيضًا – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "غفَرَ اللهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ ، كَانَ سَهْلاً إِذَا بَاعَ ، سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى ، سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى" (سنن الترمذي).

والبيعُ الذي أباحه الله وتعلَّقت به مصالح الناس هو البيعُ الذي يحصُل به تبادلُ المنافع بين الناس من غير ضررٍ يلحَق بأحد المتبايعَين ، ولذا حذَّرنا الله من أن يأكلَ بعضنا مالَ بعض ، قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا} [النساء:٢٩ـ ٣٠].

فقضية البيع والشراء في الإسلام قائمة على أسس العدل ، والصدق ، والرضا ، والقبول ، والوضوح التام ، بعيدًا عن الظلم والغرر واستغلال حاجات الناس ، والتراضي بين المتعاقدين ، فعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : " لأَلْقَيَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُعْطِىَ أَحَدًا مِنْ مَالِ أَحَدٍ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسِهِ إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ" (صحيح ابن حبان) ، وهذا هو الطريق لحصول البركة في البيع والشراء ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ ، قَالَ: سَمِعْتُ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا" (متفق عليه).

والتاجر الصادق الأمين يُحشر يوم القيامة بصحبة الأنبياء والشهداء والصالحين ، هكذا أخبر من لا ينطق عن الهوى ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ

(رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ" (سنن الترمذي) ، فالصدق والأمانة في البيع والشراء يجلبان البركة ويساعدان على تأليف القلوب ، وقد قص علينا النبي الأمين (صلى الله عليه وسلم) مثلاً راقيًا لصدق وأمانة متعاقدين ، فحلت البركة والألفة وتحقق الود المطلوب تحقيقه بين المسلمين .

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خذْ ذَهَبَكَ مِنِّي ، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا ؛ فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلاَمٌ ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ ؛ قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلاَمَ الْجَارِيَةَ ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا" (متفق عليه).

ويكفي أن الله (عز وجل) ثالث الشريكين المتعاقدين ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) رَفَعَهُ ، قال: "إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا "(سنن أبي داود) ، فالخيانة على العموم صفة من صفات المنافقين ، جعلها النبي (صلى الله عليه وسلم) علامة يُعرف بها المنافق ، بل إن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) نفى الإيمان عن خائن الأمانة ومضيعها ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلاَ قال: "لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ" (مسند أحمد) ، وذلك لما يترتب على

خيانة الأمانة من فساد المعاملات بين الناس ، وقطيعةٍ بين أفراد المجتمع ، وتباغضٍ يفضي إلى النزاع والشقاق ، وتكدُّس في المحاكم بالعديد من القضايا التي يعدُّ سببها الأول خيانة الأمانة ، فحري بكل تاجر أن يكون صادقًا أمينًا في بيعه وشرائه وسائر معاملاته حتى تتحقق البركة.

ومن الضوابط التي وضعها الإسلام أيضا في المعاملات عامة والبيع والشراء خاصة : حرمة الغش أو التدليس ، فالغش صناعة لا يحسنها إلا المنافق ، فهو مظهر من مظاهر الكذب ، والكذب أمارة من أمارات النفاق، والغش خيانة وخداع ، وهو محرم بإجماع المسلمين ، وصاحبه ليس على طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا على هديه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا" (صحيح مسلم) ، إنه إعلان حرب من النبي (صلى الله عليه وسلم) على أصحاب الضمائر الفاسدة التي لا تراقب ربها سرًّا ولا علانية ، وتحذير لكل من تسول له نفسه الخبيثة غش المسلمين وخداعهم وأكل أموالهم بالباطل ، فهل من عاقل؟.

فالغش داء عضال وآفة خطيرة ، لا يقتصر خطرها على الفرد فحسب ، بل يمتد أثرها إلى المجتمع كله ، والغش يكون في النوع والجودة ، وذلك بدسِّ الرديء في ثنايا الجيد ، وبيعه جميعًا بقيمة الجيد دون بيان الواقع والحقيقة ، فيخفي البائع العيب الموجود في سلعته الرديئة ويظهرها كأنها سليمة ليس بها عيب من العيوب ، وهذا ما وضحه النبي الأمين (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حين مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً ، فقال: "مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟" قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ

يَا رَسُولَ اللهِ ، فقال: أَفَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟ ثُمَّ قال: "مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي" (صحيح مسلِم).

إن الغش مرض ملعون ، إذا تخلل في قلب العبد أهلكه لا محاله ، وكان عاقبة أمره خسرًا ، ولله در من قال:

أيَا بَائِعًا بالغـشِّ أَنــتَ مُعَــرَّضٌ — لدَعوَةِ مَظْلُومٍ إلى سَامِعِ الشَّكْوَى
فَكُلْ مِنْ حلالٍ وارْتدِعْ عن مُحرَّمٍ — فَلسْت على نارِ الجحِيمِ غدًا تَقْوَى

وكذلك من الضوابط التي وضعها الإسلام في البيع والشراء: حرمة التطفيف في الكيل والميزان ، والتطفيف معناه: الاستيفاء من النّاس عند الكيل أو الوزن ، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم ، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير الّتي يتعامل بها النّاس (المفردات للراغب) ، فالله (عز وجل) أمر بإقامة الوزن بالقسط في كتابه الكريم ، قال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا}[الإسراء: ٣٥] .

وقد حذر نبي الله شعيب (عليه السلام) قومه من بخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان ، كما حكى الله (عز وجل) ذلك عنه في القرآن ، فقال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥] ، وقد عقَّب القرآن الكريم النهي عن التطفيف بقوله تعالى: {وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [هود: ٨٥] ، وفيه دلالة على أنَّ البخس في الميزان والتطفيف من عناصر الإفساد للمجتمع،

فالتطفيف يؤدي إلى فقدان الثقة بين أفراد المجتمع ، وعدم الاطمئنان ، وتسود المجتمع حالة من الانحراف والتحايل والمكر والخديعة ، فتفسد القيم الإنسانية ، ويعم الفساد الأرض.

فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قال: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) فَقَال: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا ، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ ، إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ ، إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ" (سنن ابن ماجه).

والتطفيف في الكيل والميزان من الكبائر التي تهوي بصاحبها في النار، قال سبحانه: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين: ١- ٣] ، قال مالك بن دينار (رضي الله عنه): "دخلت على جار لي قد نزل به الموت ، فجعل يقول: جبلين من نار ، جبلين من نار فقلت: ما تقول؟ أتهجر؟ قال: يا أبا يحيى ، كان لي مكيالان ، أكيل بأحدهما ، كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظما ، فمات من وجعه" (الكبائر للذهبي).

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

ومن الضوابط التي وضعها الإسلام في البيع والشراء: حرمة الاحتكار للسلع الأساسية التي يحتاج إليها الناس ، والاحتكار معناه: حبس السلعة والامتناع عن بيعها ، أو محاولة الاستحواذ عليها في السوق بقصد رفع أسعارها وزيادة تحقيق الأرباح على حساب الناس والمجتمع ، وربما حتى على حساب الأمن القومي للبلاد ، وهو دليل على دناءة نفس صاحبه وسوء خلقه ؛ لذا نهى النبي الكريم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن كل ألوان الاحتكار وكنز السلع لرفع ثمنها على الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فهو خاطئ" (مسند أحمد) ، وفي ذلك ما يؤكد حرمة استغلال حوائج الناس ، أو التلاعب بأقواتهم وحاجاتهم الأساسية التي يحتاجون إليها ، سواء في طعامهم أم في غيره ؛ لأن ذلك يُعدُّ كسبًا خبيثًا محرَّمًا ، وهذا ما حذَّرنا منه ديننا الحنيف ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ) (صحيح مسلم).

إن المحتكر لا خُلُق له ولا وطنية ، غلبته أنانيته فجعلهما فوق كل اعتبار، فاختار الأثرة على الإيثار ، فهو يتاجر بأقوات الناس ومقومات

حياتهم ، ويبني ثراءه على حساب عنتهم ومشقتهم ، وهذا بطبعه فيه إضرار بهم ، حذرنا منه ديننا الإسلامي الحنيف الذي يأمرنا بالتراحم وعدم استغلال حاجات الناس.

فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: "مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ، ضَرَبَهُ اللهُ بِالْجُذَامِ وَالإِفْلاَسِ" (سنن ابن ماجه).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَبَرِئَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللهِ تَعَالَى" (المستدرك للحاكم) ، وذلك ؛ لأنه يستجلب سخط الله (عز وجل) وسخط الناس ودعاءهم عليه ، ونقمتهم وبغضهم له.

وقد حرم الإسلام الاحتكار لما له من أضرار على الفرد والمجتمع ، فهو يحمل في طياته بذور الهلاك والدمار ؛ لما يسببه من ظلم وغلاءٍ في الأسعار ، وإهدارٍ لتجارة المسلمين وصناعتهم ، وتضييقٍ لأبواب العمل والرزق ، وانتشار الحقد والكراهية والعداوة والبغضاء بين أفراد الأمة ، مما يكون سببًا في تفكك المجتمع وانهيار العلاقات بين أفراده.

إضافة إلى ذلك ما يترتب عليه من الأمراض الاقتصادية والاجتماعية ، مثل البطالة والتضخم والكساد والرشوة والمحسوبية والنفاق والسرقة والغش ؛ لذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَحْتَكِرُ إِلاَّ خَاطِئٌ" (صحيح مسلم) ، (والخاطئ هو الآثم).

وليعلم المحتكر والمستغل أن الربح الزائد الذي يجنيه ويتحصل عليه من احتكاره واستغلاله حرام شرعًا ، قال تعالى: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[آل عمران:١٦١].

بالإضافة إلى أنه جلب لنفسه اللعنة والطرد من رحمة الله (عز وجل) ، وبرئت منه ذمة الله ورسوله وتوعده الله بالعقاب الأليم ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ" (سنن ابن ماجه).

إنَّ المؤمنَ الحق هو من يراعي حقوق العباد في بيعه وشرائه ؛ لتكون تجارته نافعة ، ومكسبه طيبًا حلالاً ، فيسعَد في دنياه وآخرته ، أمَّا الأساليب الخبيثة في البيع والشراء ، فحري بكل مسلم أن يترفّع عنها طاعةً لربّه ، وصيانة لعرضه ودينه ، ومحافظة على أموال المسلمين ، وبُعدًا عن كلِّ ما يضرُّه في دينه ودنياه.

اللهم ارزقنا رزقًا حلالاً طيبا مباركًا فيه ، واكفنا يارب بحلالك عن حرامك ، وأغننا بفضلك عمن سواك .

❋ ❋ ❋

النفع العام في ميزان الشرع الشريف

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح البلاد والعباد ، والسُّمُوِّ بالنفس البشرية ، والارتقاء بها إلى أعلى الدرجات ، فكل ما يحقق النفع العام للناس يكون موافقا للشرع وإن لم يرد فيه نص صريح ، وكل ما يصطدم مع مصالح الناس ومنافعهم فلا أصل له في الشرع الشريف.

إن الدين الإسلامي الحنيف لا يَعْرِف الفردية أو الأنانية أو السلبية، ولا ينادي بتغليب المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، وإنما يدعو إلى النفع العام ، والعطاء الصادق ، وينادي بالتعاون على البرِّ والتقوى في إطار من المحبة والإيثار ، حتى يحقق المجتمع الرقي المنشود ، والتكافل المحمود ، ويكون سعي الفرد فيه من أجل المجموع ، فيتحقق الخير للفرد والمجموع معًا ، ويتعمق في قلوب أبناء الوطن إحساس الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ولله در شوقي حيث قال:

بِـلادٌ مــاتَ فِتيَتُهــا لِتَحيــا   وَزالــوا دونَ قَومِهِــمُ لِيَبقــوا

ولا شك أن المتدبر لكتاب الله (عز وجل) يدرك يقينًا أن المقصد العام والكلي من تشريع الأحكام للناس هو تحقيق مصالحهم بجلب النفع والخير لهم ، ودفع الضر والشر عنهم ، فلقد أكد القرآن الكريم أن الحفاظ على المصلحة وتحقيق النفع العام هو منهج الرسل والأنبياء جميعًا ، فما أرسل الله (عز وجل) نبيًّا ولا رسولاً إلا لإسعاد قومه وتحقيق الخير لهم دون انتظار لمقابل أو منفعة دنيوية ، قال تعالى على لسان نبيه نوح (عليه السلام): {وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى اللهِ} [هود: ٢٩] ، وقال سبحانه على لسان نبيه هود (عليه السلام): {يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[هود: ٥١] ، وهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يتضرع إلى ربه (عز وجل) بدعاء يبين مدى حرصه على نفع الناس ودوام الخير لهم قائلاً: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [البقرة: ١٢٦] ، فمن المعلوم أن المقصود من البلد هنا أهلها ، كما دعا لهم بالرزق الذي يغنيهم عن غيرهم ، لأن البلد إذا كان آمنا ، ومطالب الناس الحياتية متوفرة فيه ، ساعد ذلك أهله على طاعة الله بنفوس مستقرة ، وقلوب مطمئنة ، تسعى لتحقيق مراد الله (عز وجل) من الخلق بعمارة الأرض وإصلاحها ، حيث يقول سبحانه: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١] ، ويقول جل شأنه: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [الأعراف: ٨٥].

ولقد جاءت الشريعة المحمدية لتُعلي من شأن هذا المبدأ الإنساني والإصلاحي القويم ، ولتُرسي قواعد الحفاظ على استقرار المجتمع والعمل على رقيه وتقدمه من خلال تقديم الأعم نفعًا على الأخص ، وترتيب الأولويات حتى تنتظم الحياة وتستقر ، والسيرة النبوية المطهرة ، وحياة الصحابة الكرام زاخرة بالمواقف العظيمة التي تدل على ذلك.

فعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: "لَوْ شِئْنَا أَنْ نَشْبَعَ شَبِعْنَا، وَلَكِنَّ محمدًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ" (شعب الإيمان للبيهقي) ، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُؤثِرُ غيره علَى نفسِهِ وعلَى أهْلِ بيتِهِ معَ شدةِ حاجتِهِمْ.

وعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ) (صحيح مسلم).

وفي الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: جَاءَتني مِسْكِينَةٌ تَحْمِلِ ابْنَتَيْن لَهَا ، فَأَطعمتهَا ثَلاثَ تَمْرَاتٍ ، فَأَعطتْ كُلَّ وَاحدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرفعتْ إِلى فِيها تَمْرةً لتَأْكُلهَا ، فَاسْتَطعَمَتهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّت التَّمْرَةَ الَّتي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تأْكُلهَا بيْنهُمَا ، فأَعْجبني شَأْنها ، فَذَكَرْتُ الَّذي صنعَتْ لرسولِ اللَّه (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) فَقَالَ: (إنَّ اللَّه قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجنَّةَ ، أَو أَعْتقَها بِهَا مَن النَّارِ) (متفق عليه ، واللفظ لمسلم) ، فإذا كان هذا جزاء

من آثرت ابنتيها على نفسها فما بالكم بمن يؤثر الضعيف والمحتاج والمسكين؟!.

وهذا هو عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في عام الرمادة وقد اشتد بالمسلمين الفقر والجوع فحضرت تجارته من الشام فإذا هي ألف بعير محملة بُرًّا وزيتًا وزبيبًا فجاءه تجار المدينة ، فقال لهم: "ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد ، بعنا هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه ، قال: حبًّا وكرامة ، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: نزيدك الدرهم درهمين؟ فقال لهم: أُعطيت زيادة على هذا ، قالوا: أربعة ، قال: أُعطيت زيادة على هذا ، قالوا خمسة ، قال: أُعطيت زيادة على هذا ، فقالوا له: يا أبا عمرو ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذي أعطاك؟ فقال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا ، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين". (الشريعة للآجُرِّي).

وحينما أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) على الصحابة بشراء بئر رومة وَكَانَت تحت يد رجل يهودي وكان يغالي في ثمن مائها ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلاَءِ الْمُسْلِمِينَ) (صحيح البخاري) ، فأتى عثمان (رضي الله عنه) اليهودي وساومه عليها ، فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم ، فجعله للمسلمين ، وكان لسيدنا عثمان يوم ولليهودي يوم ، فكان إذا جاء يَوْم عثمان استقى المسلمون مَا يكفيهم يومين ، فلما رأى ذَلِكَ اليهوديُّ قَالَ: أفسدت علي بئري ، فاشترِ النصف الآخر ، فاشتراه عثمان (رضي الله عنه)

(السيرة الحلبية) ، وكان ذلك استجابة لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وحرصًا على المصلحة العامة للمسلمين .

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حينما ضاق المسجد الحرام على الناس ، أجبر (رضي الله عنه) أصحاب البيوت المجاورة للمسجد على بيع دورهم ، وقال لهم : " إنما أنتم الذين نزلتم على الكعبة، ولم تنزل الكعبة عليكم" (أخبار مكة للأرزقي) ، وكذلك فعل سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هذا الأمر مرة أخرى ، وقال: "إنما جرأكم عليَّ حلمي ، فقد فعل عمر بكم ذلك فلم تتكلموا". (التاريخ الكبير للذهبي) ، مما يدل على جواز نزع الملكية الفردية لمصلحة المرافق العامة كتوسيع الطرق والمقابر وإقامة المساجد وإنشاء الحصون ، والمؤسسات العامة كالمشافي والمدارس والملاجئ ونحوها؛ لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة .

كما أننا نؤكد على أن الفهم الصحيح للدين يقتضي أن من صور النفع العام التي حث عليها ديننا الحنيف ، ورغب فيها مراعاة حال الناس وواقعهم ، وترتيب الأولويات تلبية لحاجات المجتمع الضرورية والملحة ، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فالأولوية لذلك .

وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فالأولوية لذلك ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدَّين عن المدينين وتفريج كروب الغارمين فالأولوية لذلك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

لقد راعى الإسلام ترتيب الأولويات حتى في الأعمال الصالحة ، فأمر عند المفاضلة بين عملين كلاهما خير بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو الشخصية ، ذلك أن المصلحة العامة نفعها مُتعدٍّ ، أما المصلحة الشخصية فنفعها لا يتجاوز صاحبها ، فلو أن رجلاً يعمل في مؤسسة ما ويتقاضى على عمله هذا أجرًا فيقضي ليله في الصلاة والقيام ، ثم إذا جاء النهار ذهب إلى عمله متعبًا مرهقًا ولم يقم بواجبه المنوط به ، وتعطلت بسببه مصالح هذه المؤسسة ، ومصالح من تقوم المؤسسة بخدمتهم ، أليس ذلك تضييعًا للأمانة ، وأكلاً لأموال الناس بالباطل ، وتفريطًا في المسئولية التي كُلف بها؟ وهو بذلك قد أضاع الواجبات من أجل أداء النوافل.

وهذا لا شك عدم فهم لمقاصد الدين ، ولله در سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه) يوم أن نام على فراش الموت فأوصى سيدنا عمر (رضي الله عنه) بوصية جاء فيها: "واعلم أن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة". (حلية الأولياء لأبي نعيم).

إن الفهم الصحيح لدين الله (عز وجل) بما يتناسب مع واقع هذا الزمان ، ويراعي أحوال الناس وحاجاتهم يقتضي أن لا تقف حدود الفهم عند بعض مسائل فقه الأحكام على سبيل التلقين أو التلقي دون غوص أو

إدراك لفقه المقاصد أو الأولويات أو الواقع أو المتاح مما تغيب معه الغاية الأسمى لمقاصد التشريع.

وانطلاقًا من هذا الفهم المقاصدي لأوامر الدين الحنيف ، وترتيبًا لفقه الأولويات فإننا نؤكد على أن تقديم قضاء حوائج الناس والمجتمع ، وكل ماكان من باب النفع العام أولى من تكرار الحج والعمرة ؛ لأن قضاء حوائج الناس كالتيسير على معسرٍ وقضاء حاجته ، أو الصدقة على فقير وكفايته ، أو فك أسر سجينٍ مدينٍ بدينٍ من فروض الكفايات ، ومعلوم أن الوفاء بفروض الكفايات مقدم على جميع النوافل بما فيها تكرار الحج والعمرة.

فما أحوجنا إلى فهم ديننا فهما صحيحا ، وإدراكنا لواقعنا إدراكًا واعيًا يجعلنا نقدر حجم المخاطر التي تحيط بنا ، ويحملنا على تقديم النفع العام والمصلحة العامة على المصلحة الشخصية بكل إخلاص وتجرد ، امتثالاً لتعاليم ديننا الحنيف ، ورغبة في تقدم وطننا ورفعته والنهوض والرقي به إلى المكانة التي تليق به وبأبنائه.

اللهم احفظ مصر وشعبها وجيشها وشرطتها من كل مكروه وسوء.

* * *

التنافس في الخيرات وخدمة الأوطان

الحمد لله رب العالمين ، دعا عباده المؤمنين إلى التسابق في كل ما يدخلهم جنات النعيم ، فقال عز من قائل: {سابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ} [الحديد: ٢١] ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فلقد خلق الله عز وجل الإنسان ومنحه إمكانات عظيمة ، يقوم عليها معاشه وحياته ، وفضَّله بها على سائر المخلوقات ، منحه العقل الذي به يفكر ، ويميز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، ومنحه الحواس التي يحس بها بما حوله ، ومنحه الشعور والإحساس الذي تتحرك به عواطفه ، كل ذلك لتكتمل شخصيته ، وتتوازن مقومات حياته ، وهذا كله بلا شك من نعم الله سبحانه على الإنسان ؛ ولذا عاش الناس في هذه الدنيا وامتدت بهم الحياة ، وصاروا يتنافسون باستغلال هذه الإمكانات ، وصارت الحياة ميدانًا لهذا التسابق بمختلف أنواعه.

وكلما قلَّب الإنسان نظره في مشارق الأرض ومغاربها وجد أحوال الناس مختلفة ، فهناك فئات من الناس همهم المال ، ركزوا جهودهم في جمعه وإنفاقه ، وفئات أخرى همهم البحث عن كل جديد ، فما استحدث من آلة إلا وتفكيره يسبقه إلى ما بعدها ، وفئات أخرى وجهوا همهم

وإمكاناتهم إلى إرضاء رغباتهم وإشباع شهواتهم ، كل بحسب ما يرغب ويهوى ، مستغلاً ما استطاع من نعم الله سبحانه وتعالى ، ومن الناس من استغل إمكاناته الجسمية والبدنية ، فوجهها إلى ميادين مناسبة لهذه الإمكانات ، حتى على مستوى الأُمم ، وهكذا الناس نجد لكل منهم وجهة، ولكن المسلم دائمًا وجهته إلى فعل الخير ، وهذا ما بينه الله تعالى في قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٤٨] ، وقوله تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨] ، وقوله: {وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣].

ولا شك أن الإسلام دين الخير والصلاح ، ودين السعادة والرخاء ، دين يأمر بكل ما فيه صلاح الفرد والمجتمع ، أقرَّ مبدأ المنافسة ، وشجع على استغلال إمكانات الإنسان ، ووجه إلى ما يستحق بذل الجهد فيه ، وجعل في مقدمة ما يسعى إليه الإنسان وينافس فيه ما يسعده في دنياه وآخرته ، يقول سبحانه: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ} [القصص:٧٧] ، فالهدف من السعي هو الدار الآخرة مع التمتع بالحياة في الدنيا.

والتنافس في الخير هو التنافس المشروع المحمود حينما يُشمِّر كل امرىءٍ عن ساعده ؛ ليصنع المعروف ، أو يبذل الخير ، أو يَعمُر الأرض ، والغاية من كل ذلك نيل رضا الباري (عز وجل) والفوز بجنانه والظفر بالسعادة الأبدية الدائمة.

كما أن التنافس في أعمالِ الخيرِ من وصايا النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) فَقَالُوا: "ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، فَقَال: "وَمَا ذَاكَ؟" قَالُوا: "يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ ، وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ"، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): " أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟" قَالُوا: " بَلَى يَا رَسُولَ الله" ، قال : " تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ مَرَّةً" (متفق عليه).

فميادين التنافس كثيرة ؛ لذلك أرشدهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى لون من ألوان الخير والعمل الصالح ؛ ليكون لهم عوضًا عن ما فقدوه من التسبيح والتكبير والتحميد ثلاثًا وثلاثين دبر كل صلاة ، ويختمون المائة بلا إله إلا الله ، وهكذا كان السلف رضوان الله عليهم ؛ فهل لنا أن نتشبه بهم؟

وليتَأَمَّلْ كلٌّ منا قَولَ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) حَاثًّا على المُبادَرَةِ ، والمُسَارَعة في الطاعات وعلى رأسها الصلاة في جماعة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن رسول (صلي الله عليه وسلم) قال: "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ – أي التبكير – لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لاَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ " (متفق عليه) ، والبردان هما الفجر والعصر .

وقد سَادَتْ رُوحُ المنافسةِ في الخيراتِ بينَ الصحابة رضوان الله عليهم، وكانَ أبو بكرٍ الصديق (رضي الله عنه) سَبَّاقًا أَبَدًا ، فعن عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قال: "أَمَرَنَا رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي ، فَقُلْتُ : الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : "مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟" قُلْتُ : مِثْلَهُ ، قَالَ : وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): "مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟" قَالَ: "أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللهَ وَرَسُولَهُ" ، قُلْتُ: "لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا" (سنن الترمذى).

وهذه صورة أخرى من صور التنافس والتسابق في الخيرات بين الصحابة (رضوان الله عليهم) ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} [البقرة:٢٤٥] ، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ: وَإِنَّ اللهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: "نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ" ، قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ يَا رسول الله قَالَ: فَنَاوَلَهُ يَدَهُ ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي – وَلَهُ حَائِطٌ فِيهَا سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا – قَالَ فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ ، قَالَتْ لَبَّيْكَ ، فَقَالَ: اخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ) (المعجم الكبير للطبراني) .

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالاً ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءُ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[آل عمران:

٩٢]، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ : {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءُ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : "بَخٍ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ" ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: "أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ" (متفق عليه) ، ولقد تأسَّى الصالحون برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام (رضوان الله عليهم) في المسارعة إلى الخيرات والمنافسة في الصالحات ، قال وهيب بن الورد (رضي الله عنه): "إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل" (لطائف المعارف لابن رجب) .

والإنسان العاقلُ هو الذي يُسارِعُ ويُبادرُ قَبْلَ العوائِقِ والعَوَارِض ، فَنَافِسْ مَا دُمْتَ في فُسْحَةٍ ونَفَسْ ، فالصِّحْةُ يَفْجَؤُهَا السَّقَم ، والقوةُ يَعْتَرِيهَا الوَهَن ، والشبابُ يَعْقُبُهُ الهَرَم ، فعلى الإنسان أن يسارع ويبادر إلى فعل الخير ولا يؤجله ؛ فإنه لا يدري ماذا سيحدث غدًا .

بَادِرْ بِخَيْرٍ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرَا فَلَيْسَ في كُلِّ وَقْتٍ أَنْتَ مُقْتَدِرُ

وهذا ما أمر به النبي (صلى الله عليه وسلم) فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قال: "بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا " (صحيح مسلم) .

إن أبواب الخير كثيرة ، ومفتوحة للراغبين ، والمؤمن العاقل هو الذي يبادر إلى الخيرات ، ويقطف من ثمراتها ، فاللهَ اللهَ ما دام في الوقت

مهلة، وفي العمر بقية ، قبل فوات الأوان ، هذه الميادين الواسعة للتسابق هي ميادين المؤمنين الصادقين ، الذين قال الله عنهم: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}[المؤمنون: ٥٧-٦١].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

لقد جعل الإسلام السبق إلى الخيرات والمسارعة إلى الصالحات مَطْلَبًا شرعيًّا حث المؤمنين عليه وأمرهم به ، فقَالَ تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الحديد:٢١] ، وقال سبحانه: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} [البقرة: ١٤٨] ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَي: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[السجدة: ١٧] "(متفق عليه) ، كما أن المسارعة والمسابقة في الخير صفةٌ من صفاتِ الرسل (عليهم السلام) قال تعالى: {إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكانُوا لَنا

خاشِعِينَ}[الأنبياء: ٩٠] ، وصفة من صفات المؤمنين الموحدين أهل الفلاح في الدارين ، فقد مدح الله تعالى المتصفين بها وأشاد بأصحابها ، وبين أن بلوغ الدرجات تكون بما قدمه الإنسان من خيرات فقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[الواقعة :١٠-١٢].

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أن النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأفُقِ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ" قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: "بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ" (متفق عليه).

وقد تمثل صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا التسابق الشريف والمنافسة العظيمة على المستوى الفردي ، وعلى المستوى الجماعي ، يتضح ذلك فيما رواه أَبو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه سأل أصحابه يوما فقال: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا). قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه) : أَنَا ، قال: "فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟" ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا ، قَالَ: "فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟" ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا ، قال: "فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟" ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : "مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ " (صحيح مسلم).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ (رضي الله عنه) قال: "كَانَ رَجُلٌ لاَ أَعْلَمُ رَجُلاً أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ ، وَكَانَ لاَ تُخْطِئُهُ صَلاَةٌ – قَالَ – فَقِيلَ لَهُ – أَوْ قُلْتُ لَهُ –: لَوِ

اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِي الرَّمْضَاءِ! قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ" (صحيح مسلم).

إن التنافس سَبَبٌ لرفعِ الهمةِ ، وإثارةِ الْحَمَاسِ ، يَكْشِفُ عنْ معادِنِ الناسِ ، وعُلُوِّ نُفُوسِهِم ، وقُوَّةِ عزائِمِهم ، كما يُبَيِّنُ مَوَاطِنَ ضَعْفِهِم وقُصُورِهِم، ولا يَسْتَوِي في الناسِ مُبَادِرٌ إلى الخير ومُتَبَاطِئ ، ومُسَابِقٌ في الفَضْلِ ومُتَثَاقِل؛ قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلاَ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[الحديد: ١٠].

والتنافس من أهم مؤشرات القوة والنهوض بالوطن ، فمن علامات التقدم والتحضر أن تصبح سمة التنافس بين القوى والأحزاب والشخصيات والفئات حول خدمة الوطن والاجتهاد في البذل والتضحية من أجل حمايته ورفعته ، وتصديق ذلك بالأقوال والأفعال والبرامج والخطوات والإجراءات .

ومن أهم أعمال المسابقة بالخيرات التي يجب أن نهتم بها لرفعة الوطن ما يسمى بالمشاركة المجتمعية ، التي يمكن من خلالها النهوض بالمجتمع والارتقاء به ، والعمل على تحسين مستوى حياة المواطنين اجتماعيًّا واقتصاديًّا ، فهي تعد من الضروريات ، وليست شعارًا تربويًّا ولا شعارًا مجتمعيًّا ، إنما شعار يجب أن يتحول إلى واقع ، ففي الحديث الصحيح يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : "أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ"

(صحيح مسلم) ، ويقول عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) : "واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لأخرتك كأنك تموت غدًا" (مسند الحارث).

إن الشعور بالانتماء للوطن من أهم دعائمه التي تحافظ على استقراره ونموه ، وهو يعني مدى استعداد الأفراد للبذل والتضحية من أجل أوطانهم ، ويُستدل على ذلك من خلال المشاركة الإيجابية في أنشطة المجتمع ، والدفاع عن مصالح الوطن ، والشعور بالفخر والاعتزاز بالانتماء إليه ، والمحافظة على ممتلكاته ، وكل هذه المؤشرات يمكن أن تقاس ويُستدل عليها ، ومن ثم فإن ميدان خدمة الأوطان من أعظم ميادين التنافس في الخير ، فلنكن جميعا حصنًا منيعًا لوطننا ، مدافعين عنه وعن ديننا ، متصدين لكل من يريد إلحاق الضرر به ، أو إشاعة الخراب فيه ، أو إيقاظ الفتنة والسعي بالشقاق والخلاف بين أبنائه.

اللهم إنا نسألك قوة في دين ، وحزمًا في لين ، وإيمانًا في يقين ، وحرصًا في علم ، ، وحلمًا في علم ، وقصدًا في غنى ، وتجملاً في فاقة، وتحرجًا عن طمع ، وكسبًا في حلال ، وبرًّا في استقامة ، ونشاطًا في هدى، ونهيًا عن شهوة.

* * *

التنمية الشاملة وسبل تحقيقها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائل في كتابه الكريم: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:١- ٥] ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

وبعد:

فلقد جاء الإسلام بالأسس المتكاملة التي يقوم عليها المجتمع المسلم ، والتي تمتاز بالشمول والواقعيّة ، وتضمن سير الحياة في المجتمع على وجه يحقق العدل والأمن والحياة الكريمة لكافّة أفراده ، من خلال إتاحة الفرصة للجميع بالمشاركة في التنمية الحضارية ، مما يؤدي إلى تطور المجتمع وتقدمه في كل المجالات، اجتماعيًّا ، واقتصاديًّا ، وزراعيًّا ، وصناعيًّا ، وغير ذلك من المجالات ؛ لمواكبة التطور المذهل في أنحاء دول العالم المتقدم خاصة النمور الاقتصادية وبالأخص التي تُجِلُّ العلم وتجعله عماد نهضتها.

إن التنمية تعني طلب الزيادة والبركة ، وذلك لأنها إدراك حقيقي للدور الذي يجب أن ينهض به الإنسان ، ليؤدي الدور الاجتماعي الملقى على عاتقه في الحياة .

وقد ارتبطت التنمية في العصر الحديث بالجانب الاقتصادي والزراعي والصناعي ، وكثيرًا ما تتردد عبارات (التنمية الاجتماعية ، والزراعية ، والاقتصادية ، والصناعية) وغيرها.

أما النظرة الإسلامية لمفهوم التنمية فتشمل كل جوانب الحياة نظرة شاملة كاملة دافعة ومحرضة على تحقيق التنمية في شتى المجالات ، كالتنمية الإيمانية ، والعلمية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وغير ذلك.

هذا ، وقد عني الإسلام بجوانب التنمية المختلفة والمتنوعة ، فمن ركائز التنمية في الإسلام ما يتصل بالإيمان ، فالإيمان يجب أن ينمو باطّراد ، فإذا لم يكن هناك نمو وزيادة في الإيمان تنعكس التنمية الإيمانية سلبًا في حياة الإنسان وسلوكه ، وبالتالي يتأثر المجتمع كلّه ، وفى ذلك يقول الله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤] ، فزيادة الإيمان مع البشارة تعطى دفعة للعبد المؤمن وتأخذ بيده للعمل والتنمية والنشاط المتواصل الذي يعم بالخير والنفع عليه وعلى مجتمعه.

والمتأمل في السنة النبوية يجد أنها تدعو المسلم دعوة جادة للتنمية الإيمانية ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ" ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: "أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَ اللهُ" (مسند أحمد) ، فكلما تجدد الإيمان في قلب العبد ازداد نشاطًا ، وكان حريصًا على بلوغ أعلى الدرجات وإرضاء الله سبحانه وتعالى.

ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن رب العزة سبحانه: "إِذَا تَقربَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَربْتُ إِلَيْه ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقربْتُ مِنهُ بَاعًا ، وِإذَا أَتَانِي يَمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" (متفق عليه) ، فهذه دعوة للتقرب

إلى الله تعالى بالعمل الصالح والتنمية الإيمانية التي تعد جانبًا مهمًّا وركيزة أساسية في التنمية الشاملة التي تعم المجتمع بالخير والنفع وتبعث السعادة والراحة في قلوب العباد .

كذلك نجد أن الإسلام قد عني بالتنمية العلمية عناية فائقة ، حيث قدّم العلم على العمل ، ورفع شأن العلماء العاملين على العابدين بغير علم، فعن أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ" (سنن أبى داود) ؛ لأن العلم هو الباب الأوسع إلى الإيمان ، وإلى معرفة سنن الله تعالى ، وخشيته عز وجل ، قال سبحانه:{إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}[فاطر:٢٨].

فالإسلام دين العلم ، لا يُعرَفُ دينٌ مثلُه أشاد بالعلم وحثَّ عليه ، ورغَّب في طلبه ، ونوَّه بمكانة أهله ، وأعلى من قدرهم ، وبين فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة ، وحضَّ على التعلم والتعليم ، وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة وهي مفتاح العلم ، ونوهت بالقلم وهو أداة نقل العلم ، وذلك في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:١– ٥].

ولقد عني الإسلام أعظم عناية بالعلم ، وحث أتباعه على طلبه ونشره ، والبحث والتفكير في كل ميادين المعرفة ، وكل مجالات الحياة ، وحض على التنمية العلمية التي من شأنها أن توسع الأفق وتنير الفكر الذي يعود بالنفع على الفرد والمجتمع ، قال تعالى: {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢] ، وقال سبحانه: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة:١١].

وأنعِم بذلك من قدر ومن رفعة حينما يرفع المولى سبحانه وتعالى أهل العلم ويُعلى شأنهم ويزيد في قدرهم.

كذلك تحض السنة النبوية على التنمية العلمية وتحث عليها ، فعن أبى الدرداء (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِى فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ..) (سنن الترمذى) ، فهذا بيان نبوي يحث على تلقِّي العلم وسلوك طرقه والسعي على تحصيله.

إن الإسلام يدعو إلى العلم والتقدم الذي تستفيد منه الحضارة الإنسانية ، ويحثُّ على النظر في الكون ، ويُنشِئ العقلية العلمية التي تبدع وتبتكر ، ويرفض العقلية الجاهلة المستسلمة لكل ما يتوارثه الناس دون مناقشة له ، فالأمة الإسلامية لا يمكن لها أن تنهض إلا بالعلم ، وما كانت البشرية لتصل إلى ما وصلت إليه إلا بالعلم والبحث العلمي ، ومن ثم فالتنمية الشاملة تتطلب اكتساب المعارف وتعليمًا مستمرًّا وتطويرًا ثقافيًّا ، فالجانب الثقافي الحقيقي يرفع من مستوى تفكير الأمة ووعيها ويساهم في التنمية واللحاق بركب الحضارة المادية.

كذلك قد حلَّق الإسلام في مجال التنمية الاجتماعية ، والحفاظ على كيان المجتمع ، وبناء علاقات ودية أساسها الأخوة والتعاون والتراحم ، مما يجعل جهد الناس يتوجه إلى البناء والإعمار وليس إلى التخريب والدمار.

وحتى يتم الترابط والتماسك بين أفراد المجتمع ، لا بد من نشر روح المحبة والمودة بين أبنائه ، وتعميق معاني الأخوة وتصفية النفوس من الشحناء وتفريج الكربات ، فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا ، كما وصفه النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث بقوله: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (متفق عليه).

ومما ينمي هذه الروح في المجتمع الحث على التعاون ، والبذل والإنفاق وتفقد المحتاجين ، وسد حاجتهم ، ومد يد العون لمن يعانون من الفقر والضيق ، وسد حاجات اليتامى والمساكين وانتشالهم من مذلَّة السؤال ، يقول تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦١] ، ويقول سبحانه: {قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً}[إبراهيم: ٣١].

فإن الإسلام لا يغفل التكافل بين أفراد الأمة من خلال الإنفاق ونشر المودة والمحبة بين الناس ، وهذا جانب عظيم يُسهم في التنمية الاجتماعية التي تقوم عليها الأمم وتحيا بها الأفراد.

وفي سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) عشرات الأحاديث التي تحضُّ على مختلف أنواع البر والخير ، كالسير في حوائج الناس ، ورفع الظلم عنهم ، والمطالبة بحقوقهم ، وتيسير عسرهم ، وتنفيس كربهم ، وكفالة أيتامهم ، ورعاية أراملهم ، وإيواء مشرديهم ، وإطعام الجائعين منهم ، من ذلك ما رواه ابْن عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّ للهِ (عَزَّ وَجَلَّ) خَلْقًا خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ أُولَئِكَ الآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ" (المعجم الكبير) ، وعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ ، فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ" (متفق عليه واللفظ للبخارى).

فينبغي على الإنسان أن يسعى جاهدًا في نفع غيره ومجتمعه بالإنفاق والصدقات ، ومساعدة الآخرين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكذلك الإمساك عن الشر ، كل هذه الأمور تنمية واضحة ، شاملة للفرد والمجتمع ، فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، مَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ في حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (متفق عليه).

فالتنمية الاجتماعية تبرز آثارُها النافعة في معالجة النفوس وإصلاح القلوب وتهذيب السلوك والشعور الأخوي بين أفراد المجتمع ، ومن هنا فإن تنمية المجتمع تعد أحد أهم ركائز التنمية الشاملة.

وإذا أمضينا إلى جانب التنمية الاقتصادية نجد أنها إحدى مؤشرات التقدم ، لذا كان الاهتمام بالشأن الاقتصادي ضرورة ملحة في التنمية والتطوير من أجل حياة حرة كريمة ، فالنشاط الاقتصادي في الإسلام يقوم على مبادئ إنسانية وأسس أخلاقية وضوابط شرعية، تَغرِس في

نفوس أتباعه الحرص على مزاولته وإتقانه في الإطار الذي يسهم في تحقيق التنمية الاقتصادية ، ومن ثم فقد اعتنت الشريعة الإسلامية بالقضايا الاقتصادية وبينت الحلال من الحرام فيها ، وحثت على حفظ المال من التلف والضياع وتنميته بالعمل والإنتاج والاستثمار ، وحذرت من الكسب الحرام لما له من آثار وخيمة على الأمة سواء على دينها أو قيمها أو أخلاقها.

ومن ثمَّ حرَّمت الشريعة الإسلامية كل صور المعاملات المحرمة التي من شأنها أن توغر الصدور ، وتفسد العلاقة بين المسلمين ، وتكون سببًا في عرقلة التنمية الاقتصادية.

فقد حرَّم الإسلام الربا بوصفه أولى العقبات في التنمية الاقتصادية، ووسيلة سهلة لسرقة أموال الناس دون عمل ، وسدَّ الطريق على كل من يحاول استثمار ماله عن طريق الربا ، فحرَّم قليله وكثيره ، يقول تعالى: {وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}[البقرة: ٢٧٥]، ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللهِ وَرَسُولِهِ}[البقرة:٢٧٨،٢٧٩]، فهذا وعيد شديد لمَن لم يَنتهِ عن الرِّبا ، وكذلك أعلن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حربه على الربا والمرابين ، وبيَّن خطره على المجتمع فقال: "إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللهِ" (المستدرك للحاكم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا ، وَمُوكِلَهُ ، وَشَاهِدَيْهِ ، وَكَاتِبَهُ" (مسند أحمد) ، وعن جابر قال: لعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء" (صحيح مسلم) ، فآكِل

الربا مَلعون ، واللعنَةُ: هي الطرد مِن رحمة الله (عز وجل) فعلينا بتقوى الله – سبحانه وتعالى – وأكْلِ الحلال ، والبُعدِ عن أكل الحَرام ، و التعامل بالربا الذي يُطرَد آكِلُه من رحمة الله تعالى.

أقولُ قَوْلِي هَذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

إخوةَ الإسلام :

إن من أسباب عرقلة التنمية الاقتصادية: التعاملَ بالرشوة أخذًا وإعطاءً وتوسُّطًا ، لذا حرمها الإسلام تحريمًا جازمًا ، وذلك لخطرها الكبير على المجتمعات الإنسانية ، فهي تفتك بالمجتمع فتكًا ذريعًا ، وتهدر أخلاق الأمة وكيانها وتعود عليها بالوبال والدمار في الأسر والمجتمعات والأفراد ولم يتوقف الأمر على مجرد النهي عنها وذمها ، بل تعدى ذلك ليصل إلى حد اللعن الصريح الذي يعني الطرد من رحمة الله تعالى ، فَعَنْ ثَوْبَانَ (رضي الله عنه) قال: "لَعَنَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ" يَعْنِي: الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا (مسند أحمد).

وما دخلت الرشوة عملاً إلا عاقته ، ولا مجتمعًا إلا أفسدته ، فالرشوةُ أكلٌ للأموال بالباطل ، وتناوُلٌ للسحت ، يقول تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [البقرة: ١٨٨].

وكذلك حرمت الشريعة الإسلامية الغش في التعامل بين المسلمين، فقد أكد القرآن الكريم حُرمة هذه الآفة الخطيرة ، وتوعد عليها بالويل

والخسران ، لمن يتلاعب بالوزن والكيل ، فقال سبحانه: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين:١– ٣].

فالغش خيانة وخداع ، وهو حرام بإجماع المسلمين ، وفاعله مذموم عقلاً وشرعًا ، وقد ثبت تحريم الغش بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فعموم الآيات التي تنهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، ومنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء:٢٩] ، وأما السنة فقد جاءت أحاديث كثيرة تدل على تحريم الغش ، ومنها قوله (صلى الله عليه وسلم): "...مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا" (سنن الترمذي) ، فالربا والرشوة والغش من أسباب عرقلة التنمية الاقتصادية وانتشار مظاهر الفساد في المجتمع ، ثم إن التشريعات التي تناولت الشئون الاقتصادية وضعت لها أصولها وقواعدها وضوابطها ، لتؤكد على مدى اهتمام الإسلام بالتنمية الاقتصادية والتجارية ، من بيع وشراء ومرابحة ومشاركة.

هكذا جاء الإسلام بشريعته الخالدة داعيًا إلى الخير والعدل ومحاربًا لكل ما هو فاسد وضار بالفرد والمجتمع ، فالمجتمع الذي يبحث عن تنمية اقتصادية على أسس من القيم الأخلاقية الفاضلة لا يقبل قطعا أن يتعامل بالحرام ، بل إنه يمنع الفساد ويأخذ على أيدي المفسدين ، ويمنع جميع صور الاستغلال والكسب الحرام ، محافظًا بذلك على ثروات الأمة ، من أجل النهوض بالأفراد والأمم لتحقيق وسائل العيش الكريم ، والرقى إلى مدارج التقدم والتنمية.

وحتى تتحقق التنمية الشاملة بكل أنواعها أوجب الإسلام على كل مسلم أن يعمل ، وأن يأكل من كسب يده ، فهو لا يرضى لأتباعه أن يكونوا عالة على الآخرين ، فقد حث النبي (صلى الله عليه وسلم) على السعي والكسب وتحصيل الرزق الحلال ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" (صحيح البخاري).

فإذا كانت مهمة الإنسان في هذه الحياة هي إعمار الأرض فإن ذلك لن يتحقق إلا بالعمل من أجل بلوغ الهدف ، فالحياة بلا عمل موات ، والإنسان أعطاه الله من القوى والطاقات ما يجعله قادرًا على قيادة سفينة الحياة بالعمل الجاد المنتج الذي يعود على الفرد والمجتمع بالخير العميم ومن هنا كان اهتمام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالعمل اهتماما بالغًا لأنه مصدر كرامة الإنسان.

بهذا يتبين لنا أن التنمية في الإسلام سياسة شاملة متوازنة متكاملة، تفرض على الفرد والمجتمع الأخذ بجميع أسباب النماء والارتقاء المادي والمعنوي.

إن التنمية الحقيقية هي أن نربي الإنسان علي قيم الحق والعدل والفضيلة ، لأن الإنسان هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، فإذا صلحت صلح المجتمع ، وإذا فسدت فسد المجتمع.

اللهم خلقنا بأخلاق الإسلام ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واحفظ بلادنا من كل سوء .

* * *

البناء الاقتصادي السديد
وأثره في استقرار المجتمع

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ الكريم: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعـــدُ:

فإن الاقتصاد القوي من أهم دعائم الدولة وركائزها الأساسية التي لا تقوم ولا تُبنى إلا بها ، فالاقتصاد القوي المستقر يمكِّن الدول من الوفاء بالتزاماتها المحلية والدولية وتوفير حياة كريمة لمواطنيها ، وحين يضعف الاقتصاد ينتشر الفقر والمرض ، وتضطرب الحياة ، وتنشب الأزمات ، وتفسد الأخلاق ، وتكثر الجرائم وتكون الفرصة واسعة أمام الأعداء المتربصين بالدول ، العاملين على إسقاطها وإدخالها في فوضى لا تنتهي ؛ لذا كان النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَتعوذ من الفقر فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ قائلاً: "اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ" (صحيح ابن خزيمة).

إن الأمم التي لا تملك ولا تنتج قوتها ، وغذاءها ، وكساءها ، ودواءها ، وسلاحها ، لا تملك أمرها ، ولا إرادتها ، ولا كلمتها ، ولا عزتها ، ولا كرامتها، وقد قالوا: "أحسن إلى من شئت تكن أميره ، واستغن عمَّن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره" (إحياء علوم الدين).

وقد علَّمنا ديننا الحنيف أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "اليدُ العُليا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى.." (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "اليَدُ المُعطِيةُ هي العُليَا، والسَّائِلةُ هي السُّفلَى" (مسند أحمد) ، ولا شك أن ذلك ينطبق على الأمم والمؤسسات والأسر والأفراد معًا ، فلا تنهض أي أمة أو مؤسسة أو أسرة إلا بعوامل محددة منها:

العمل وزيادة الإنتاج: وليس المطلوب مجرد زيادته بل الزيادة مع الإتقان والإبداع والابتكار واقتحام المجالات الأكثر حيوية والأكثر عائدًا ومردودًا اقتصاديًّا ، فالعمل والإنتاج مطلبٌ شرعي وواجبٌ وطني ، فقد أمر الله (عزّ وجلّ) بالسعي في الأرض عقب أداء حق الله تعالى ، حيث يقول سبحانه: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة:١٠] ، فبالعمل تعمر الأرض وتتحقق خلافة الإنسان فيها ، وبالعمل يحفظ المرء مروءته وكرامته، فصاحبه يُعطي ولا يَطلب ، ويُنفق ولا يَسأل ، وقد عدَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أفضل ما أكل العبد ما كان من سعيه وكده ، حيث قَالَ (صلى الله عليه وسلم): "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ (صلى الله عليه وسلم) كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" (صحيح البخاري) ، وقد توعد (صلى الله عليه وسلم) من آثر الكسل والراحة ، واقتات من سؤال الناس بشر وعيد حيث قَالَ: "لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ" (متفق عليه) – المُزْعَةُ: القِطْعَةُ – ، وكان سيدنا عمر (رضي الله عنه) يقول: "إياكم والراحة فإنها غفلة". (البخلاء للجاحظ).

لقد أعلى الإسلام من قيمة العمل ، وجعله من أعلى مراتب العبادة ، وهو الجهاد في سبيل الله (تعالى) ، فالعبد يؤجر عليه ، ولو مات في سعيه لكان موته في طاعة ، فعَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ (رضي الله عنه) ، قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ؟! ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ" (المعجم الكبير).

وفي الدعوة إلى الإنتاج يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا" (مسند أحمد).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يضع الحلول لإيجاد فرص العمل والاستفادة من الطاقات ، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) ، أن رجلاً من الأنصار أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأله ، فقال:أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قال: بلى ، حِلْسٌ (أي كساء) نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ ، وَإِنَاءٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، قال: (ائْتِنِي بِهِمَا) ، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده ، وقال: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قال رجل: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، قال: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟ مرتين ، أو ثلاثًا، قال رجل: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما

الأنصاري ، وقال: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ" ، فأتاه به ، فشدَّ فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عودًا بيده ، ثم قال له: "اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ ، وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبًا ، وببعضها طعامًا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَصْلُحُ إلا لِثَلاَثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ" (سنن أبي داود).

ترشيد الاستهلاك: فالترشيد من مقومات إعمار الأرض ، وتحقيق نهضة الأمم ، وقد دعت الشريعة الإسلامية أتباعها إلى الترشيد وعدم الإسراف في استخدام نعم الله (عز وجل) في شتى مناحي الحياة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٦ ، ٢٧] ، ويقول سبحانه: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف:٣١] ، وفي الدعوة إلى ترشيد الاستهلاك يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ" (سنن الترمذي) ، على أننا نؤكد أن ترشيد الاستهلاك ، ليس في مجال الطعام والشراب فحسب ، بل في كل جوانب العملية الاقتصادية: في المياه ، والكهرباء ، والغاز ، وفي كل الخامات والأدوية المستخدمة حياتيًا ، وهذا ما تدعو إليه الأديان ، وهو ما نجده في قول الحق سبحانه على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام) :

{قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إلا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ} [يوسف: ٤٧] ، فهي دعوة إلى زيادة الإنتاج من خلال العمل الجاد الدءوب وإلى ترشيد الاستهلاك إلى أقصى درجة ممكنة، حيث قال الحق سبحانه: {إلاَ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ} ولم يقل إلا ما تأكلون.

أقولُ قولِي هذَا وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

إخوةَ الإسلام:

إن من أهم عوامل وأسس البناء الاقتصادي السديد **وفاء جميع الأفراد بالتزاماتهم تجاه وطنهم** ، والتخلص من الروح الاتكالية ومحاولة الحصول على الخدمات دون أداء ما يقابلها ، أو محاولة الحصول عليها دون قيمتها الحقيقية ، فمن يستهلك ولا ينتج ، ويتقاضى راتبًا ولا يعمل ، ويحصل على الخدمات ولا يُؤدي مقابلها إنما يسهم في تردي أوضاع بلده أو إسقاطها اقتصاديًّا ، فمجمل اقتصاد البلاد هو مجمل تصرفات أفرادها.

ولو ضربنا أنموذجًا بالكهرباء مثلاً ، فقد مرت بنا فترات صعبة من انقطاع الكهرباء وتدهور الخدمة مما كان له أثر شديد السلبية على مفاصل الدولة الاقتصادية من جهة ونفوس المواطنين من جهة أخرى ، غير أن وزارة الكهرباء لم تكن أبدًا قادرة على توفير الخدمة فضلاً عن تحسينها في ظل عدم وفاء المواطنين بسداد مقابلها ، وبما يمكن الوزارة

وشركاتها من تطوير بنيتها التحتية ، ناهيك عن مصروفات ومتطلبات التشغيل وتجديد المحطات ، وإضافة محطات جديدة وتوفير الوقود اللازم لتشغيلها ، أما في حالة سداد القيمة العادلة للخدمة فإن الوزارة بلا شك ستتمكن من استمرار الخدمة بل وتطويرها ، وهكذا الأمر في السكة الحديد ، ومترو الأنفاق ، وسائر الخدمات .

أما تهرب البعض من سداد مستحقات الخدمات أو حرصه الشديد على النفع الخاص ولو على حساب النفع العام فأمر يتنافى مع كل القيم الدينية والمبادئ والنظم الاقتصادية العادلة ، ويؤدي إلى تدهور الأحوال الاقتصادية للدول ، وربما سقوطها اقتصاديًّا بمعنى يؤدي إلى السقوط العام لها.

ومن ثمَّ فإنه يجب شرعًا سداد جميع ما علينا من التزامات في موعدها، لأن ذلك هو مقتضى العقد القائم بين المزودين لهذه الخدمات كشركة الكهرباء والجهة المزودة بالماء وبين المشترك في هذه الخدمات ، ولا يجوز التهرب من السداد ، فقد أمر الله (عز وجل) بالوفاء بالعقود في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[المائدة:١] فهذه الآية الكريمة عامة تشمل كل العقود والعهود والالتزامات التي يلتزم بها الشخص مع غيره.

وفي الحديث الشريف يقول نبينا (صلى اللَّه عليه وسلم): "الْمُسْلِمُونَ على شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا..." (المعجم الكبير للطبراني) ، فهؤلاء الذين يتهربون من دفع شيء تعاقدوا عليه ، ويأخذون أشياء لهم ، ويمتنعون من أداء التزاماتهم أساءوا من وجهين: الأول: عدم

الوفاء بالعقود ، والثاني: أنهم يأخذون حقوقًا ليست لهم ويتهربون من دفع حقوق عليهم.

وعليه فإن الامتناع عن سداد مقابل الخدمات أو محاولة التهرب منها محرم شرعًا ؛ لأن ذلك يعتبر إخلالاً بالشرط والعقد ، وتضييعًا للحقوق وإضعافًا للمؤسسات والدول.

ومع أننا نؤكد على أهمية تكثيف برامج الحماية الاجتماعية فإننا نؤكد أيضًا على أهمية أن تذهب إلى مستحقيها الحقيقيين من الفئات الأولى بالرعاية ، وأن يتحلى الجميع بالقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بتعفف من لا يستحق حتى تذهب مخصصات برامج الحماية لمن يستحق.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين.

❊ ❊ ❊

من صور المال الحرام

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، القَائِلِ فِي كِتَابِهِ العَظِيمِ: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ} [المطففين: ١–٥] ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ العَلِيمُ الحَكِيمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ الكَرِيمُ ، اللهم صلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الغُرِّ المَيَامِينِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَبَعْدُ:

فلا يمكنُ لعاقل أن يجادلَ في أن المال الحرام سمٌّ قاتل ، وأنه مدمِّرٌ لصاحبه في الدنيا والآخرة ، وأنه نارٌ تُحرِق جوف مَن يأكله ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: ١٠].

وقد نهى الإسلام عن أكل الحرام بكل صوره وأشكاله نهيًا قاطعًا لا لبس فيه ، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩،٣٠] ، فأكل الحرام قتلٌ للنفس وإهلاكٌ وتدميرٌ لها في الدنيا والآخرة ، فهو في الدنيا وبالٌ على صاحبه في صحته، في أولاده ، في عرضه ، في أمواله ، {وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: ١٢٧] ، وحتى لو تصدق به صاحبه فإنه لا يُقبَل ، لأنَّ الله (عز وجل) طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا.

وآكل الحرام لا تُستَجاب له دعوة ، فقد ذَكَر نبينا (صلى الله عليه وسلم) "الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَام ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَكْسَبُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ له" (صحيح مسلم) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) "أن سيدنا سَعْد بْن أَبِي وَقَّاصٍ قال: يَا رَسُولَ اللهِ ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ جَسَدُه مِنَ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ" (المعجم الأوسط للطبراني) ، لذا كان بعض الصالحين يتركون بعض الحلال مخافة أن تكون فيه شبهة حرام.

ومن صور المال الحرام:

الصورة الأولى: **أكل المال الناتج عن الغش** ، سواء أكان غشًّا في الكم أم في النوع: في الكم بتطفيف الكيل أو الميزان أو المقياس أو الكميات حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}[المطففين:١- ٥] ، أم كان غشًّا في النوع سواء أكان في الغِذاء أم الدواء أم الأدوات أم الآلات الإنتاجية أو الاستهلاكية فمن يبيع طعامًا ضارًّا بالصحة أو لحمًا غير حلال على أنه لحمٌ حلال ، أو يبيع طعامًا فاسدًا على أنه ما زال صالحًا للاستهلاك فهو فاسدٌ مفسدٌ غاشٌّ لنفسه وللمجتمع.

والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: "مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا" (صحيح مسلم) ، وفي رواية: "مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا" (سنن الترمذي) بحذف المفعول ليشمل كل غش وغشاش.

فعلى الإنسان أن يراقب الله (عز وجل) ، وليعلم أنه إن أفلت من عقاب الناس في الدنيا فلن يفلت من عقاب الله (عز وجل) لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهو ما فهمته ابنة بائعة اللبن في عهد سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما قالت لها أمها: قومي فاخلطي اللبن بالماء ، فقالت لها: يا أماه ، ألم ينه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب عن مزج اللبن بالماء؟ فقالت لها: إن عمر لا يرانا ، فقالت البنت: إن كان عمر قد نام فأين الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؟ حيث يقول الحق سبحانه: {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} [البقرة:٢٥٥] ، ويقول سبحانه: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦] (مسند الفاروق لابن كثير).

الصورة الثانية: **الرشوة والاختلاس وكل ألوان المحاباة والمجاملة** ، وما يدخل في باب إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق ؛ فالفساد المالي لا يقف عند حدود قبول الرشوة أو الاختلاس ، إنما يشمل استغلال النفوذ وتربيح الغير أو محاباته أو مجاملته أو إفادته بأي لون من ألوان النفع المادي أو المعنوي.

فكل ما يحدث من ذلك هو عين الفساد ، فإن استفاد القائم على أمر ما من وراء عمله أي استفادة ماديةً أو معنويةً غير مشروعة فهو آكل للسحت ،

وقد "لَعَنَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ" (مسند أحمد) أي الوسيط الذي يسعى بينهما.

ولنعلم أن الرشوة ما دخلت عملاً إلا أعاقته ، ولا مجتمعًا إلا أفسدته، ولا بيتًا إلا خربته ، ولا جوف شخص إلا أهلكته.

الصورة الثالثة: **أخذ الأجر على عمل لم يقم به الإنسان** ولم يفِ بحقه ولم يتقنْه ولم يعطه وقته ، فبعض الناس قد يظن أن احتياله على الغياب من عمله أو هروبه منه أو عدم الوفاء بحقه أمرٌ سهل ، وهنا نؤكد أن العقد شريعة المتعاقدين ، فكما أن صاحب العمل إذا أكل حق العامل فإنه يدخل في دائرة غضب الله (عز وجل) وسخطه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "ثلاثةٌ أنا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ: رجُلٌ أعطى بي ثم غدر ، ورجلٌ باعَ حُرًّا فأكَلَ ثمَنَهُ ، ورجُلٌ استأْجَرَ أجيرًا فاستوفى منهُ ولم يُعْطِهِ أجْرَهُ" (صحيح البخاري) ، ففي المقابل إذا استحل العامل الأجر ولم يؤدِّ العمل كان ممن لا يكلمهم الله (عز وجل) ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم يوم القيامة ، فالحق مقابل الواجب ، وإلا لاختل نظام الحياة وانفرط عقدها.

أقولُ قَوْلِي هَذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام :

إنَّ للكسب الحرام صورًا عديدةً ، شاعت بين الخلق حتى ألفها واعتادها كثير من الناس ، رغم ما للكسب الحرام من عواقب مدمرة في

الدنيا والآخرة ، نختم حديثنا بصورتين من أبرز تلك الصور :

الصورة الأولى : وهي الأشد حرمة ووبالاً على صاحبها في الدنيا والآخرة هي : **الاعتداء على المال العام** أو على أملاك الدولة أو أي من مَرافقها بدون حق ، أو احتيال الإنسان على التهرب من التزاماته المالية تجاه الدولة بأي صورة من الصور ، كالتهرب الضريبي أو الجمركي ونحوه، ذلك أن المال الخاص قد يتعلق بشخص أو بعدة أشخاص ، أما المال العام فيتعلق بملايين الأشخاص ويصعب على الإنسان أن يتحلل من أكل حقوقهم أو إلحاق الضرر بهم يوم القيامة.

أما الصورة الثانية : فلا تَقِل حرمة ووبالاً عن الأولى وهي: **أكل المال الذي يحصل عليه صاحبه نتيجة تنفيذ أو الإسهام أو تسهيل تنفيذ العمليات الإرهابية** التي تفسد أو تخرب أو تقتل وتدمر .

اللهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ مِنْ جَهْلِ الجَاهِلِينَ ، وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا.

* * *

قيمة الوقت

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أقام من الزمان سجلاً لأعمال بني الإنسان ، وشاهدًا عليهم بالفلاح أو بالخسران ، فقال في محكم التبيان: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [الْعَصْرِ: ١-٣] ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بقدرته ، ورباهم بحكمته ، وأنعم عليهم بنعم كثيرة وعظيمة لا تعد ولا تحصى ، فقال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل:١٨] ، ومن تلك النعم التي يتقلب فيها الإنسان صباح مساء: نعمة الوقت ، التي غفل عنها الكثيرون ، يقول سبحانه وتعالى – مذكرًا بهذه النعمة –: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٣ ، ٣٤] ، ويقول تعالى في سورة أخرى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} [الإسراء: ١٢].

فالوقت الذي يعيشه الإنسان مِنْ جُملةِ النِّعَمِ ، بَلْ هُوَ مِنْ أَجَلِّهَا وأَشْرَفِهَا ؛ لأنه أغلى ما يملكه الإنسان في هذه الحياة ، فعلى العاقل أن

يستقبل أيامه استقبال الضنين للثروة الرائعة ، لا يفرط في قليلها ولا كثيرها، يقول الشاعر :

فَالوَقْتُ أَعْظَمُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ

ويقول الإمام الحسن البصري (رحمه الله) : "يا ابن آدم ، إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك" (حلية الأولياء لأبي نعيم) .

ولقد عني الإسلام بالوقت عناية بالغة ، وحرص على بيان عظمته وأهميته ، وحث على شغله بالطاعات والقربات ، وحذر أشد التحذير من التفريط فيه ، وأنذر المفرِّطين في أوقاتهم بالحسرة والندامة على ذلك التفريط يوم القيامة ، حيث يقول قائلهم حينئذٍ:{يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٤]، وحيث يقولون في ضراعة ذليلة :{رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ}[إبراهيم:٤٤]، ولعظيمِ شرَفِ الوقتِ وأهميتِهِ أقسَمَ اللهُ تعالَى بهِ ، فِي أكثرَ مِنْ موضعٍ فِي كتابِهِ الكريمِ ، فأقسم بالفجر في قوله تعالَى: {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ}[الفجر:١، ٢] ، وأقسِم باللّيل والنهار في قوله تعالى:{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}[الليل: ١ ، ٢] ، وأقسم بالضحى في قوله تعالى: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ١، ٢] ، وأقسم بالعصر في قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر : ١ ، ٢] إلى غير ذلك من الآيات .

وإذا أقسم الله تعالى بشيء من خلقه فإنه بذلك يلفت أنظارنا إليه ، وينبهنا إلى جليل منفعته وعظيم آثاره ، والحضِّ على الاستفادة منه ، فالعظيم لا يقسم إلا بشيء عظيم ، وقَسَمُهُ سبحانه بأوقاتٍ كثيرةٍ، وأجزاء من الزمن كالفجرِ ، والصبحِ ، والضحَى ، والعصر ، والليلِ وغير ذلك ، إنما

كان لفتًا للأنظار نحوَها لعظيم دلالتها عليه ، ولجليل ما اشتملت عليه من منافع وآثار.

فعلى المسلم أن يعي هذه الحقيقة ويسير على هداها ، يقول تعالى: {إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس:٦].

كذلك حظي الوقت بنصيبٍ وافرٍ من العناية في السنة النبوية المطهرة، حيث بين النبي (صلى الله عليه وسلم) قيمة الوقت وأهميته ، فيما ورد في كثير من الأحاديث ، مشيرًا إلى أن المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، فعن الْحَسَن الْبَصْرِيّ ، قال: "طَلَبْتُ خُطَبَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فِي الْجُمُعَةِ فَأَعْيَتْنِي ، فَلَزِمْتُ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لاَ يَدْرِي كَيْفَ صَنَعَ اللهُ فِيهِ ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لاَ يَدْرِي كَيْفَ اللهُ بِصَانِعٍ فِيهِ ، فَلْيَتَزَوَّدِ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ ، وَمِنَ الشَّبَابِ قَبْلَ الْهَرَمِ ، وَمِنَ الصِّحَّةِ قَبْلَ السَّقَمِ ، فَإِنَّكُمْ خُلِقْتُمْ لِلآخِرَةِ وَالدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ إِلاَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ" (شعب الإيمان للبيهقي).

كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل الوقت من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أهميته ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ " (صحيح البخاري).

ثم يؤكّد النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) على أهمية الزمن و قيمته ، فيقرِّر مسؤولية الإنسان عنه أمام الله تعالى يوم القيامة ، فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ" (سنن الترمذي).

وهكذا: يسأل الإنسان عن عمره عامَّة ، وعن شبابه خاصَّة ، فالشباب جزء من العمر ، لكن له قيمة متميّزة باعتباره سنَّ الحيوية الدافقة ، ومرحلة القوة بين ضعفين: ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة ، قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً}[الروم:٥٤].

كل ذلك يذكِّر الإنسان بقيمة الوقت ، ويوقظ فيه الإحساس بأهمية الزمن ، فإن هذا الزمن إذا مضى لا يعود ، وإنه لسرعان ما يمضي وينقضي، وهذا ما عبر عنه الحسن البصري (رحمه الله) بقوله البليغ: "ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوّد مني بعمل صالح فإني لا أعود إلى يوم القيامة" (حلية الأولياء لأبي نعيم ورفعه إلى النبي) ، فإذا كان مرور يوم له هذه الأهمية فكيف بمرور عام؟!

ولو تدبر الإنسان لوجد أن عمره محدود جدًا ، كما بين النبي (صلى الله عليه وسلم): "أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ" (سنن الترمذي) ، وستون سنة – في الحقيقة – لا تكاد تعد شيئًا مذكورًا لو تأمل العبد وتفطن ، وكثير من الناس لا يشعر بقيمة هذا

الزمن ولا بأهميته وكأن أمرًا ما كان! ولو دقق وحسب لوجد أن العمر ضيق وقصير.

إن للوقت أهميةً عظيمة في حياة المسلم ، بل هو الحياةُ كلها ، هذا الوقت إما أن يكون الإنسان فيه خاسرًا ، وإمّا أن يكون فائزًا ، وذلك بحسب استغلاله لعمره ؛ لأن العمر الذي يعيشه الإنسان هو المزرعة التي يجني ثمارها في الدار الآخرة ، فإن زرعه بخير وعملٍ صالح كان من الذين يُنادَى عليهم في الدار الآخرة: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤].

أما من زرعه بالمعاصي والمخالفات ، وجهل قيمة الوقت وضيَّعه في حياته ، فسيأتي عليه يومٌ يعرف فيه قدره وقيمة العمل فيه ، وساعتها يندم يوم لا ينفعه الندم.

وقد جعل سبحانه طول العمر موجبًا للتذكر والاستبصار فقال: {أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير}[فاطر:٣٧] ، وجعل العمر الذي يحياه الإنسان حجة عليه ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: "أي أوَما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟!" (تفسير ابن كثير)

لذلك فإن من التوفيق والسعادةِ أن يدرك الإنسان قيمة وقته وعمره ، وأن يصرفَ هذا الوقت في العمل الصالح والدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعلُّم العلم النافع والذكر وقراءة القرآن ، وفي كل أمرٍ يعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع ، فمن فَعَلَ ذلك أدرك قيمةَ وجودهِ في الحياة ، قال ابن القيم (رحمه الله): "وقَتُ الإنسان هو عمره

في الحقيقة ، وهو يمرُّ مَرَّ السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياتُهُ وعُمُرُه ، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته وإن عاش فيه عَيشَ البهائم" (الجواب الكافي لابن القيم) ، فالزمن نعمة عظمى ومنحة كبرى ، يجِبُ اغتنامُها فِي كُلِّ مراحلِ العُمرِ ، حتى لا يكونَ حُجةً على الإنسانِ إذَا ضَيَّعَهُ وتفَلَّتَ مِنْ بيْنِ يدَيْهِ دونَ أَنْ يرتَقِيَ فيهِ إِلَى أحسَنِ حالٍ ؛ لهذا كان واجبًا على كل مسلم تجاهَ وقتِهِ أنْ يحافظَ عليهِ محافظة شديدة ، وأنْ يحرصَ علَى اغتنامه والاستفادةِ منْهُ فيمَا ينفعُهُ فِي دنياه وأخراه.

كما حثنا على ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: "اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ" (المستدرك للحاكم).

ومن محافظة الإسلام على الوقت حثه على التبكير ، ورغبته في أن يبدأ المسلم أعمال يومه نشيطًا طيب النفس ، مكتمل العزم ، فإن الحرص على الانتفاع من أول اليوم يستتبع الرغبة القوية في ألا يضيع سائر اليوم سدى ، ففي الحديث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "اللهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا" (سنن أبي داود) ، ولو بدأت أمتنا يومها كما حث النبي (صلى الله عليه وسلم) لوجدت في ذلك البركة والخير الكثير وتوفير النفقات الباهظة في استهلاك الطاقة والكهرباء.

وَلقد ترَبَّى أصحابُ النبي (صلى الله عليه وسلم) علَى ذلكَ ، فاغتنَموا الوقتَ وأحسنُوا استثمارَهُ ، فكانُوا هداةً للبشريةٍ ، أضاءُوا مشاعلَ النورِ فِي

بِقاعِ الأرضِ بِمَا قدَّمُوهُ مِنْ عملٍ صالِحٍ ، وعلمٍ نافعٍ ، ولَمْ يُضيِّعُوا وقتًا فِيمَا لاَ ينفعُ ؛ لأنَّهُ مِنَ الغبْنِ الذِي حذَّرَهُمْ منْهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بقولِهِ: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ" (صحيح البخاري). أَيْ أَنَّ الصِّحَّةَ وَالْفَرَاغَ نِعْمَتَانِ يغفل عنهما كثير من الناس ويجهلون قدرهما ، ولا يقومون بحق شكرهما ، فإِذَا لَمْ يستعْمِلْهُمَا الإِنسانُ فِيمَا يُفيدُ فهَوُ خَاسِرٌ.

كانوا أحرص الناس على أوقاتهم لمعرفتهم بأهميتها ، ولعلمهم بأنهم مسئولون عنها أمام الله عز وجل ، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: "مَا نَدِمْتُ علَى شيْءٍ ندَمِي علَى يومٍ غربَتْ شَمْسُهُ نقصَ فيهِ أجلِي ، ولَمْ يَزِدْ فيهِ عمَلِي" (قيمة الوقت عند العلماء لأبي غدة).

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

لقد بلغت عناية أسلافنا بالوقت أن ألَّفوا كتبًا فى عمل اليوم والليلة ؛ ليعرف المسلم كيف يقضي وقته وساعات حياته فيما ينفعه ويرضي ربه عز وجل ، ومن نماذج سير سلفنا الصالح فى استثمار الوقت والحرص عليه الإمام القاضي أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة ، أخذ يبحث في مسألة فقهية ، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته ، فيقول تلميذه القاضي

إبراهيم بن الجراح: "مرض أبو يوسف فأتيته أعوده فوجدته مغشيًّا عليه ، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم ما تقول في مسألة كذا؟ قلت في مثل هذه الحال؟! قال: لا بأس بذلك ، ندرس لعله ينجو بها ناجٍ" (أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري).

ونجد أيضًا الإمام المحدث محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة فقد كان لا ينام الليل إلا قليلاً ، و كان يزيل نومه بالماء من أجل القراءة والدراسة (قيمة الزمن عند العلماء لأبي غدة).

هكذا كان حرصهم الشديد على أوقاتهم ، كانوا يعلمون أن هذا الوقت غنيمة ، وأنه فرصة يجب أن تستغل وأن تغتنم لعبادة الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى).

ولهذا ما كان يفوت أحدهم شيئًا من وقته ، وليس كما يفعل الكثيرون الآن من إضاعة للوقت والعمر في غير طاعة الله ، بل في أعمالٍ تُسخط الله ورسوله ، وتُلحق الضرر بالمؤمنين ، ولا يبالون بإضاعة أوقاتهم سُدًى ، ولو سألتهم عن حالهم قالوا: نريد أن نقتل الوقت بشيء من التسلية ، وما درى هؤلاء أن من قتل وقته فقد قتل في الحقيقة نفسه ، ولكن الكثير في غفلة ، يؤكد ذلك الحكمة الغالية: "الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك" ، فهل يدرك هذا كثير من الشباب الذين يقتلون أوقاتهم ويضيعونها أمام الشاشات مع مواقع التواصل على الشبكة الدولية؟! لقد أصبحت هذه المواقع في كثير من الأحيان مواقع تقاطع لا تواصل ، فالمستخدمون لها قد يتواصلون مع الغرباء ، وينقطعون عن التواصل مع الأقارب ، والتواصل مع الأهل والأولاد ؛ إذ إنهم يقضون معظم الوقت أمام الأجهزة الإلكترونية ، فهو موجود بجسده مع أهله ، ولكن عقله وتفكيره مع غيرهم،

أيظن من يفعلون ذلك أن محياهم في هذا الوجود سدى؟! قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦] ، هل غاب عن هؤلاء أنهم مسئولون عن كل ساعة ، بل عن كل دقيقة تضيع من أعمارهم؟! إن قتل الوقت على هذا النحو إهلاك للفرد ، وإضاعة للجماعة ، فالعاقل هو الذي يدرك أن الزمن أنفاس تتردد ، وأن الدقائق التي تمرُّ عليه تنقص من حياته ، ورَحِمَ اللهُ شوقي إذ يقول:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قائلةٌ لهُ ... إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

وقال الحسن البصري:

وَمَا الْمَرْءُ إلاَّ رَاكِبُ ظَهْرَ عُمرِه ... عَلَى سَفَرٍ يُفْنِيهِ بِاليَوْمِ وَالشَّهْرِ
يَبِيتُ وَيُضْحِي كَل يَومٍ وَلَيْلَةٍ ... بَعِيدًا عَنْ الدُّنْيَا قَرِيْبًا إِلَى القَبْرِ

ومن ثمَّ فإنه ينبغي على العاقل أن يغتنم وقته ، وأن يحرص على الاستفادة الكاملة منه فيما ينفعه في دينه وفي دنياه ، وفيما يعود على الأمة بالخير والسعادة والنماء ؛ حتَّى تتحقَّقَ لهُ السعادةُ فِي الدُّنيا والفوزُ فِي الآخرةِ ، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ (رضيَ اللهُ عنهُ) أَنَّ رَجُلاً قال: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ" (سنن الترمذي).

ويعمل جاهدًا على الانتفاع بوقته واستثماره الاستثمار الأمثل ؛ فإن الوقت سريع الانقضاء ، وما مضى منه فإنه لا يعود أبدًا ، وما أحسن ما قاله الحسن البصري: "أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشدَّ منكم حرصا على دراهمكم ودنانيركم" (ربيع الأبرار للزمخشري).

ولما كان الوقت هو الحياة فتنظيم الوقت يعني تنظيم الحياة ، ولهذا الأمر أهميته البالغة ؛ لأن تنظيم الوقت من أهم الوسائل التي تمكن

الإنسان من تحقيق أهدافه التي رسمها لنفسه ، فيتقن عمله ، ويسعى جاهدًا إلى إنجازه بأحسن صورة ، فيندفع نحو التطوير والرقي بنفسه وبمجتمعه ، فما فاز فرد على غيره إلاَّ بإدراكه لقيمة الوقت ومبادرته للاستفادة منه بكل ما يستطيع.

ومن ثمَّ فإن عدم تنظيم الوقت أو إساءة استغلاله يخلق الكثير من المشكلات ، مما يتسبب في تأخر المجتمعات ؛ فإن تقدم الأمم وازدهار حضارتها ونهضتها لا يكون إلا بحسن استثمارها للوقت وإدارتها له.

وانطلاقًا من قول الله تعالى: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: ٥] ؛ فإن المناسبات السنوية – كهذا الشهر الكريم ، شهر شعبان – تأتي لتذكرنا بمرور الزمن ، فيتذكر الإنسان أن عامًا قد مرَّ من حياته ليقف مع نفسه وقفة حساب ؛ ليُقَوِّمَ ما اعوجَّ ويُصلح ما فسد، ويستقيم على طريق الله عز وجل قبل فوات الأوان ، فمنذ هذا الوقت من العام الماضي مر بك عام كامل من عمرك ؛ فلتحاسب نفسك: هل كان هذا العام في كفة حسناتك أم كان شيئًا آخر؟! وهل تضمن بقاءك لتدرك عامًا آخر لتستدرك ما فاتك؟! عليك أن تتبصر الطريق ، وتتخذ من هذه الأيام الطيبة المباركة فرصة ؛ لتُقَوِّمَ مسارك نحو آخرتك ، وتعتبر بمرور الأيام وتَقَلُّبِ الليل والنهار ، يقول الله تعالى:{يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ}[النور: ٤٤]

اللهم بارك لنا في أعمارنا ، واملأ بالخير أوقاتنا ، واهدنا سبلنا ، ووفقنا لكل ما فيه صلاحنا ، وما يرضيك عنا يا أكرم من سئل ويا خير من أعطى.

* * *

دور الشباب في بناء المجتمع

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصف بالفتوة والشباب أنبياءه وعباده الصالحين ، فقال عن يوسف (عليه السلام): {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٢٢] ، وقال عن موسى (عليه السلام):{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[القصص: ١٤] ، وقال عن أهل الكهف: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣]. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الشباب مرحلة القوة والنشاط ، يتميز فيها الشخص بالتفتح الذهني، والقوة البدنية ، والأمل الواسع ، والانفتاح على كل ألوان الحياة بأكبر نصيب ، لا يهدأ له بال حتى يُرضِيَ آماله ، ويحقق طموحه ، وهو بهذه الميزات قوة لا تعدلها في نمو الحياة وازدهارها قوة أخرى إذا أحسن استغلاله واستثماره في مجالات الحياة المختلفة ، ولهذا قال الله تعالى عن هذه المرحلة من العمر التي عبر عنها بالقوة: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم:٥٤] ، قوة في الكيان الجسدي ، وفي البناء الإنساني ، وفي التكوين النفسي والعقلي ، فهي المرحلة التي يستطيع الإنسان أن يعطي فيها ما لا يقدر عليه في مراحل العمر ، ولهذا اعتنى الإسلام بالشباب عناية فائقة ، فقدم القرآن الكريم العديد من النماذج الشابة من الأنبياء

والمرسلين ، وغيرهم من الصالحين ؛ ليكونوا قدوة صالحة لشباب المسلمين.

وربىَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) جيلاً من شباب الصحابة الكرام الذين ضربوا أروع الأمثلة في البذل والعطاء ، والتضحية والفداء ، والعلم والعمل ، فكانوا خير قادة وأفضل سادة ، ولقد صور القرآن الكريم هذه الحقيقة في قصة أصحاب الكهف ، وهم شباب قاموا داعين لتوحيد الله تعالى في مجتمع طغت فيه الوثنية ، وانتشر فيه الإلحاد ، قال تعالى: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف:١٣] ، ولفظ (الفتية) ينطبق على المرحلة الزمنية التي يطلق عليها مرحلة الشباب بكل خصائصها وسماتها.

وهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يقوم بواجبه الدعوي في مرحلة الشباب ، ويتحدى مجتمعًا ضل عقله فعبد ما يصنع بيده ، وهذا ماحكاه القرآن الكريم على لسان القوم حين حطم الخليل (عليه السلام) أصنامهم ، قال تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيم} [الأنبياء:٥٩ ، ٦٠] ، كما أشار القرآن الكريم إلى ما أوتيه سيدنا سليمان (عليه السلام) من وافر الفطنة وحدة الذكاء وهو في مرحلة الشباب ، فقال: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} [الأنبياء: ٧٨-٨٠].

وهذا يحيى (عليه السلام) نودي ليحمل عبْء الدعوة ، وينهض بالأمانة في قوة وعزم الشباب ، لا يضعف ، ولا يتهاون ، ولا يتراجع عن تكاليفها ، مع ما أتاه الله من المؤهلات التي لا تتوفر إلا للشباب {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم:١٢].

وهذا نبي الله موسى (عليه السلام) في ريعان شبابه ، حينما فرَّ إلى أرض مدين ، وجد مجتمعًا انعدمت فيه القيم لا يعبأ بالضعفاء كتلك المرأتين اللتين اضطرتهما الحاجة إلى موارد الرجال ، فثارت نخوته وفطرته السليمة ، كما ينبغي أن يفعل الشباب ذوو الشهامة ، وهو غريب في أرض لا يعرفها ، لا سند له فيها ولا ظهير ، تلبية لدواعي المروءة والنجدة والمعروف ، يقول تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص: ٢٣ ، ٢٤].

وقد حث النبي (صلى الله عليه وسلم) الشباب على فعل الخير والطاعة، وبين لهم فضل العبادة ، لاسيما في مرحلة الشباب ، حيث يظلهم الله في ظله ، فقال في حديثه الشريف: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ، الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (متفق عليه).

فجعل منزلة الشاب الطائع لله تعالى تلي منزلة الإمام العادل ؛ لما لمرحلة الشباب من خصائص تميزها عن غيرها من مراحل العمر.

وقد اهتم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالشباب اهتمامًا كبيرًا ، تربية ، وتوجيهًا وتعليمًا ، فعن ابن عباس (ضي الله عنهما) قال: "كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَوْمًا فَقَالَ: "يَا غُلَامُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ" (سنن الترمذي) ، كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان كثيرًا ما يطلب مشورة الشباب ، وينزل على رأيهم ، كما حدث في غزوة أحد ، حين نزل على رأيهم بملاقاة المشركين خارج المدينة.

وإذا كان الإسلام قد اهتم بالشباب هذا الاهتمام ، وأولاه هذه العناية الفائقة فلا بد إذًا من الاستفادة من طاقات الشباب في عصرنا ، وحسن توجيهها فيما يخدم بناء الوطن بناءً قويًا اقتصاديا وثقافيًا ، وهذا ما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كان يختبر ذكاء الشباب من صحابته ويعهد إليهم بما يتفق وإمكانات كل واحد منهم.

فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ قَالَ عَبْدُ اللهِ فَاسْتَحْيَيْتُ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنَا بِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم هِيَ النَّخْلَةُ" (متفق عليه)

وأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) زيد بن ثابت (رضي الله عنهما) أن يتعلم السريانية فتعلمها في وقت قصير ، فعنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، عَنْ أَبِيهِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، قال: "أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ قال: إِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ ، قال: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ ، قال: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ". (سنن الترمذي).

ولا نعجب عندما نرى سيدنا أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) في الثامنة عشرة من عمره ، وقد ولاه النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إمرة جيش فيه كبار الصحابة.

وكان أول بعث يتابع تنفيذه في زمن سيدنا أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، بلغ ذلك الجيش الذي قاده هذا الشاب ثلاثة آلاف من أصحاب رسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فلما جلس أبو بكر للخلافة أشار عليه غير واحد أن يرد الجيش خوفًا عليهم ، فإنهم خافوا أن يطمع الناس في الجيش بعد موت رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

كما أشار عليه بعضهم أن يغير أسامة لحداثة سنه ، فامتنع أبو بكر من رد الجيش أو تغيير القائد ، وأمر بإنفاذه ، وقال: "لا أحل راية عقدها رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)" ، واستأذن أسامة في أن يأذن لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في الإقامة ؛ لأنه ذو رأي ناصح للإسلام فأذن له، وسار أسامة بجيشه فنصرهم الله نصرًا عظيمًا ، وردهم إلى المدينة سالمين.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يستشير عبد الله ابن عباس (رضي الله عنهما) ويقربه منه ، روى أن المهاجرين قالوا لعمر (رضي الله عنه): "أَلَا تَدْعُو أَبْنَاءَنَا كَمَا تَدْعُو ابْنَ عَبَّاسٍ؟" ، قَالَ: "ذَاكُمْ فَتَى

الْكُهُولِ ، إِنَّ لَهُ لِسَانًا سَؤولا ، وَقَلْبًا عَقُولا" (مصنف عبد الرزاق) ، هذا وقد وجه الإسلام الشباب إلى استثمار طاقاتهم فيما ينفع العباد والبلاد ، وذلك عن طريق العلم والعمل ، فدعا إلى العلم ، وحث على طلبه ونشره ، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: ١١].

ولذلك برز في تاريخ المسلمين المُشرق علماء في شتى التخصصات أفادت البشرية منهم أيما إفادة كابن سينا ، والحسن ابن الهيثم ، والرازي ، وجابر بن حيان وغيرهم ممن تركوا خلفهم ثروة علمية خدمت البشرية في كافة المجالات.

وإن الإسلام لا يقبل أن يعيش الشباب عالة على المجتمع ، بل دعاه إلى العمل والإنتاج ، فعن كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: "مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ؟ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ" (المعجم الكبير للطبراني).

وقد عمل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في شبابه برعي الغنم ، كما عمل بالتجارة في مال السيدة خديجة (رضي الله عنها) ، فهل لشبابنا أسوة وقدوة في رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؟ ، وبخاصة في اغتنام شبابهم

في الخير ، فعنَ مُعَاذِ بن جَبَلٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "لا تَزُولُ قَدِمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرُهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عَلِمهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟" (مسند البزار)، وذِكْرُه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الشبابَ بعد العمر من باب ذكر الخاص بعد العام ؛ لما لمرحلة الشباب من خصوصية ليست لغيرها من مراحل العمـر .

وقد رأينا في عصرنا الحاضر نماذج لطاقات من الشباب العامل المنتج والمبتكر الذي استطاع أن يخدم نفسه ماديًّا ويخدم البشرية علميًّا وتقنيًّا ، وإذا لم تستثمر أمتنا طاقات الشباب فمتى تنهض؟ يقول الشاعـر:

إِذَا الْمَــرْءُ أَعْيَتْـهُ الْمُـرُوءَةُ نَاشِئًا   فَمَطْلَبُهَـــا كَهْـــلاً عَلَيْـهِ عَسِـيرُ

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إننا في حاجة إلى أن نعيد تأهيل الشباب تأهيلاً مبنيًا على العلم والدين الصحيح ، وإلى دفعه إلى العمل والإنتاج والابتكار بعيدًا عن تلك الثقافات التي تسربت إلى أخلاقيات المجتمع عامة والشباب خاصة ، وأن نغرس في نفوس الشباب احترام الآخر .

كما أنه لن ينهض مجتمع إلا بالتعاون المثمر القائم على المحبة والمودة والاحترام الكامل بين الشباب والشيوخ ، حيث يفيد الشباب من حكمة الشيوخ ، ويفيد الشيوخ من طاقة وقوة الشباب ، فيوجه كل واحد منهما طاقته إلى ما يعود نفعه خيرًا على الوطن والمواطنين.

هذا التعاون ما أحراه أن يكون بين كافة أطياف المجتمع وفئاته وطبقاته ، وخاصة بين الطالب وأستاذه ، فطالب العلم يجب عليه أن يخفض الجناح لمعلمه ، ويتذلل له كي يفيد من علمه ، ويجني منه خبرةً وخيرًا ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا" (عيون الأخبار لابن قتيبة) ، وقال بعض الحكماء: "من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى في ذل الجهل أبدًا" (الآداب الشرعية لابن مفلح).

وفي المقابل يجب على العالم أن يتواضع لطلابه فيهش لهم ويرحمهم ويصبر عليهم ، قال بعض السلف: "من تكبر بعلمه وترفَّع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به" (أدب الدنيا والدين) ، فكلما ازداد علم العالم ازداد تواضعه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (سنن الترمذي).

على أننا نؤكد أن ما يحدث – أحيانًا – من بعض طلاب الجامعات مما هو ضد القيم الجامعية وأخلاق طلب العلم من الفساد والتخريب، كل ذلك يتنافى مع ما يجب أن يكون عليه طالب العلم من القيم والأخلاق ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتفق مع نخوة الشباب ومروءته ، ولله در القائل:

فـإذا رزقـتَ خليـقة محمـــــودة فقدِ اصطفــــاكَ مقسِّـــمُ الأرزاقِ
فالناسُ هـــذا حظـهُ مــالٌ ، وذا علـــمٌ وذاك مكارمُ الأخـــلاقِ
والمـــالُ إن لم تدَّخــرهُ محصنًــا بالعلـــم كان نهـــاية الإمــلاقِ
والعلـــمُ إن لم تكتنفهُ شمـــائلٌ تعليهِ كان مطيَّــة الإخفـــاق
لا تحسبنَّ العلـــم ينفـــعُ وحـدهُ مـا لـم يتـوَّج ربُّـهُ بخـــلاق

(ديوان حافظ إبراهيم)

اللهم اهد شبابنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنهم سيئها لا يصرف عنهم سيئها إلا أنت ، واجعلهم يا رب ذخرا لبلادهم وكيدا لعدوهم .

* * *

ظاهرة أطفال الشوارع
وأهمية تربية النشء والعناية باليتيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، امتن على العباد بأن وهبهم الأولاد والأحفاد ، قال تعالى: {وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[النحل: ٧٢] ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإنّ ممّا فطر الله تعالى النفس الإنسانية عليه محبةُ الأولاد ، فالقلوبُ متعلقة بهم ، ويسعى الإنسان في حياته من بدايتها إلى نهايتها ، وجزءٌ كبيرٌ من سعيه لأجلهم ، فهم قرةٌ للعين ، وزينة الحياة ، وفَلَذَات الأكباد ، وثمراتُ الفؤاد ، وسببٌ من أسباب دخول الجنة لمن أحسن تأديبهم ، وراعى حقوقهم ، ولأجل هذا كان من دعاء عباد الرحمن قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان:٧٤] ، كما دعا زكريا (عليه السلام) بأن يرزقه الله تعالى الولد ، قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}[آل عمران: ٣٨] ، وجعل الله (عزّ وجلّ) العطف عليهم والرأفة بهم بابًا من أبواب الرحمة ، فعن أبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسً فَقَالَ الأَقْرَعُ : إِنَّ لِي عَشَرَةً

مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ثُمَّ قال : " مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ " (متفق عليه) .

لقد اعتنى الإسلام عناية فائقةً بالأطفال وتربيتهم تربيةً تحقق للأبناء وللآباء سعادةً في الدنيا والآخرة ، فاعتنى الإسلام بالطفل قبل أن يأتي للحياة فأمر راغبي الزواج بالانتقاء والاختيار على أساس الدين ؛ لأنّ البيوت إذا شاع فيها جوُّ الإيمان انعكست آثاره على أهله خيرًا وبرًّا وسعادةً وهناءً ، وهذا ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين قال: " فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ " (متفق عليه) ، فإذا ما أَهَلَّ المولود على أبويه فهما مأموران باختيار أحسن الأسماء له ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : " الغُلامُ مُرْتَهَنٌ بعقيقته يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ ، وَيُسَمَّى ، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ" (سنن الترمذي) ، فهذه جملةٌ من السنن المستحبة للمولود ، وفيها إظهارٌ لفرحة الآباء بالمولود ، وإدخالٌ للبهجة والسرور على الأهل والأحباب والفقراء .

ثم يأمر الإسلام بعد ذلك بالعناية بالمولود في مراحل حياته المختلفة ، ففي مرحلة الطفولة نجد النبي (صلى الله عليه وسلم) يحنو عليهم ويُلاعبُهم ، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رضي الله عنه) ، قال: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) لَيُخَالِطُنَا ، حَتَّى يَقُولَ لأَخٍ لِي صَغِيرٍ: "يَا أَبَا عُمَيرٍ ، مَا فَعَلَ النُّغَير" (متفق عليه) ، ومع هذه الرحمة توجيهٌ للأطفال وتأديبٌ وتهذيبٌ وتدريبٌ على أحكام الدين وتعاليمه .

هذه تعاليم الإسلام وتوجيهاته التي تبين أنّ للأطفال حقوقًا وواجباتٍ ، إذا ما حافظ عليها الآباءُ فإنهم سيجنون ثمرتها برًّا ورحمةً وخيرًا ، ومن ثمَّ

فإنّه ينبغي على الوالدين رعاية ما وهبه الله لهم من ذريةٍ وأبناء ، وحفظهم من كل ما يتسبب في ضررهم ، فإنهم الثروة الحقيقية لنا في الدنيا والآخرة ، وهم بابٌ من أبواب الجنة لمن عني بتربيتهم ورعايتهم وإصلاحهم ، فبرُّهم يعود علينا في قبورنا إن كانوا صالحين .

إن الولد قرةُ عينٍ لوالديه إذا كان مستقيمًا في سلوكه ، ناضجًا في تفكيره ، حليمًا في تصرفه ، عفيفًا في أسلوبه ، متمسكًا بتعاليم دينه ، متأسيًّا بأخلاق نبيِّه (صلى الله عليه وسلم) ، سالكًا درب الصالحين ، ذلك الأمر الذي يجعل تربية النشء واجبةً على الآباء والأمهات ، ومسؤوليَّةً كبرى يشترك فيها المجتمع بأسره ؛ لنصل إلى النموذج الأمثل الذي أراده الإسلام لأبنائنا ، يقول الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ (رَحِمَهُ الله) : " اعْلَمْ أَنَّ الصَّبِيَّ أَمَانَةٌ عِنْدَ وَالِدَيْهِ ، وَقَلْبَهُ الطَّاهِرَ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ سَاذَجَةٌ خَالِيَةٌ عَنْ كُلِّ نَقْشٍ وَصُورَة ، وَهُوَ قَابِلٌ لِكُلِّ نَقْشٍ وَقَابِلٌ لِكُلِّ مَا يُمَالُ بِهِ إلَيْهِ فَإِنْ عُوِّدَ الْخَيْرَ وَعُلِّمَهُ نَشَأَ عَلَيْهِ وَسَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، يُشَارِكُهُ فِي ثَوَابِهِ أَبَوَاهُ وَكُلُّ مُعَلِّمٍ لَهُ وَمُؤَدِّبٍ ، وَإِنْ عُوِّدَ الشَّرَّ وَأُهْمِلَ إهْمَالَ الْبَهَائِمِ شَقِيَ وَهَلَكَ ، وَكَانَ الْوِزْرُ فِي رَقَبَةِ الْقَيِّمِ بِهِ وَالْوَلِيِّ عَلَيْهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}[التحريم:٦] ، وَمَهْمَا كَانَ الأَبُ يَصُونُهُ مِنْ نَارِ الدُّنْيَا فَيَنْبَغِي أَنْ يَصُونَهُ مِنْ نَارِ الآخِرَةِ وَهُوَ أَوْلَى ، وَصِيَانَتُهُ بِأَنْ يُؤَدِّبَهُ وَيُهَذِّبَهُ وَيُعَلِّمَهُ مَحَاسِنَ الأَخْلاَقِ وَيَحْفَظَهُ مِنْ الْقُرَنَاءِ السُّوءِ وَلاَ يُعَوِّدَهُ التَّنَعُّمَ وَلاَ يُحَبِّبَ إلَيْهِ الزِّينَةَ وَأَسْبَابَ الرَّفَاهِيَةِ فَيُضَيِّعَ عُمُرَهُ فِي طَلَبِهَا إذَا كَبُرَ وَيَهْلِكَ هَلاَكَ الأَبَدِ" (المدخل لابن الحاج).

فالطفل إذن صحيفةٌ بيضاءُ نقية في أيدي أبويه ومن يُربِّيه ، فإن أحسنوا تربيته نشأ صالحًا ، وإن أساءوا نشأ على السوء والفساد ، ومن ثم فإن على الآباء والمربين أن يدركوا أن الأطفال أمانةٌ في أعناقهم، يُسْأَلُون عنها أمام الله (عز وجلّ) ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ ومسئول عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ومسئول عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ ومسئولة عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ ومسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" ، قَالَ فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ ومسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". (متفق عليه).

إنّنا أمام جيل من الأطفال لا زالوا في عمر الزهور نجدهم في مواقف السيارات وفي إشارات المرور ، وعند أبواب المحلات والمتاجر ، يرمقون المارة بنظراتهم البائسة وبثيابهم الرَّثَّة ، أهكذا يكون الأطفال الذين هم ذُخْرٌ للأمة والمجتمع؟! ، أهكذا يُنْسَوْن؟ ، فماذا ننتظر من جيل مهزوم يقضي ساعات طويلة من يومه أو يومَه كلَّه في الشّارع بلا روابط أسريةٍ أو بروابط أسريةٍ ضعيفةٍ؟ ، وكم سينتج عن ذلك من قضايا الأحداث المحمَّلة بالجرائم المتنوعة؟ إنّ هؤلاء إنّما هم نتيجة إهمالٍ أو تربية سيئة لآباء لا يعرفون شيئًا عن الإسلام والقيم الإنسانية .

ومن هنا فإن الإهمال في تربية الأطفال إهمالٌ للمسؤولية المنوطة بالآباء وبالمجتمع كله ، ويترتب عليها عواقبُ وخيمة ومشاكل مؤجَّلة تنتظرها الأمة فيما بعد .

إنها ظاهرة تستوجب الدراسة والبحث والانتباه إلى خطر محدق يبعث على القلق والاضطراب ، ويهدد الأمن والسّلام الاجتماعي ، تُرى ما السبب في هذه الظاهرة وفي انتشارها يومًا بعد يوم؟ لا شك أنها ناتجة عن عدة أسباب ، جلُّها تشير إلى خللٍ كبير في المجتمع.

إن من أسباب هذه الظاهرة: تخلي الأبوين عن تربية أولادهما ، إما بسبب الفقر الذي يخيم على بعض بيوت المجتمع ، فلا يجد الطفل ما يكفيه من كساءٍ ودواءٍ وغذاءٍ ، ولا يجد من يعطيه ما يستعين به على سدِّ رمقه ومتطلبات حياته ، فيخرج من البيت باحثًا عن مصدرٍ للعيش ، فإمَّا أن يضطر للعمل في مهنةٍ شَاقّةٍ أو تتلقفه أيدي السوء والجريمة ، فينشأ في المجتمع مجرمًا ، ويصبح خطرًا على النفس والمال والعِرض.

ومن أسبابها أيضًا: النِّزاع والشقاق بين الأبوين مِمَّا يجعل الطفل يهرب من محيط الأسرة الموبوءة ؛ ليبحث عن أصدقاء يقضى معهم جُلَّ وقته ، فإن كانوا قرناء سوءٍ ورفقاء شرٍ قادوه إلى سوء الأخلاق وأقبح العادات ، وأصبح أداة خطرٍ على المجتمع بأسره ، يضر ولا ينفع ، ويفسد ولا يصلح ، فعَنْ أَبِي مُوسَى (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ ، وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً" (متفق عليه).

ومن هذه الأسباب التي أنتجت أطفال الشّوارع: كثرة حالات الطّلاق وما يعقب ذلك من تشتت وفراق وما يصحبها من تشرد وضياع، ومن

المعلوم يقينًا أنَّ الطفل إذا فتح عينيه على الدنيا ولم يجد أُمًّا تحنو عليه ، وأبا يُشفِق عليه ويرعاه فإنه سيتربى على الفساد والانحراف ، ويندفع نحو الجريمة والرذيلة ، ومن هنا ندرك بعضًا من حكمة الله تعالى في جعل الطَّلاق أبغضَ الحلال ، وندرك أخطاره وآثاره على الفرد والمجتمع.

وكذلك من وسائل الإهمال في تربية النشء فعل المنكرات أمامهم ؛ مما يجعل من الوالدين والمربين قدوةً سيئةً فيقلِّد الأبناءُ آباءَهم ، ويسيرون على نهجهم.

لقد بيَّن لنا الشّرع الحنيف أن تربية النشء يجب أن تكون خاليةً من الكذب ؛ لينشأ الأطفال وقد تعوَّدوا على الصدق ، والصَّراحة ، والجرأة في القول والعمل ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ قَالَ لِصَبِيٍّ: تَعَالَ هَاكَ، ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ فَهِيَ كَذِبَةٌ" (مسند أحمد) ، بهذا الهدي النبوي ينبغي أن نربِّي أولادنا وننشِّئهم النشأة الإسلامية الصحيحة ، تلك التربية الإيمانية التي يتنزَّهون فيها عن الكذب، ويحققون الاستقامة ، وتكتمل شخصياتهم بالخُلُق القَويم ، والسلوك الأمثل.

وكذلك من أهم أسباب هذه الظاهرة : اللقطاء ومجهولو النسب ، فحين تحمل المرأة سفاحًا ، ولا تستطيع أن تتخلص من حملها ، فإنها بعد الولادة قد تتخلص منه بتركه أمام مسجدٍ أو ملجأٍ ، أو قارعة طريق ليَلقَى مصيره المحتوم ، وكم من أطفال يعيشون في الشوارع لا يعرفون لهم أبًا ولا أمًّا! ، وهَؤلاء خَطرهم أكبر من غيرهم ؛ لأنهم ينقمون على المجتمع كله بسبب جهالة نسَبهم ، ونظرة المجتمع إليهم.

ولا شك أنّ وقوع الإنسان في الزنا سببه الجهل بخطورته ، وبالعقوبة التي تنزل بالزاني ، فلقد حَذّر الإسلام من القرب من الزنا فقال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً} [الإسراء:٣٢] ، والواجب على المجتمع كله أن يتعاون على نشر الفضيلة ، ومحاربة الرذيلة ، وذلك بتيسير أمور الزّواج ، وتوفير مساكن للشباب ، والعمل على قضاء ظاهرة العنوسة.

ومن أسباب انتشار أطفال الشوارع اليُتْم: فكل طفل فَقَدَ أبويه ، أو أحدهما فلم يجد مَن يكْفُله ويقوم على شئونه يصبح في عداد أطفال الشوارع ، ولقد عني الإسلام بأمر اليتيم في توجيهاته الرشيدة، فأمر الأوصياء وكل من له صلة قرابة بيتيم أن يحسنوا معاملته ، ويقوموا على شئونه ، ويشرفوا على تأديبه حتى يتربى على الخير ، وينشأ على المكارم الخلقية ، والفضائل النفسية ، وقد جاءت العديد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ترغِّب في كفالته ورعايته والقيام على شئونه ، والسعي في مصالحه ، وتنمية ماله إن كان له مال ، والإنفاق عليه ابتغاء وجه الله إن لم يكن له مال ، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[البقرة:٢٢٠] ، وليس بالضرورة أن يكون اليتيم قريبًا لك لِتَكْفلَه ، وإنما ذلك للقريب والغريب.

والإصلاح أمر جامع لما يحتاج إليه اليتيم ، فقد يحتاج إلى المال فيكون الإصلاح برًّا وعطاءً ماديًّا ، وقد يحتاج إلى من يتاجر له في ماله أو من يقوم على زراعته ، أو صناعته ، فيكون الإصلاح هو القيام بذلك ، وقد

لا يحتاج اليتيم إلى المال ، وإنما يحتاج إلي التقويم والتربية ، فيكون الإصلاح هنا رعايةً وتربيةً ، وقد لا ينقصه هذا ولا ذاك ، إنما تكون حاجته أشدَّ ما تكون إلى العطف والحنُو والإحساس بالأبوة ، فيكون الإصلاح إشباع ذلك عنده.

وقد يكون الإصلاح في تقويم زيغه أو اعوجاجه فقد جاء أحد الناس يسأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عما يضرب منه يتيمه فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): "مِمَّا كُنْتَ ضَارِبًا وَلَدَكَ ، غَيْرَ وَاقٍ مَالَكَ بِمَالِهِ ، وَلاَ مُتَأَثِّلٍ مِنْ مَالِهِ مَالاً" (السنن الكبرى للبيهقي) ، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) يطلب من السائل أن يعامل اليتيم معاملة ولده ، فينظر إلي ما يصلحه ويقومه ويقوي شأنه ، وجاءت امرأة بطفلتين لها إلى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) تسألها الصدقة ، تقول أم المؤمنين: "جَاءَتْنِى مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا فَأَطْعَمْتُهَا ثَلاَثَ تَمَرَاتٍ فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِى كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا فَأَعْجَبَنِى شَأْنُهَا فَذَكَرْتُ الَّذِى صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ" (صحيح مسلم).

وقد قال داود (رضي الله عنه) في مناجاته لربه: "إِلَهِي مَا جَزَاءُ مَنْ أَسْنَدَ يَتِيمًا أَوْ أَرْمَلَةً لاَ يُرِيدُ بِهَا إِلاَ وَجْهَكَ؟ قَالَ: جَزَاؤُهُ أَن أُظِلَّهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَ ظِلِّي" (تفسير الدر المنثور للسيوطي)، معناه ظل عرشي يوم القيامة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إنَّ هناك دورًا هامًّا على المؤسسات المعنيَّة تجاه هذه الظاهرة ، فهذه الظاهرة تحتاج إلى الكثير من الرعاية التي توفر ما يحتاج إليه هؤلاء الأطفال من أشكال الرعاية اللازمة ، إلا أنه قد تعجز عنه الحكومات خاصة في حالة تفشي الظاهرة وانتشارها بشكل كبير وعلى نطاقٍ واسع.

ومن هنا فلا يقتصر الأمر على عمل الحكومة فقط ، بل الواجب على كل أفراد المجتمع وبخاصةٍ رجال الأعمال ومؤسسات المجتمع المدني التعاون من أجل إيجاد الحل الناجح والسريع لتلك الظاهرة السيئة ، ويقع الدور الأكبر على الأغنياء ورجال الأعمال ؛ فإنَّ مواجهة مثل هذه الظواهر يكون من خلال عمل المشاريع اللازمة لذلك.

وهذا الدور الذي يؤديه الأغنياء من باب قول الله تعالى: {وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة:٢] ، وهو أيضا يقوم على فهمٍ دقيقٍ لنظرة الإسلام إلى المجتمع على أنّه كسفينة واحدة إن غرقت غرقت بالجميع ، وإن نجت نجت بالجميع ، كما قال سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا" (صحيح البخاري) .

إنّ أغنياء المجتمع ليسوا بمعزل عن الآثار السلبية التي تنتج عن تفشي تلك الظاهرة في المجتمع ، بل هم أول الناس تضررًا منها ، ولهذا فالتعاون في علاجها أمر ضروري يفرضه الإسلام ، ويدعو إليه الواقع الأليم الذي يعيش فيه هؤلاء الأطفال الذين هم ضحايا آبائهم وأمهاتهم ، وضحايا الإهمال وعدم التعاون بين طوائف المجتمع .

إنّ ظاهرة أطْفال الشّوارع– وما ينتج عنها من قضايا الأحداث المحمَّلة بأنواعٍ من الجرائم – هي ظاهرة عامة ، تحتاج إلى تكاتفٍ وتعاونٍ بين جميع المؤسسات المدنية والحكومية على كافة مستوياتها ، وجميع تخصصاتها لحلها ، ومواجهتها على أسس وقواعد علمية ، تتفق مع القيم الإنسانية ، وتعاليم الإسلام السمحة ، ممتثلين بتوجيه النبي (صلى الله عليه وسلم) حين قال: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (صحيح مسلم) .

اللهم اجبر كسرنا ، واجمع شملنا ، ولم شعثنا ، ورد شاردنا ، وأصلح ما فسد من أحوالنا ، واهدنا سبلنا ، إنك نعم المولى ونعم النصير.

* * *

نحو علاقات أسرية ومجتمعية سوية
تكفل اليتيم وترعى المحتاج

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[النساء:١٩] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلقد عُني الإسلام بالأسرة واهتم بها اهتمامًا بالغًا ، لأنها اللبنة الأولى في بنيان المجتمع ، فبصلاحها يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد المجتمع، لذلك وضع الإسلام للأسرة ضوابط ومعايير تنظم قيامها ، وتحرص على سلامتها واستقرارها ، حفاظاً على الفرد والمجتمع ، لأن استقرار الأسرة هو استقرار للمجتمع.

وقد امتدتْ عناية الإسلام بالأسرة إلى مرحلة ما قبل تأسيسها بما يحقِّق التلاؤُم والانسجام، والتوادّ والتراحم بين جميع أفرادها ، ويُقَلِّل من أسباب الهدم والانهيار لبنيانها ، فقد حَثَّ الإسلام أتباعه على تكوين الأسرة بوسيلة مشروعة تتماشى مع الحفاظ على كرامة الإنسان وحفظ آدميته وتتوافق مع فطرته السوية ، ألا وهي الزواج ، إحدى سُنَن الله (عز وجل) في الخلق كله ، قال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[الذاريات:٢٩] ، ويقول سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ}[يس: ٣٦] ، فالزواج

سُنَّة كونيَّة ، جعله ربنا سبحانه دليلا على عظيم قدرته ، وآية باهرة من آياته في خلقه ، فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[سورة الروم:٢١].

كما رغَب الإسلام في تكوين الأسرة واستقرارها إعمارًا للأرض ، وتحقيقًا لمصلحة المجتمع وبناء الوطن ، وصولاً إلى الغايات السامية المتمثلة في: نشر العفة والفضيلة ، وحماية المجتمع من كل مظاهر الفسق والرزيلة ، وترابط الأسر فيما بينها بالمصاهرة ، وغير ذلك من الحكم والغايات النبيلة ، يقول الحق سبحانه:{وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[النور:٣٢ ، ٣٣].ولقد حث النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الشبابَ على الزواج مبينًا منافعه وفوائده ، حيث قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)فيما صح عنه: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ" (متفق عليه).

وفي المقابل نهى الإسلام عن كل الأمور التي تتعارض مع عمارة الكون ، ومنها التبتل والانقطاع عن النساء ، فقد منعه الرسول (صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ونهى عنه ، قال سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): "رَدَّ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لاَخْتَصَيْنَا" (متفق عليه).

وعن أَنَس بن مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: "جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لاَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" (متفق عليه).

ولمَّا كان الاستقرار الأسري – بكل ما تحمله الكلمة من معنى للهدوء والسكون والطمأنينة – مطلبًا شرعيًّا ودنيويًّا منشودًا وضع الإسلام أسسًا شرعية سليمة ومنهجاً قويمًا ، حتى تدوم العشرة والألفة بين الزوجين ، ويتحقق الاستقرار ، ومن أهم هذه الأسس :

الاختيار الصحيح لكل من الزوجين للآخر ، فقد أوصى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الزوج بحسن اختيار الزوجة، لأنها المربية الصالحة ، المحافظة على ماله وعرضه ، وهي كما قال خير متاع الدنيا ، فعن عبد اللهِ بن عمرٍو (رضي الله عنهما) قال: قال رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ" (صحيح مسلم) ، فعندما تُبنى الأسر

على حسن الاختيار يتحقق السكن والاستقرار ، والودّ المتصل ، والتراحم المتبادل ، حينئذ يكون الزواج أشرف النعم ، وأبركها أثرًا ، ولابد وأن يكون ذلك الاختيار على أساس الدين والخلق فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ" (متفق عليه).وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى إِحْدَى خِصَالٍ ثَلاَثٍ: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى مَالِهَا، وَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى جَمَالِهَا، وَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى دِينِهَا، فَخُذْ ذَاتَ الدِّينِ وَالْخُلُقِ تَرِبَتْ يَمِينُكَ" (مسند أحمد).

فالزوجة لها دور عظيم في رعاية الأسرة ، فبصلاحها تستقر الأسرة بل يستقر المجتمع كله ، وبفسادها تنهار الأسرة .

يقول أحمد شوقي :

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعدَدْتَها أعددْتَ شعبا طيبَ الأعراق

كذلك أوصى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند اختيار الزوجة لزوجها بأن يكون الاختيار على أساس الدين والخلق ، فعَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ" (سنن الترمذي).فجعل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الدين والخلق أهم صفات الزوج الصالح ، ومن ثمَ فالاختيار الصحيح على أساس الدين يحقق للأسرة الاستقرار الذي يؤدي إلى تقدم المجتمع .

وكذلك من أسس استقرار الأسرة : أن يراعي كل فرد من أفرادها ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، فقد جعل الإسلام لكل من الزوجين على الآخر حقوقًا تتساوى مع ما عليه من واجبات ، قال تعالى : {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٨] ، فلا يطالب أي فرد من أفراد الأسرة بحقٍّ قبل أن يؤدي ما عليه من واجب ، حتى تتحقق المودة والرحمة والسكينة التي تجعل الأسرة مستقرة .

ولقد وضحَ الإسلام هذه الحقوق والواجبات ، وقسَمها بين جميع أفراد الأسرة ، وألزم جميع أفرادها بضرورة المحافظة عليها ، فمنها الحقوق المادية ، ومنها الحقوق المعنوية والتربوية ، ومنها المشاركة البناءة في أداء المسئوليات ، وضرورة التعاون المشترك بين جميع أفراد الأسرة في أعباء الحياة ومتطلباتها ، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"(متفق عليه)، وعَنْ سيدنا عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: "كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ" (سنن أبى داود) .

ولقد سأل أحد الصحابة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: "يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟، قَالَ: أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، أَوِ اكْتَسَبْتَ ، وَلاَ تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلاَ تُقَبِّحْ، وَلاَ تَهْجُرْ إِلاَ فِي الْبَيْتِ" (سنن أبى داود).

وها هي أَسْمَاءُ بِنْت يَزِيد الأَنْصَارِيَّةُ تسأل الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فتقول: "...إِنَّا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَحْصُورَاتٌ مَقْصُورَاتٌ ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ وَمَقْضَى شَهَوَاتِكُمْ ، وَحَامِلاَتُ أَوْلاَدِكُمْ ، وَإِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ فُضِّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى ، وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ، وَالْحَجِّ بَعْدَ الْحَجِّ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا أُخْرِجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمُرَابِطًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، وَغَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابًا، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلاَدَكُمْ، فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي الأَجْرِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى أَصْحَابِهِ بِوَجْهِهِ كُلِّهِ، ثُمَّ قَالَ:" هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالَةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَسْأَلَتِهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا مِنْ هَذِهِ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا ظَنَنَّا أَنَّ امْرَأَةً تَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ هَذَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: انْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا، وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ وَاتِّبَاعَهَا مُوَافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، قَالَ: فَأَدْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا" (شعب الإيمان) ، ومن ثمّ فإن نجاح الأسرة المسلمة واستقرارها مرهون بالمحافظة على الحقوق والواجبات بين جميع أفرادها ، وتجنب تجاهلها أو التفريط فيها .

ومن الأمور التي تساعد على استقرار الأسرة: انتشار الرحمة بين أفرادها ، فإن الرحمة من أهم دعائم البيت السعيد ، وأساس متين لأي أسرة ناجحة ، وهي من القيم التي ينبغي لكلا الزوجين أن يتحلى بها في علاقته مع الآخر حتى تنعم الأسرة بالسكينة والمودة والاستقرار قال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الروم:٢١]. فالتراحم بين جميع أفراد المجتمع مرهون بتحقيقه في الأسرة ، ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأسوة الحسنة ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا في الرحمة بأهل بيته كلهم على السواء ، أزواجه وأولاده وحتى أحفاده وخادمه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) خير الناس لأهله.

فالرحمة إذا نُزعت من البيت كانت الحياة الأسرية شقاء ودمارًا فينبغي على كل أفراد الأسرة العمل بجدية على تحقيق الرحمة.

وكذلك من أسس استقرار الأسرة: المعاشرة بالمعروف ، وهذا ما أمرنا به ربنا سبحانه وتعالى ، وأوصانا به نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[النساء: ١٩] ، فكل من الزوجين مطالب بإحسان الصلة بالآخر حتى يسود الأسرة جو من المودَّةِ والتعاون يتحقق معه مقصد هذه العلاقة ، قال تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}[البقرة: ١٨٧]، وقال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً ورَحْمَةً}[الروم:٢١]، وقال سبحانه: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩].

ومما تتم به المعاشرة الحسنة : الكلمة الطيبة ، والفعل المحمود والتسامح ، والتعاون ، والاحترام ، والتشاور ، وحفظ الأسرار ، واجتناب دواعي النزاع والشقاق ، وسائر الخصال الحميدة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

لقد ضرب لنا النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه الكرام (رضوان الله عليهم) أعظم الأمثلة في حسن العشرة ، ففي حديث الأَسْوَدِ ، قَالَ: "سَأَلْتُ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) مَا كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ – فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ" (صحيح البخاري) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ ، كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨] ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنْظِفَ جَمِيعَ حَقِّي عَلَيْهَا ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ:{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة:٢٢٨] " (مصنف ابن ابى شيبة).

ومن معاني حسن العشرة بين الزوجين : عدم إثقال أحد الزوجين كاهل شريكه بالمشاكل التي يعاني منها الآخر، فحسن العشرة كلمة جامعة تضم كل معاني الخير للحياة الزوجية الطيبة.

والإسلام يحرص كل الحرص على أن تقوم الرابطة الزوجية على المحبة ، والتفاهم والانسجام ، وهذه هي أهم خطوة في إصلاح المجتمع.

ومن الأمور التي تساعد على استقرار الأسرة: مشاورة كل من الزوجين للآخر ، فالتشاور بين الزوجين يزيد الألفة والمحبة بينهما حتى في مسألة قد تبدو أمام البعض صغيرة وهي مسألة فطام الرضيع قبل عامين ، قال تعالى:{فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَليهِم} [البقرة: ٢٣٣] ، فالشورى بين الزوجين ، بل بين جميع أفراد الأسرة تمثل منهج حياة في ديننا الإسلامي، والأمر بها ورد بصيغة العموم في كتاب الله عز وجل ، قال سبحانه: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، وهذا ما طبقه الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عمليًّا ، وفي السنة النبوية مواقفُ عدة لمشاورته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لبعض أزواجه، منها: ما حدث بينه (صلى الله عليه وسلم) وبين زوجه السيدة أم سلمة (رضوان الله تعالى عليها) يوم الحديبية ، فبعد أن انتهى النبي (صلى الله عليه وسلم) من إبرام عهد الصلح بينه وبين أهل مكة قَالَ لأَصْحَابِهِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا" قَالَ راوي الحديث: "فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ (صلى الله عليه وسلم) عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا

فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا) (صحيح البخاري).قال الحسن البصري (رضي الله عنه): "إنْ كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لفي غنى عن مشورة أم سلمة ، ولكنه أحبّ أن يقتدي الناس في ذلك ، وأن لا يشعر الرجل بأي غضاضة في مشاورة النساء".

كذلك من أسس استقرار الأسرة: النفقة على جميع أفرادها فهي حق من الحقوق التي أوجبها الإسلام على الراعي ، قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء:٣٤] ، وقال تعالى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} [البقرة:٢٣٣] ، وقال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَ مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧].

ومن الأمور التي تساعد على استقرار الأسرة: تحقيق العدل بين جميع أفرادها ، فحسن التربية الدينية للأبناء ، وتعليمهم شعائر الدين والعدل بينهم عامل أساسي في استقرار الأسرة، فقد حذَر النبي (صلى الله عليه وسلم) من التفريق بين الأبناء في المعاملة ، حفاظًا على الترابط الأسري ، والتآلف بين جميع أفرادها ، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قَالَ: "تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟ قَالَ: لاَ قَالَ: اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ)، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ" (صحيح مسلم).

إن الإسلام قد نظر إلى الأسرة نظرة تقدير واحترام ، فهي في نظره رباط مقدَّس له غايات سامية ، حرص الإسلام على إبقائه قوياً متماسكاً ، يحقِّق أهدافه ويصمد أمام الشدائد والمحن، ولهذا أَوْلاَها الإسلام عناية فائقة بجملة من الآداب من أجل أن يكون البناءُ متماسكًا قويًّا ، يحافظ على استقرار المجتمع وحمايته من كل مظاهر التطرف والتشدد والعدوان، فاهتم الإسلام بالأسرة وأسس لاستقرارها، تحقيقًا للترابط بين أفراد الأمة ، وتحقيقًا للتقدم والرخاء.

وإذا استقرت الأسرة شعر جميع أفرادها بالأمن في جميع صوره ـ النفسي والبدني والاجتماعي والاقتصادي ـ مما ينعكس ذلك على أمن المجتمع وسلامته.

فالإسلام اعتبر أن استقرار الأسرة وسيلة فعّالة لتحقيق الأمن المجتمعي من الفساد والفوضى، فبداية الأمن المجتمعي من الأسرة أولاً ، ثُم المدرسة ، ثم المجتمع.

فالأسرة هي المدرسة الأولى التي يتعلم فيها الطفل الحق والباطل، والخير والشر، ويتعلم تحمل المسئولية ، وحرية الرأي، وفي الأسرة تتحدد عناصر شخصية الطفل، وتتميز ملامح هويته، ومن ثم يكون مواطنا صالحا في مجتمع صالح.

على أن الإسلام أمرنا بمراعاة حقوق المجتمع ، وأن نحافظ على أمنه وسلامته ، وأن نتعاون على البر والخير ، وأن نكون دعاة بناء وتعمير لا

هدم وتخريب ، وأن نكف الأذى عنه، حتى يصبح مجتمعًا قويًا متماسكًا ، فقد نهانا الإسلام عن إلحاق الأذى بالناس ، وجعل رفع الأذى طريقًا إلى الجنة ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ" (متفق عليه).

كما حثَّ الإسلام على التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع ومساعدة الضعفاء وذوى الاحتياجات الخاصة، ومن ذلك اليتامى، فقد رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) في كفالة اليتامى ، فكفالتهم تأمين لهم وللمجتمع معًا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِه، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ) وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" (صحيح مسلم) ، ولما جاء رجل إلى رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ ، وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ) (مسند أحمد).

ولقد حذَرنا القرآن الكريم من تجاهل شأن اليتيم فكان هذا الوعيد الشديد في قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء:١٠].

وكذلك أمرنا الإسلام بالإحسان إلى الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ، فقد بين النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثواب من سعى في خدمة هؤلاء الضعفاء ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي

سَبِيلِ اللهِ ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ " (متفق عليه) ، فيا له من ثواب جزيل وفضل عظيم لمن سار على هدي المصطفى (صلى الله عليه وسلم) واقتفى أثره .

* * *

وَاجِبُ المُعَلِّمِ والمُتَعَلِّمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، القَائِلِ فِي كِتَابِهِ العَظِيمِ: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١] ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ العَلِيمُ الحَكِيمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ الكَرِيمُ ، اللهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الغُرِّ المَيَامِينِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبعد :

فَإِنَّ العِلْمَ حَيَاةُ القُلُوبِ مِنَ الجَهْلِ ، وَمِصْبَاحُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ ؛ إِذْ يَبْلُغُ العِلْمُ بِصَاحِبِهِ مَنَازِلَ الأَخْيَارِ والدَّرَجاتِ العَالِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، وَبِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ وَيُعْرَفُ الحَلالُ والحَرَامُ ، يَرْفَعُ اللهُ بِهِ قَوْمًا وَيَجْعَلُهُمْ فِي الخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً ، تُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}[الزمر: ٩].

إِنَّ الإِسْلامَ قَدْ رَفَعَ مَنَازِلَ العُلَمَاءِ وَقَدَّرَ جُهُودَهُمْ ، وَسَمَا بِدَرَجَاتِهِمْ، حَتَّى قَرَنَهُمُ الحَقُّ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ وَملائِكَتِهِ فِي الشَّهَادَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ والإِقْرَارِ بَعَدَالَتِهِ ، قَالَ تعَالَى: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

وَلَقَدْ ظَهَرَتْ عِنَايَةُ الإِسْلامِ بِالعِلْمِ والتَّرْغِيبِ فِيهِ مَعَ أَوَّلِ كَلِمَاتٍ اسْتَقْبَلَتْهَا أُذُنُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ

وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ – ٥] ، فَأَوَّلُ أَمْرٍ سَمَاوِيٍّ نَزَلَ بِهِ الوَحْيُ هُوَ الأَمْرُ بِالقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ أَبْوَابِ العِلْمِ ، ثُمَّ تَأْتِي الإِشَارَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى القَلَمِ الَّذِي هُوَ وَسِيلَةُ تَدْوِينِ العِلْمِ وَنَقْلِهِ ؛ وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً عَلَى بَيَانِ فَضْلِ العِلْمِ وَالتَّرْغِيبِ فِي طَلَبِهِ وَالحَثِّ عَلَيْهِ .

فَلِلْعِلْمِ مَقَامٌ عَظِيمٌ ، وَلأَهْلِ العِلْمِ مَكَانَتُهُمُ العَالِيَةُ ، فَلَوْلا العِلْمُ والعُلَمَاءُ لَضَلَّ النَّاسُ وَفَسَدُوا ، فَالعِلْمُ نُورٌ يُبْصِرُ بِهِ صَاحِبُهُ حَقَائِقَ الأُمورِ ، وَالعُلَمَاءُ لِلنَّاسِ كَالنُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ} [الرعد: ١٩] ، فَكَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَسَّمَ النَّاسَ فِي هَذِهِ الآيَةِ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَالِمٍ ، وَأَعْمَى ؛ فَجَعَلَ العِلْمَ فِي مُقَابِلِ العَمَى، فَالبَصَرُ هُنَا بَصَرُ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ ، وَلَيْسَ بَصَرَ الرُّؤْيَةِ ، قَالَ تَعَالَى: {فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦] ، وَمِنْ ثَمَّ أَعْلَى القُرْآنُ الكَرِيمُ مِنْ شَأْنِ العِلْمِ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالسُّلْطَانِ ، فَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} [غافر: ٣٥].

وَلَقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) مَكَانَةَ العِلْمِ وَفَضِيلَةَ طَلَبِهِ فِي حَدِيثٍ يَدْفَعُ كُلَّ مَنْ قَرَأَهُ بِتَدَبُّرٍ إِلَى المُسَارَعَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ ، وَإِفْنَاءِ العُمرِ فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِهِ ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا ، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ

كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ" (سنن أبي داود) ، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "يَا أَبَا ذَرٍّ ، لأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ ، وَلأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بابًا مِنَ الْعِلْمِ – عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ – خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ" (سنن ابن ماجه).

وَرَضِيَ اللهُ عَنْ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ ، حَيْثُ قَالَ: " الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ، وَالْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ " (حلية الأولياء) ، وَلا يَخْفَى أَنَّ العِلْمَ نِعْمَةٌ وَمِنَّةٌ وَفَضْلٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ} [البقرة: ٢٦٩] ، وقَالَ عَلِيٌّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) (إحياء علوم الدين):

مَا الفَخْـرُ إلاَّ لأهْـلِ العِلْـمِ إنَّهُـمُ ... عَلَى الهُـدَى لِمَنِ اسْتَهْـدَى أَدِلاَّءُ
وَقَـدْرُ كُلِّ امْـرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِـنُه ... والجَـاهِلُـونَ لأهْلِ العِلْمِ أَعْدَاءُ
فَفُـزْ بِعِلْـمٍ تَعِشْ حَيًّـا بِهِ أَبَـدًا ... النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْـلُ العِلْمِ أَحْيَـاءُ

إِنَّ لِلْعِلمِ أَخْلاقًا عَظِيمَةً وَآدَابًا كَرِيمَةً ؛ مِنْ أَهَمِّهَا التَّوَاضُعُ ، وَقَدْ كَتَبَ مَالِكٌ إِلَى الرَّشِيدِ: "إِذَا عَلِمْتَ عِلْمًا ؛ فَلْيُرَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ وَسَكِينَتُهُ وَسَمْتُهُ وَوَقارُه وَحِلمُهُ"(حلية الأولياء) ؛ وَلِذَا قَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ (رضي الله عنه): " تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ، وَالْوَقَارَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعْلَمُونَ مِنْهُ " (المعجم الأوسط) ، إِذْ لا يَسْتَقِيمُ العِلْمُ مَعَ الكِبْرِ ، وَلا يُؤْتَى مَعَ المَعْصِيَةِ ، إِنَّمَا يُؤْتَى بِطَلَبِهِ ، وَيَزْدَادُ بِالتَّقْوَى ، حَيْثُ يَقُولُ الحَقُّ سُبْحَانَهُ وتعالى :

{وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }[البقرة : ٢٨٢] ، قَالَ عَبْد الْوَاحِدِ بْن زَيْدٍ : "مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ فَتَحَ اللهُ لَهُ مَا لاَ يَعْلَمُ "(حلية الأولياء) ، فَالعَمَلُ شَرْطٌ لِتَحَقُّقِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّ اللَّدُنِّيِّ ، حَيْثُ يَقُولُ الحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِ العَبْدِ الصَّالِحِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ:{فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}[الكهف: ٦٥] ، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: ٧٩] ، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي حَقِّ سَيِّدِنَا يَحْيَى (عليه السلام): {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا} [مريم: ١٢، ١٣] ، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ المَلائِكَةِ: {سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا} [البقرة: ٣٢] ، وَالعَالِمُ لِلسَّائِلِ كَالطَّبِيبِ لِلْمَرِيضِ ، لا بُدَّ أَنْ يَحْنُوَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَأْخُذَ بِيَدِهِ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ، وَيبيِّنَ لَهُ طَرِيقَ السَّدَادِ.

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَمِ ، قَالَ: "بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمِتُونِي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، وَاللهِ مَا قَهَرَنِي وَلا ضَرَبَنِي ، وَلا شَتَمَنِي.." (صحيح مسلم).

وَلَعَلَّ وَاجِبَ الوَقْتِ وَفَرِيضَتَهُ لِلْعُلَمَاءِ هَذِهِ الأَيَّام هُوَ تَصْحِيحُ المَفَاهِيمُ الخَاطِئَةِ ، مَعَ تَصْحِيحِ الصُّورَةِ الذِّهْنِيَّةِ المَغْلُوطَةِ عَنِ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ ، وَالعَمَلُ عَلَى نَشْرِ الفِكْرِ الإِسْلامِيِّ الصَّحِيحِ ، وَالقِيَامُ بِوَاجِبِهِمْ فِي تَقْدِيمِ

حُلُولٍ وَرُؤًى وَاجْتِهَادَاتٍ عَصْرِيَّةٍ تَتَّسِقُ وَرُوحَ العَصْرِ وَمُسْتَجَدَّاتِهِ فِي ضَوْءِ الحِفَاظِ عَلَى الثَّوَابِتِ ، والتَّفْرِقَةُ الوَاضِحَةُ الصَّرِيحَةُ بَيْنَ الثَّابِتِ المُقَدَّسِ والفِكْرِ البَشَرِيِّ المَكْتُوبِ حَوْلَ النَّصِّ المُقَدَّسِ ، سَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا الفِكْرُ البَشَرِيُّ مُتَعَلِّقًا بِفَهْمِ بَعْضِ نُصُوصِ القُرْآنِ الكَرِيمِ أَوْ بَعْضِ نُصُوصِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ المُشَرَّفَةِ المُطَهَّرَةِ ، أَمْ كَانَ آرَاءً وَاجْتِهَادَاتٍ وَاسْتِنْبَاطَاتٍ فِقْهِيَّةً أَوْ فِكْرِيَّةً.

وَإِنَّ نَفْيَ تَحْرِيفِ الغَالِينَ والمُتَنَطِّعِينَ ، وَبَيَانَ وَضْعِ الوَضَّاعِينَ وانْتِحَالِ المُبْطِلِينَ ، وَتَصْوِيبَ خَطَأِ المُخْطِئِينَ وَالخَاطِئِينَ وَتَأْوِيلِ الجَاهِلِينَ ، وَتَفْنِيدَ ضَلالاتِ المُضِلِّينَ وَالإِرْهَابِيِّينَ والمُتَطَرِّفِينَ والمُتَشَدِّدِينَ ؛ مِنْ أَوْلَى أَوْلَوِيَّاتِ وَوَاجِبَاتِ الوَقْتِ ، يَقُولُ نَبِيُّنَا (صلى الله عليه وسلم): "يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ " (سنن البيهقي).

كَمَا يَنْبَغِي عَلَى العَالِمِ أَنْ يَكُونَ مُتَزَيِّنًا بِجَمِيلِ الأَخْلَاقِ ، فَالعِلْمُ إِنْ لَمْ يُرَافِقْهُ أَخْلَاقٌ وَقِيَمٌ ؛ لا وَزْنَ لَهُ وَلا اعْتِبَارَ ، وَلا أَثَرَ لَهُ فِي سُلُوكِ صَاحِبِهِ ، ولا فِي تَغْيِيرِ الآخَرِينَ ، وَصَدَقَ الشَّاعِرُ حِينَ قَالَ:

وَالعِلْـمُ إِن لَم تَكتَنِفْـهُ شَمـائِلٌ   تُعْلِيهِ كَانَ مَطِيَّـةَ الإِخْفَـاقِ
لا تَحسَبَنَّ العِلـمَ يَنفَـعُ وَحدَهُ   ما لَـم يُتَـوَّجْ رَبُّهُ بِخَـلاقِ

وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَحَلَّى بِآدَابٍ فَاضِلَةٍ وَمَساعٍ عَالِيَةٍ ، نَتَعَلَّمُهَا مِمَّا فَعَلَهُ سَيِّدُنَا مُوسَى كَلِيمُ اللهِ (عليه السلام) – وَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ – مَعَ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [الكهف٦٦ – ٦٩].

فَلا بُدَّ إِذًا لِلْعَالِمِ وَلِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَحَلَّيَا بِكَرِيمِ الأَخْلاقِ ، وَأَنْ يَكُونَ عَمَلُهُمَا مُتَّفِقًا مَعَ قَوْلِهِمَا حَتَّى يُؤَثِّرَ ذَلِكَ فِي المُجْتَمَعِ ، فَعِنْدَمَا رَبطَتِ الأُمَّةُ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ والأَخْلاقِ ، عَاشَتْ فِي عِزَّةٍ وَرِفْعَةٍ بَيْنَ الأُمَمِ ، وَحَيْثُ كَانَ الخُلُقُ وَالعِلْمُ كَانَ الرُّقِيُّ ، وَكَانَ الازْدِهَارُ ، وَلَمْ يُعرفْ فِي التَّارِيخِ مِثْلُ حَضَارَةِ أُمَّتِنَا العَظِيمَةِ ، الَّتِي كَانَ أَسَاسُهَا العِلْمَ والأَخْلاَقَ الفَاضِلَةَ المُسْتَقاةَ مِن الإِسْلامِ ، وَصَدَقَ النَّبِيُّ الكَرِيمُ (صلى الله عليه وسلم) حَيْثُ قَالَ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (سنن البيهقى).

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلىَ يَوْمِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إِنَّ الإِسْلامَ أَعْلَى مِنْ شَأْنِ العِلْمِ والعُلَمَاءِ عَلَى اخْتِلافِ تَخَصُّصَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا قِيمَةُ العِلْمِ تَشْمَلُ التَّفَوُّقَ فِي كُلِّ العُلُومِ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ فِي شُئُونِ دِينِهِمْ أَوْ شُئُونِ دُنْيَاهُمْ ، وَلِذَا نَرَى أَنَّ قَوْلَ اللهِ (عز وجل) :{ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }[فاطر: ٢٨] ، جَاءَ فِي مَعْرِضِ الحَدِيثِ عَنِ العُلُومِ الكَوْنِيَّةِ ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ

كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[فاطر : ٢٧، ٢٨] ، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [آل عمران :١٩٠، ١٩١].

كَمَا أَنَّ المُرَادَ بِالعِلْمِ النَّافِعِ كُلُّ مَا يَحْمِلُ نَفْعًا لِلنَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، فِي العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ أَوِ العَرَبِيَّةِ ، أَوْ عِلْم الطِّبِّ ، أَوِ الصَّيْدَلَةِ ، أَوِ الفِيزْيَاءِ ، أَوِ الكِيمْيَاءِ ، أَوِ الفَلَكِ ، أَوِ الهَنْدَسَةِ ، أَوِ المِيكَانِيكَا أَوِ الطَّاقَةِ ، وَسَائِرِ العُلُومِ وَالمَعَارِفِ ، فَالعِلْمُ أَسَاسُ الشَّخْصِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ المُبْدِعَةِ المُبْتَكِرَةِ، وَدَلالَةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[النحل: ٤٣] ، فَكَلِمَةُ (الذِّكْرِ) أَعَمُّ مِنْ أَنْ تُقْصَرَ عَلَى عِلْمٍ بِعَيْنِهِ ، فَالأَمْرُ مُتَّسِعٌ لِكُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ ، وَمِمَّا لا شَكَّ فِيهِ أَنَّنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى جَمِيعِ العُلُومِ الَّتِي نَعْمُرُ بِهَا دُنْيَانَا كَحَاجَتِنَا إِلَى العُلُومِ الَّتِي يَسْتَقِيمُ بِهَا أَمْرُ دِينِنَا.

إِنَّ أَبَاطِيلَ وَضَلالاتِ الجَمَاعَاتِ المُتَطَرِّفَةِ تَعْمَل على أَدْلَجَةِ العُلَمَاءِ ، وَطُلابِ العِلْمِ والشَّبَابِ ، والمُثَقَّفِينَ مِنَ المُنْتَمِينَ إِلَيْهَا ؛ مِمَّا يَجْعَلُهُمْ مُكَبَّلِينَ بِأَغْلالِهِم، وَهَذَا يُؤَكِّدُ الدَّوْرَ الكَبِيرَ المُلْقَى عَلَى عَاتِقِ العُلَمَاءِ وَالمُفَكِّرِينَ وَالعُقَلاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ أَنْ يَكُونُوا رِجَالَ فِكْرٍ وَعَقْلٍ ، وَدُعَاةَ أَمْنٍ وَسَلامٍ بِحَقٍّ وَصِدْقٍ وَإِخْلاصٍ ، مُسْتَحْضِرِينَ مَنْهَجَ الإِسْلامِ فِي الحَيَاةِ .

اللهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ مِنْ جَهْلِ الجَاهِلِينَ ، وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا .

* * *

الصحبة وأثرها في بناء الشخصية

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {الأَخِلاَءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَ الْمُتَّقِينَ}[الزخرف: ٦٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه ورسوله ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن الإنسان اجتماعي بفطرته ، يحيا في مجتمعه ، يتأثر به ويتفاعل معه، من خلال سماته الشخصية التي تختلف عن غيره ، فإن للمجالسة والمقارنة أثرها الواضح الفعال في فكر الإنسان وسلوكه ، وهي سبب في تحديد مصيره وسعادته في الدنيا والآخرة.

ولا خلاف أننا نحتاج إلى شخصية سوية تتسم بأسمى معاني الإنسانية ، وأعلى درجات الوطنية ، حتى يخرج لنا جيل يبني ولا يهدم ، يعمر ولا يخرب ، يقدم مصلحة الوطن العامة على أية مصلحة أخرى.

وقد أمرت الشريعة الغراء بحسن بناء الشخصية ، لتكون شخصية واعية ، تدرك المخاطر ، وتحسن مواجهة أعباء الحياة ، وتتقي الفتن والشبهات ، قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥].

كما وجهت الشريعة أيضا أن يكون الإنسان صاحب شخصية واثقة ، غير مترددة ، تعي الصواب النافع ، وتتبع الحق ، ولا تخوض مع الخائضين ،

يقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً ؛ تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا) (سنن الترمذي).

ولا شك أن من أهم الأمور التي لها أثرها البالغ في بناء شخصية الإنسان: الصحبة ، فإنّ المرء يتأثر بجليسه ويصطبغ بصبغته فكرًا ومعتقدًا وسلوكًا وعملا ، وقد دلَّ على ذلك الشرع والعقل والتجربة والواقع والمشاهدة.

هذا وللصحبة الصالحة أهميتها البالغة في بناء شخصية سوية ، نافعة لدينها ، ووطنها ، ومجتمعها ، وهذا ما ربَّى عليه النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) صحابته الكرام ، وفي مقدمتهم سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الذي ضرب أروع المثل في حسن الصحبة والوفاء بحقها ، وذلك حين قال له أهل مكة: إن صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس ، ثم عاد ، فقال بثقة ويقين في صاحبه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): إن كان قال فقد صدق ؛ إني أصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه في خبر السماء" (المستدرك على الصحيحين للحاكم).

وهذا ما كان عليه صحابة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فيما بينهم ، وهم خير قدوة للصحبة الصالحة الطيبة المبنية على المؤاخاة ، والإيثار ، والانتماء ، والوحدة ، والعمل الإيجابي النافع ، والتواد والتراحم ، فعَن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه).

كما أن لصحبة الصالحين بركتها وفضلها في الدنيا والآخرة ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلاَئِكَةً سَيَّارَةً ، فُضُلاً يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ ، قَعَدُوا مَعَهُمْ ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِذَا تَفَرَّقُوا ، عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ ، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ ، يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيُهَلِّلُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيَسْأَلُونَكَ ، قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لاَ ، أَيْ رَبِّ ، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ ، قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لاَ ، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلاَنٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ ، هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُم) (متفق عليه).

ومن ثمرات الصحبة الصالحة أنها سبب في حب الله (عز وجل) والفوز بالجنة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ) (صحيح مسلم).

وكذلك تكون سببا للحشر معهم يوم القيامة ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنِ السَّاعَةِ ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: (وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟) ، قَالَ: لاَ شَيْءَ ، إِلاَ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) ، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) ، قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَبَا بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ" (متفق عليه).

ولله در الإمام الشافعي حيث قال:

أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم ... لَعَلّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَة
وَأَكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المَعاصي ... وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَة

وكذلك من ثمرات صحبة الصالحين أنها تذكر بالله (عز وجل) ، وتثمر خيرًا في الدنيا والآخرة ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ ؟ قَالَ: (مَنْ ذَكَّرَكُمْ بِاللهِ رُؤْيَتُهُ ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقَهُ ، وَذَكَّرَكُمْ بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ) (حلية الأولياء لأبي نعيم).

والصاحب الحق مرآة أخيه ، يحثه على الخير ، وينهاه عن الشر ، ويحب له ما يحب لنفسه ، قال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنّ الآنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ}[العصر: ١-٣] ، وعن أنس (رضي الله عنه) عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا) ، قلنا: يا رسول الله ، نصرته مظلومًا ، فكيف أنصره ظالمًا ؟ قال: (تَكُفُّهُ عَنِ الظُّلْمِ ؛ فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ) (صحيح البخاري)، وهذا

ما طبقه الصاحب الصالح الذي وجد صاحبه يحيد عن الحق ، وينجرف عنه متبعًا للشيطان والهوى ، فنصحه وبين له الحق ، ووصاه بما ينبغي أن يفعله ، وحذره من عواقب البعد عن الله (عز وجل) ، قال سبحانه: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَ بِاللهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا* فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا* وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} [الكهف:٣٧ – ٤٢].

ولله در علي بن أبي طالب حينما قال:

إنَّ أخـاكَ الحـقَّ من كان مَعَـك ومَنْ يضرُّ نفسَـه لينفعَـكْ
ومَنْ إذا ريَبُ الزمـانِ صَـدَعكْ شتَّتَ فيه شَمْـلَهُ لِيَجْمَعَـكْ

وكما أن للصحبة الصالحة أثرها الطيب النافع في الدنيا والآخرة ، فإن للصحبة السيئة أثرها في تكوين الشخصية السلبية ، أو الهدامة ، أو المنحرفة ، ولذلك ضرره البالغ ومفاسده الوخيمة في الدنيا ، وسوء العاقبة في الآخرة ؛ فالصحبة السيئة تهدم القيم النبيلة ، وتمحو الأخلاق الحسنة ، وتفسد النشء والشباب ، وتعطل مسيرة العمل، وتروج الشائعات وتنشر الضلال والفتن ، فصاحب السوء يسعى لإضلال صاحبه بالعقائد الفاسدة ، والأفكار الهدامة ، ولقد ذكر القرآن الكريم لنا مشهدًا واضحًا للصاحب السوء ، فقال سبحانه : {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ

مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَ مَوْتَتَنَا الآولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات: ٥٠ – ٦١] ، وقال سبحانه: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلآنسَانِ خَذُولاً} [الفرقان:٢٧ – ٢٩] ، ولقد صور لنا النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) صاحب السوء بنافخ الكير ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السّوءِ ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً) (متفق عليه).

كما أن صحبة السوء تُعدُّ أداة هدم وظلم للنفس والغير ؛ وأخطرها من يحاول أن يجرك إلى طريق الجماعات الهدامة الضالة المنحرفة التي تدعو إلى التخريب والهدم والإفساد في الأرض ، ومن يحاول أن يجرك إلى طريق المخدرات أو الإدمان بقوله أو بسلوكه ، لأن هذا وذاك يأخذان المرء إلى طريق الهلاك والهاوية وإلى سخط الله (عز وجل) في الدنيا والآخرة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

ينبغي علينا جميعًا الحذر من رفقة أهل السوء ، وعدم مخالطتهم ، حيث يقول سبحانه: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠] ، وقال سبحانه: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[الأنعام: ٦٨] ، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ) (سنن أبي داود)، ويَقُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ تُصَاحِبْ إِلاَ مُؤْمِنًا ، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَ تَقِيٌّ) (سنن أبي داود) ، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قال: اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَخْدَانِهِمْ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لاَ يُخَادِنُ إِلاَ مَنْ يُعْجِبُهُ" (الإبانة الكبرى لابن بطة) ، ولله در القائل:

إِذَا كُنْتَ في قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُم   وَلاَ تَصْحبِ الأردى فتردى مَعَ الرَّدِي
عَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِه   فَكُلُّ قَرِينٍ بالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

على أننا نؤكد أن بناء الشخصية من خلال تحقيق الصحبة الصالحة مسئولية مشتركة؛ ينبغي أن يتكاتف عليها المجتمع كله ، وعلى الجميع أن يدرك عظم هذه المسئولية ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ ،

وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه)، فينبغي الاهتمام المبكر بالتربية والحفاظ على النشء من خلال الأسرة والمدرسة والمسجد وسائر مؤسسات المجتمع التربوية والفكرية ، والإعلامية ، وتضافر وتكامل الجهود لتحصين النشء والشباب من الفكر المتطرف والجماعات الخداعة الهدامة ، والعمل على تعزيز الانتماء الوطني ، فرعاية أبنائنا وشبابنا ، ومشاركتهم في اختيار رفقتهم ، أمانة كبرى ، ومسؤوليةٌ عظمى ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [التحريم: ٦] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاه ، أَحَفَظَ ، أَمْ ضَيَّع ؟ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ) (صحيح ابن حبان).

اللهم ارزقنا الصحبة الصالحة ، وحقق لنا ثمرتها يا رب العالمين.

* * *

دعوة الأنبياء والرسل للإصلاح
في ضوء القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام: ٤٨] ، وأشهد أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ، وأشهد أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ إِمَامُ الأَنبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ ، وَأَفْضَلُ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِيْنَ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِيْنَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ.

وبعد:

فمن القيم الإسلامية التي حث عليها ديننا الحنيف ونادى بها قيمة الصلاح والإصلاح ، فهو خُلُق عظيم تسعد به النفس البشرية وتميل إليه ، وهو قيمة إنسانية لابد منها لتحقيق عمارة الكون ، وهو أيضا مطلب شرعي يدور معناه حول إزالة أسباب الفساد والشقاق ، والسعي للتقارب بين الناس حتى تستقيم أحوالهم في الحياة.

ولا شك أن الصلاح والإصلاح هو الغاية المنشودة من العباد في أعمالهم وأقوالهم ، فبغير الصلاح لا يُقبَل العمل ، ومن ثمَّ فلا بد أن يكون الإنسان صالحًا في نفسه وقوله وعمله ، مُصلحًا يحمل هموم الخلق ، ويعمل على إصلاحهم.

ومن يتدبرْ آيات القرآن الكريم يجد أنها عُنيت بهذه القيمة العظيمة – قيمة الإصلاح – عناية فائقة ، فقد ورد لفظ الإصلاح بمشتقاته في القرآن

الكريم نحو مائة وسبعين مرة ، والإكثار من ذكر الشيء دليل على العناية به ، وعلى علوِّ شرفه وعِظَم مكانته ، فوردت مادة (صلح) بمعانٍ متعددة تدل في مجملها على أن الإسلام يهدف إلى إصلاح الإنسان في اعتقاده وسلوكه وعباداته ومعاملاته وسائر حياته.

ولقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان بالله (عز وجل) والإصلاح في مواضع متعددة وفي ذلك إشارة إلى أن الإصلاح من علامات الإيمان بالله (عز وجل) ، قال تعالى: {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام:٤٨] ، وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١].

وكذلك ربط القرآن الكريم بين التقوى والإصلاح ، فقال تعالى: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأعراف:٣٥]، وربط – أيضًا – بين التوبة والإصلاح ، فقال تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا} [البقرة:١٦٠] ، وقال تعالى: {فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا} [النساء:١٦] ، وقال تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور:٥].

فالإصلاح إذًا هو ثمرة الإيمان بالله (عز وجل) والتقوى والتوبة النصوح الخالصة لرب العالمين ، كما رغب القرآن الكريم في الإصلاح لما فيه من الأجر العظيم ، قال تعالى:{لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤].

وإذا تتبعنا أخبار الأنبياء والرسل مع أقوامهم وجدنا أنهم أُرسِلوا جميعًا ليصلحوا ما أفسده الناس في الأرض ، فكانت رسالة كل الأنبياء واحدة ، وهي إصلاح الكون من الفساد والمعاصي ، ومن الأمراض التي تفشت فيهم.

جاء كل نبي ليصلح فسادًا قد انتشر في زمانه ، فأرسلهم الله (عز وجل) إلى خلقه مبشرين ومنذرين بعقيدة وشريعة وأخلاق تصلح النفوس وتجردها من دنس الشرك ، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥] ، وجاءت دعوتهم لتصلح عمل الإنسان في الدنيا لينال رضا ربه في الآخرة.

فهذا نوحٌ (عليه السلام) دعا قومه إلى إصلاح أنفسهم بدين الله فيعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ويتركوا عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع من يعبدها، قال تعالى: {وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً} [نوح: ٢٣ ، ٢٤] ، ورغبهم في الإصلاح بالاستغفار حتى يكثر الرزق ، وينعم الله عليهم بالمال والولد ، قال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا} [نوح: ١٠– ١٣].

وها هو خطيب الأنبياء شعيبٌ (عليه السلام) يعالج الفساد العقدي وما ترتب عليه من فساد اقتصادي في قومه ، فيدعوهم إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان ، وكان هذا الخُلُق المذموم منتشرًا بين قومه ، فجاء بدعوة الإصلاح التي تحفظ حق البائع والمشتري ، فقال تعالى على لسان

شعيب (عليه السلام): {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [هود:٨٤– ٨٦].

ثم بين لهم حقيقة دعوته وأن جوهرها هو الإصلاح ، فقال (عليه السلام): {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨] ، وفي موضع آخر نجد عزمه (عليه السلام) على إصلاح ما أفسده قومه في الأرض من نقصان في الكيل والميزان ، فيقول لهم: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الشعراء: ١٨١–١٨٣].

ولنا أن نلحظ ملحظًا دقيقًا في قول سيدنا شعيب (عليه السلام) وهو ينادي بالإصلاح فيقول: {وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} ، فقد بين أن هناك مقصدًا عظيمًا لا بد وأن يراعى عند كل مصلح ، وهو استحضار قيمة الإخلاص في الإصلاح.

إنه إصلاح لا يريد من خلاله تحصيل مصالح ومآرب شخصية ، ولا ينطلق من بواعث ونوازع نفسية أو من صراع شخصي ، إنما هو إصلاح يعود بالنفع العام على سائر أفراد المجتمع.

وهذا نبي الله صالحٌ (عليه السلام) ينادي قومه فيقول: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

وعندما استَخلَف موسى (عليه السلام) أخاه هارون (عليه السلام) في قومه أوصاه بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين ، قال تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢].

وجاء نبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) ليستكمل دعوة الإصلاح في جميع مناحي الحياة دينيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا ، التي بدأها من سبقه من الأنبياء والرسل (عليهم السلام) ، وبنظرة عميقة في حياته وسيرته نجد أنه (صلى الله عليه وسلم) بنى حضارة إسلامية مرتبطة بالقيم والأخلاق ، بعد أن كان المجتمع ملوثًا بمفاسد أخلاقية كثيرة كالزنا ، والسرقة ، والقتل ، والربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل مال اليتيم ، وغيرها من الفواحش والمنكرات .

لكن رسول الله قابل كل هذه المشكلات بالمنهج الإصلاحي ، فكانت دعوته (صلى الله عليه وسلم) هي دعوة حياة وإصلاح للفرد والمجتمع ، قال تعالى: {ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤].

ففي الجانب الديني: جاءت دعوته (صلى الله عليه وسلم) لإصلاح النفس بالدين ، فبينت أن الله واحد لا شريك له ، وأقامت الأدلة على

وحدانيته وصدق رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وفي جانب إصلاح السلوك دعا (صلى الله عليه وسلم) إلى حسن الخلق ، وبين أنه جوهر الدعوة ، فقد روى البيهقي في سننه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ" (السنن الكبرى للبيهقي).

كما دعا (صلى الله عليه وسلم) إلى القيم والمبادئ الإنسانية التي يتحقق بها إصلاح المجتمع ، والحفاظ على وحدته وقوته وتماسكه وترابطه ؛ لكي تعيش البشرية في سلام وصفاء ، لا نزاع ولا شقاق ، ولا عنف ولا إرهاب ، بعكس ما نشاهده على الساحة من العنف ، والإفساد في الأرض بالقتل والتخريب.

ومن هذه القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها في سبيل الإصلاح: العدل ، والتسامح ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، والصدق في الأقوال والأفعال ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، ومراعاة حق الجوار، والكلمة الطيبة ، وذلك لأن مصدر التشريع السماوي واحد ، ولهذا قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ " (صحيح البخاري).

فقد تختلف الشرائع في العبادات وطريقة أدائها وفق طبيعة الزمان والمكان ، لكن الأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساسًا للتعايش لم تختلف في أي شريعة من الشرائع ، يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الآوَلَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ" (صحيح البخاري) ، فأي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم ، أو أكل حق العامل أو الأجير؟.

وأي شريعة أباحت الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو خُلف العهد ، أو مقابلة الحسنة بالسيئة؟ ، بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية ؛ فمن خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

ولهذا قال ابن عباس (رضي الله عنهما) عن قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥١- ١٥٣] "هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهن محرمات على بني آدم جميعًا ، وهن أم الكتاب – أي أصله وأساسه – من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار" (تفسير البغوي).

ومن هنا فإن كل دعوة للإصلاح تخالف دعوة الأنبياء ، وتبتعد عن طريق الشرع ، فهي في الحقيقة دعوة للإفساد في الأرض.

ولقد ضرب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) المثل الأعلى في الصلاح والإصلاح قولاً وعملاً ، فكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم) طلب

الإصلاح في كل الأمور ، ومن ذلك قوله: "اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ" (صحيح مسلم) ، فكان يقوم بالصلح بين الناس بنفسه ، ويسعى إليه ترغيبًا فيه ودرءًا للفتنة وإزالة للخلافات ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالحِجَارَةِ ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِذَلِكَ ، فَقَالَ: "اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ" (صحيح البخاري).

إن الصلاح والإصلاح هما الحصن الحصين لبقاء المجتمع وتقدمه، فنحن بحاجة إلى إصلاح النفس أولاً وتطهيرها ، إصلاحًا يشمل مجالات الحياة المتنوعة سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا ، فإصلاح النفس مطلب شرعي وواجب ديني.

وإن من الإصلاح أن يعي الفرد ما له وما عليه ، فلا يعتدي على حقوق الآخرين ، وأن يدرك الفرد واجباته فيقوم بها خير قيام ، فإن استقامته وتزكية نفسه على المكارم والأخلاق الفاضلة ، وانتهاءه عن الانحراف والإفساد في الأرض وعن الظلم وامتلاء قلبه بالشحناء والبغضاء ، كل ذلك هو عين الإصلاح الذي ننشده .

فكل إنسان يحقق استقامةً مع نفسه ، ومع ربه ، ومع بني جنسه ، ومع الكون فهو الإنسان المتحقق بالصلاح في نفسه ؛ ليكون مصلحا لغيره ، فكأن تزكية النفس بالأخلاق الفاضلة هي الوسيلة للإصلاح التي تمنع من الظلم والإثم والوقوع فيما نهى الله عنه ، والعمل على تعمير الأرض

واستخراج كنوزها وأسرارها التي تأتي بالنفع العام للمجتمع ، فبالإصلاح تكون الألفة لا الفرقة ، وهو عين ما يدعو إليه القرآن الكريم ، وبالإصلاح تنعكس قيم الرحمة والتسامح والعفو على أفراد المجتمع ، ومن ثم على الأمة كلها ، وبالإصلاح ننبذ بذور العنف والكراهية والحقد والبغض.

ولا يتوقف الإصلاح على وقت معين ، بل لا بد وأن يسعى الإنسان للإصلاح حتى آخر نفس في حياته ، وإلى ذلك أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه أنس بن مالك (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "إنْ قَامَت السَّاعةُ وَفِي يَد أَحَدِكُم فَسِيلةٌ ، فَإنْ استَطاعَ أنْ لاَ تَقُومَ حَتى يَغرِسَهَا فَليَغِرسْهَا" (الأدب المفرد للبخاري).

جدير بالذكر أن الإصلاح لن يتحقق ولن يؤتي ثماره إلا إذا بدأ الإنسان بنفسه ثم بأسرته ثم بمجتمعه ، فإصلاح المجتمع واجب لا بد منه لتستقيم الحياة وتنعم البلاد بالأمن والعمل والتقدم ، وتحل المودة والمحبة بين الناس ، والصالح المصلح – الذي يبذل جهده وماله ليصلح بين المتخاصمين – دعا له النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقال: "إِنَّ الدِّينَ بَدأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفَسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي" (سنن الترمذي).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

إن للإصلاح آثارًا عظيمة على الفرد والمجتمع ، منها: تحقيق الحياة الطيِّبة ، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل:٩٧].

ومنها: النجاة من الهلاك والدمار ، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود:١١٧].

ومنها: وراثة الأرض ، فوراثة الأرض مشروطة بمهمة الإصلاح ، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥].

ومنها تحقيق ولاية الله عز وجل ورعايته لعبده الذي أخذ بمبدأ الإصلاح ، وقام به على الوجه الأكمل ، قال تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف:١٩٦].

ومنها أيضا: حفظ الذرية ، قال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[الكهف: ٨٢] ، فقصة بناء جدار اليتيمين في قصة موسى (عليه السَّلام) مع العبد الصالح معروفة ، ولم تكن عملية بناء الجدار محض صدفة ، وإنما كانت أثرًا لصَلاح أبيهما ، عن ابن عباس (رضي الله عنهما): "حُفِظَا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صَلاحًا" (تفسير ابن كثير).

ومنها: أن الإصلاح يحقق الأمن من الفزع في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأنعام: ٤٨] ، وكذلك يجلب المغفرة والرحمة ، قال تعالى: {وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١٢٩].

فالإصلاح إذا دخل على الشيء زينه وحسنه ، وهو خُلُق يحبه الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، به تستقيم الحياة ، وتكون الأمة قوية متماسكة يعز فيها الضعيف ، وبه يتحد المسلمون وتجتمع كلمتهم ، وتسود بينهم المحبة والمودة ، وهو دليل أخوة الإيمان ، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠].

وإذا ما فقدنا قيمة الإصلاح فسد المجتمع ، وانهدمت الأسر ، وعمت الفوضى ، واستشرى الفساد ، وانتُهِكت محارم الله ، واقتُرِفت الشهوات بل انهدم المجتمع والدولة والحضارة ، فترك الإصلاح يؤدي إلى تعميم العذاب في الدنيا والهلاك المعنوي ، كالفقر والذلة والهوان.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي فيه عصمة أمرنا ، واصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، واصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا.

❊ ❊ ❊

الأخلاق أساس الحضارات الراقية

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فمما لا شك فيه أن مكارم الأخلاق من القواسم المشتركة بين جميع الشرائع السماوية ، يقول نبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ" (صحيح البخاري) ، فالأخلاق ليست أمرًا يمكن الاستغناء عنه ، بل هي أصل من أصول الحياة التي تتطلبها كل الأديان ، وهي غاية العبادات ، وأساس قيام الحضارات الراقية ، ومصدر من مصادر سعادة الإنسان ، على أن الحضارات التي لا تقوم على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل قيامها وأساس بنيانها.

وبكريم الأخلاق أثنى الحق سبحانه وتعالى على أنبيائه ورسله (عليهم السلام) فقال سبحانه في شأن سيدنا إبراهيم (عليه السلام): {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: ٣٧] ، وفي شأن سيدنا إسماعيل (عَلَيْهِ السَّلام) قال سبحانه: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا} [مريم: ٥٤] ، فقد وصفه بصدق الوعد وقدمه على النبوة والرسالة ، ثم جمع سبحانه وتعالى الأمر كله لنبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: {وَإِنَّكَ

لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] ، وهذا ما قرره رسول الله (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حيث لخص الهدف من رسالته فقال: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ" (المستدرك للحاكم).

والمتأمل في حياة بعض الناس اليوم يجد أنهم قد ابتعدوا عن المنهج الصحيح للإسلام ، واختزلوا الشريعة الإسلامية في مجرد الأحكام التعبدية فقط ؛ لذلك ضلوا الطريق وحادوا عنه.

ومن ثم وجدنا أزمة أخلاقية ، فرأينا من يعق أباه أو يؤذي أمه ، ورأينا من يأخذ أكثر من حقه ولا يؤدي ما عليه من واجب ، رأينا من يدعي الإيمان ويتاجر بالدين ، ثم يقتل ، ويدمر ، ويفجر ، وهو مؤدٍّ للشعائر ، محافظ عليها غاية الحفاظ ، قال الحسن البصري: "إِنَّ قَوْمًا طَلَبُوا الْعِبَادَةَ وَتَرَكُوا الْعِلْمَ حَتَّى خَرَجُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَلَوْ طَلَبُوا الْعِلْمَ لَمْ يَدُلَّهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا" (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر).

وقد ربط الإسلام بين الشريعة والأخلاق الحميدة والعبادات والآداب الرفيعة ، والمتأمل في النصوص الشرعية يجد أن من حكمة مشروعية العبادات في الإسلام تهذيب سلوك الفرد وتزكية أخلاقه ، لينعكس ذلك على تصرفاته وأفعاله وسائر أحواله ، ومن ثم على مجتمعه ، فيبني مجتمعًا متحضرًا يتمتع بالتخلق بمكارم الأخلاق.

إن العبادات لابد وأن تَتْرُك أثرًا أخلاقيًّا في سلوك صاحبها ، فهي ليست طقوسًا جوفاء ، بل شُرِعت لترتقي بالإنسان ، وتسمو بأخلاقه ، ففريضة الصلاة التي تمثل أسمى علاقة تربط العبد بربه ، قال الله تعالى عنها: {إِنَّ

الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُون} [العنكبوت: ٤٥] ، وأكد النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على هذا المعنى بقوله: "مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ تَأْمُرْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَمْ تَنْهَهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنَ اللهِ إِلاَ بُعْدًا" (شعب الإيمان للبيهقي)

وكذلك الزكاة بمفهومها العام والشامل ، قال الله تعالى عنها: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: ١٠٣] ، فهي ليست مفروضة لتؤخذ من الأغنياء فحسب ، بل فرضت لتزكية الأنفس وتطهيرها ، ولغرس مشاعر الرأفة وتوطيد علاقات الألفة والمحبة بين الناس ، وكلها معانٍ أخلاقية في المقام الأول تُبنَى عليها الحضارات.

ومن أجل ذلك وسَّع النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في دلالة الصدقة حيث قال: "تَبَسُّمكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ لَكَ ، وَأَمْرُكَ بالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَة ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلالَةِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَة.." (صحيح ابن حبان) ، وأما الصيام فهو يقوِّي عزيمة المؤمن فينتصر على نفسه وشهواته ، وهذه هي التقوى في أكمل صورها ، والتي جعلها الله تعالى غاية الصوم ، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] ، ونبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: "الصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ" (متفق عَليْه).

وكذلك الحج إنما فرضه الله تعالى لتهذيب النفوس بمكارم الأخلاق ، قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ معْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ

فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الأَلْبَابِ} [البقرة:١٩٧]، وقال (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم): "مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ ، فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" (متفق عليه).

فالعبادة إذا لم تؤثر في خُلُقِ الإنسان وتهذب سلوكَهُ فلا قيمة لها ولا ثمرة لها في الآخرة ، يقول نبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟" ، قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، قَالَ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (سنن الترمذي) ، ولما سُئل (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاَتِهَا ، وَصِيَامِهَا ، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ: "هِيَ فِي النَّارِ" ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، فَإِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا ، وَصَدَقَتِهَا ، وَصَلاَتِهَا ، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ ، وَلاَ تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ: "هِيَ فِي الْجَنَّةِ" (مسند أحمد).

ولقد عُني الإسلام بالأخلاق عناية بالغة ، فجعل حسن الخلق أثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة ، حيث يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ" (مسند أحمد) ، كما أنه يرفع درجة صاحبه حتى يتساوى مع درجة قائم الليل وصائم النهار ، قال

(صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ" (مسند أحمد).

إضافة إلى أن صاحب الخُلُق الحسن يجاور رسول الله (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) في الجنة ، يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: "المُتَكَبِّرُونَ" (سنن الترمذي) ، وقد كان النبي (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) أنموذجًا عمليًّا للأخلاق الحسنة ، فقد كان أحسن الناس خُلُقًا ، وأكثرهم محبة ورأفة ، وحلمًا وعفوًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأوفاهم عهدًا وذمة ، وأكرمهم عشرة ، مدحه رب العزة (سبحانه وتعالى) بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤] ، ووصفه سيدنا أنس (رضي الله عنه) بأنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقًا" (صحيح البخاري) ، ولما سُئِلت السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن خُلُقِه (صَلَّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) قالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآن" (مسند أحمد).

وعلى منهج رسول الله (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سار الصحب الكرام (رضوان الله عليهم) ، فكانوا بهذه الأخلاق سادةَ الأمم ، ومحطَّ الأنظار ، وموضعَ القدوة لتمسكهم بالأخلاق السامية ؛ لذا كان الناس يدخلون في دين الله أفواجا لِمَا يرون من حسن معاملتهم وجميل أخلاقهم ، وحين بدأ الانحراف عن هذا المنهج القويم وساءت أخلاق الناس ضاعت القيم، وفُقدت القدوة ، وتبدلت المفاهيم.

وصدق الإمام مالك (رحمه الله) حين قال: "ولن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلُح به أولُها" (الشفا للقاضي عياض) ، فبالأخلاق الفاضلة تحيا الأمم وتنهض وتبقى آثارها خالدة ، فهي صمام أمان للمجتمعات من الانحلال ، تصونها من الفوضى والضياع ، فسلامة الأمة وقوة بنيانها ، وسمو مكانتها وعزة أبنائها بتمسكها بالأخلاق الفاضلة ، وبزوالها تنهار الأمم وتسقط ، وتصبح في مؤخرة الأمم ، فكم من حضارات ودول انهارت ليس عن ضعف مواردها وإنما بتردي أخلاقها ، ولله درُّ القائل:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن أهم ما تميزت به الأخلاق في الإسلام أنها لا تتجزَّأ ، فلا تفرقة فيها على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس ، وبهذا قامت الحضارة الإسلامية ، قال الله تعالى في التعامل مع الوالدين المشركَين: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[لقمان: ١٥] ، ورسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان لا يُفرِّق في المعاملة بين المسلم وغير المسلم ، فعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: "كَانَ

غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَهُوَ يَقُولُ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ" (صحيح البخاري).

إن الحضارات الراقية لا تقوم إلا على الأخلاق ، فهي من أسس تحضر الأمم ، ورقيِّها ، فتقدُّم كل أمة أو انحدارها يرجع إلى مدى تمسكها بالقيم النبيلة والأخلاق الحميدة ؛ ومن ثمَّ فإن الجانب الأخلاقي هو أهم مرتكزات الحضارة الإسلامية ؛ لذا برع المسلمون في النواحي العلمية وقدَّموا إسهامات غيَّرت وجه التاريخ ، ولا أدل على ذلك من التعددية والاختلاف في المذاهب الفقهية ، فمفهوم الحضارة لا يتحقق لمجتمع يشهد غياب القيم.

فبقاء الأمم وازدهارها واستمرارها يكون بالأخلاق ، فإذا انعدمت الأخلاق سقط المجتمع وانهارت الأمة ، وقد أكَّد القرآن الكريم على ذلك، حيث إنه ذكر لنا نماذج لأمم وحضارات سابقة انهارت بسبب فساد أخلاقها وانتشار الفواحش فيها ، مثل قوم لوط ، وقوم ثمود ، وقوم شعيب وغيرهم ؛ ولهذا قيل: " إن الله يُقِيمُ الدّولةَ العادلةَ وإن كَانَت كَافِرَة ، وَلاَ يُقيم الدولة الظالمة وإن كَانَت مسلمة " (الاستقامة لابن تيمية).

فإذا أردنا أن نرتقي بأخلاقنا ومجتمعنا وحضارتنا فلا بد لنا من قدوة حسنة نقتدي بها ، فهي عامل رئيس في تكوين الأخلاق ، ونبينا الكريم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خير من نقتدي به في الأخلاق الحسنة وكل

مناحي الحياة ، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:٢١].

فما أحوجنا إلى أن نعود إلى هذه المبادئ والقيم الأخلاقية والدعائم الحضارية التي تحقق السعادة في الدارين الدنيا والآخرة.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.

* * *

الحفاظ على البيئة ودوره في التنمية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، نهانا عن أن نفسد في الأرض ، أو أن نطيع أمر المفسدين ، فقال في محكم التنزيل: {وَلا تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى : {وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ}[الشعراء : ١٥١ ،١٥٢]، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الدين الإسلامي قد جاء لبناء مجتمع إنساني مثالي متكامل في جميع النواحي الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأيضًا الصحية صيانة لحياة المسلمين والإنسانية جمعاء.

لقد اهتم الإسلام بصحة الإنسان اهتمامًا عظيمًا فحثَّهُ على النظافة، وأمره بها ؛ لأنها من أسباب صحة الأبدان ، فأخبرنا (سبحانه وتعالى) أنه أنزل من السماء ماءً طهورًا ، فقال: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} [الفرقان:٤٨] ، هذا الماء الطهور هو نظافةٌ للأبدان وسلامةٌ لها ، كما أخبرنا تبارك وتعالى أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فقال: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢] ، وعَنْ سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ ، نَظِيفٌ

يُحِبُّ النَّظَافَةَ ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ ، جَوَّادٌ يُحِبُّ الْجُودَ ؛ فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ وَسَاحَاتِكُمْ ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ ، يَجْمَعُونَ الأَكْبَاءَ فِي دُورِهِمْ" (مسند البزار) ، والأكباء جمع كِبَا ، وهي الكناسة.

ولما كانت النظافة ضرورية في حياة الإنسان ، لازمة له ، جعلها الإسلام نصف الإيمان ، فعَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِىِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ – أَوْ تَمْلأُ– مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا" (صحيح مسلم).

واهتمام الإسلام بالنظافة لا يدانيه اهتمام في الشرائع الأخرى ، فلم يعد ينظر إليها على أنها مجرد سلوك إنساني مرغوب فيه أو متعارف عليه اجتماعيًا ، يحظى صاحبه بالقبول الاجتماعي فقط ، بل جعلها الإسلام قضيةً إيمانيةً تتصل بالعقيدة ، يُثاب فاعلها ويأثم تاركها.

ومن ثَمَّ فإن الإسلام يأخذ بيد أتباعه إلى العيش في بيئة طاهرة نقية ، ويدعوهم إلى الحفاظ على البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، إيمانًا منه بما للبيئة من أثر خطير على صحة الإنسان ومعاشه وأخلاقه، وهو بذلك قد سبق كل المنظمات العالمية في الدعوة إلى الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها ، فأرسى مجموعة من المبادئ التي تعتبر من أهم الإجراءات الوقائية للحفاظ على البيئة البشرية.

ويتمثل ذلك في عنايته بطهارة الإنسان ونظافته من خلال الدعوة إلى تنظيف الجسد والثياب ، فشرع الوضوء للصلوات الخمس في اليوم

والليلة، وأوجب الغسل من الجنابة ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: ٦] ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر:١- ٤].

وعن جابرِ بنِ عبدِ الله (رضي الله عنهما) قال: أتانا رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فرأى رجُلاً شعِثًا قد تفرَّقَ شَعرُهُ فقال: "أما كان هذا يَجدُ ما يُسَكِّنُ به شَعْرَهَ؟" ، ورأى رجُلاً آخر عليه ثيابٌ وسِخَة فقال: "أَما كان هذا يجدُ ما يَغسِلُ به ثوبَهُ؟" (سنن أبي داود) ، وقد حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على استخدام السواك وتطهير الفم من بقايا الطعام ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ" (متفق عليه).

والذي لا شك فيه أن كثيرًا من الأوبئة إنما تنتقل بسبب عدم العناية بالنظافة ؛ لذا كان من الإجراءات الوقائية التي تدعو إليها وزارة الصحة غسل اليدين قبل الأكل وبعده ، والتهوية الجيدة للمكان ، وغسل الفاكهة والخضر غسلاً جيدًا ، وحسن الطهي ونظافة أدواته ، وكل هذا ينبثق من روح الإسلام وحثه على النظافة.

جدير بالذكر أن حماية البيئة لا تقتصر على شخص دون آخر ، إنما هي مسئولية مشتركة بين الجميع أفرادًا ، وجماعاتٍ ، وحكوماتٍ ، فالمجتمع الراقي هو الذي يحافظ علي بيئته ، ويحميها من أي تلوث أو أذى ؛ لأنه جزء منها ، ولأنها مقر سكناه وفيها مأواه ، ولأنها عنوان هويته ، ودليل سلوكه وحضارته.

وجاءت التوجيهات الدينية حاملة بين طياتها الدعوة المؤكدة للحفاظ على البيئة ، برًّا ، وبحرًا ، وجوًّا ، وإنسانًا ، وحيوانًا ، ونباتًا ، إلى غير ذلك من مفردات البيئة ؛ لأنها جميعًا منظومة واحدة لكيان واحد ، فدعا الإسلام إلى الحفاظ على نظافتها وطهارتها وجمالها وقوتها وسلامتها ، وتنحية الأذى عنها ، ففي الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَإِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" (صحيح مسلم) ، وكلمة الأذى تشتمل على كل ما يضر ويؤذي مثل الشوك والحجر في الطريق والنجاسة وغير ذلك من كل ما هو مؤذٍ أو مضر بالإنسان.

ومن توجيهات القرآن الكريم لحماية البيئة والمحافظة عليها: نهيه عن الفساد والإفساد في الأرض بأي صورة من صور الفساد المعنوي أو المادي، فقال تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة:٦٠] ، وقال سبحانه: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥] ، وقال تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف:٥٦].

وقد نهى الإسلام المسلمين عن أن يحرقوا زرعًا ، أو يقطعوا شجرًا، حتى مع الأعداء ، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِى خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: "اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِى سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا ولاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا" (صحيح مسلم) ، وهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يوصي قادة جيوشه قائلاً: "لاَ تَقْتُلُوا كَبِيرًا هَرِمًا ، وَلاَ امْرَأَةً ، وَلاَ وَلِيدًا ، وَلاَ تُخْرِبُوا عُمْرَانًا ، وَلاَ تَقْطَعُوا شَجَرَةً إِلاَ لِنَفْعٍ ، وَلاَ تَعْقِرُنَّ بَهِيمَةً إِلاَ لِنَفْعٍ ، وَلاَ تَحْرِقُنَّ نَخْلاً ، وَلاَ تُغَرِّقُنَّهُ ، وَلاَ تَغْدِرْ ، وَلاَ تُمَثِّلْ ، وَلاَ تَجْبُنْ ، وَلاَ تَغْلُلْ" (السنن الكبرى للبيهقي)

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

❊ ❊ ❊

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

ومِنَ العنايةِ بالكونِ والبيئةِ الحثُّ علَى الزراعةِ ، وجعْلُهَا مِنْ أبوابِ الصدقاتِ ، كما حثنا النبيِ (صلى الله عليه وسلم) على عمارة الأرض ونشر الخير في جنباتها وبذل ثمراتها للإنسان والطير والحيوان: ففي الحديث عَنْ جَابِرٍ بن عبد الله (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا

سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَلاَ يَرْزَؤُهُ (أي: لا ينقصه ويأخذ منه) أَحَدٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ" (صحيح مسلم).

وفي الصحيحين من حديث أنس (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ" (متفق عليه) ، ومِنْ ذلكَ المحافظةُ علَى الثروةِ الزراعيةِ ، قالَ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ ، وَمَا أَكَلَتِ الْعَافِيَةُ مِنْهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ" (مسند أحمد) ، والْعَافِيَةُ: هِيَ كلُّ مَنْ يطلبُ الرزقَ مِنْ إنسانٍ أَوْ بَهيمةٍ أَوْ طائرٍ.

أما ما يحدث الآن من اعتداء على الأرض الزراعية بالبناء عليها أو تجريفها فهو إهدار للثروة الزراعية ، وتضييع لمورد من أهم موارد الإنتاج، وإهلاك لأقوات العباد ، ذلك لأنه يؤدي إلى تناقص الرقعة الزراعية الخصبة وإضعافها ؛ مما يضطرنا لاستيراد السلع ألأساسية كالقمح مثلا ، وكذلك يؤدي إلى الإسهام بنصيب كبير في تلوث البيئة ، فمن المعلوم أن المساحاتِ الخضراءَ لها دور مهم في عملية تنقية الهواء من غاز ثاني أكسيد الكربون ، والذي قد يتسبب في العديد من الأمراض ، ومن ثَمَّ فإن أي اعتداء بأي صورة من الصور على المساحات المزروعة والحدائق المنتشرة يؤدي بنا إلى أمرين خطيرين يهددان أمن وسلامة المجتمع صحيًّا ألا وهما قلة الغذاء وتلوث الهواء.

فالأرض نعمة من نعم الله (عز وجل) جعل الله فيها أقوات العباد ، فوجب علينا أن نشكره عليها ، وأن نحسن استعمالها فيما خلقت له ، يقول

تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ} [يس٣٣ – ٣٥].

وحرصًا من الإسلام على وقاية البيئة وسلامتها ، فقد حذرنا من إفساد البيئة بما نقترفه في حقها من ممارسات غير سليمة في قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١].

ففي الوقت الذي ينبغي أن نجد فيه من ينظف ويجمل الشوارع والمجتمع ، نجد من يتعمد أن يلقي بالقمامة وبمخلفات الحفر والبناء في الطرقات العامة ، دون مراعاة لحرمة أو حقوق الطريق ، فيجب الحفاظ على الطريق العام الذي يمر الناس فيه ، وعلى نظافته وألاَّ يلقي الناس فيه أذي ، وإنما ينبغي عليهم أن يمنعوا الأذى ، ففي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ" ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا فَقَالَ: "إِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ" ، قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ "غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلاَمِ ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ" (متفق عليه).

ولابد من أن يكون الإنسان على وعي تام بقضايا البيئة وأهمية الحفاظ عليها وخطورة تلوثها الذي يعود بالضرر عليه وعلى الآخرين، ولابد من أن نربي أولادنا في المدارس والنوادي وجميع صروح التعليم منذ نعومة أظفارهم على نظافة أماكنهم وتجميلها حتى يتعودوا ذلك ، فالحفاظ على

البيئة أمر مكتسب نتعلمه ونُرَبَّى عليه ، ولا بد من أن يكون الكبار قدوة حسنة للصغار ، فماذا ننتظر من طفل يرى والديه أو أحدهما يرمي بالقمامة من شرفة المنزل في طريق الناس أو على سطح جاره؟.

وماذا نتوقع من طفل يرى الكبار يبصقون في الطريق ، أو يكتبون على الجدران أو غير ذلك من جرائم التلوث السمعي والبصري واللفظي التي نراها يوميًا؟! ، لا شك أنه سينشأ على هذا السلوك ، فالولد صنعة أبيه كما يقولون ؛ لذا فلا معدى عن إعادة البناء ، فإن شريعة الإسلام ترفض مثل هذه السلوكيات ، وهذه الممارسات ؛ لمجافاتها للطبائع السليمة والفطر القويمة.

ومن توجيهات الإسلام في الحفاظ على البيئة حماية الثروة المائية: فلما كان الماء عصب الحياة ولا يمكن أن تقوم حياة بدونه ، كما أخبرنا ربنا في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء:٣٠] بحرص الإسلام على وقاية مصادره من التلوث حماية لصحة الإنسان ، ووقاية للمجتمع عامة ؛ إذ حماية مصدر المياه وينابيعه هي حماية للمجتمع كافة ، كما نهى عن التعدي عليه وتلويثه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ" (سنن ابن ماجه) ، ذلك ؛ لأن البول في الماء الراكد الذي لا يتحرك يُلوِّثُ الماء ويفسده ، ويصبح مصدر عدوى ومرض وأذى لمن يستعمله ، وفي مقدمتهم هذا الذي ألقى بالأذى فيه ، فقد أكد الأطباء أن البول والغائط من أخطر مسببات التلوث ونقل الأمراض الفتاكة.

وليس النهي مقصورًا على التبول في الماء الراكد فحسب ، بل إن النهي يشمل التبول في الماء الجاري ، فعَنْ جَابِرٍ قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الْجَارِي" (المعجم الأوسط للطبراني) ؛ لأن فيه تلويثًا للماء وإفسادًا له ، وهذا ما نراه ونلحظه في أيامنا هذه من بعض السلوكيات الخاطئة التي ترتكب في حق نهر النيل العظيم – شريان الحياة ومتنفسها – من اعتداء عليه بالرَّدم ، والاستخدام الجائر ، وتلويث مياهه بإلقاء النجاسات والملوثات ، وصرف مخلفات المصانع ، التي تتسبب في نقل كثير من الأمراض والأوبئة الضارة بصحة الفرد والمجتمع.

ولو نطق النيل لشكا حاله من التعديات والمخالفات التي وقعت عليه من بني الإنسان ظلمًا وعدوانًا ، فلقد تعرض نهر النيل والمجاري المائية لمخالفات على مستوى مصر ، بلغت ١٣٢ ألفًا و٤٣٨ مخالفة ما بين أعمال ردم ومبانٍ وأسوار وزراعة ، [حسب إحصائية وزارة الري كما ذكرت صحيفة الجمهورية في عددها الصادر في ١٥ فبراير ٢٠١٤م] ، ومن ثم فإن إفساد المياه أو الأماكن التي يرتادها الناس بإلقاء الفضلات فيها ؛ إفساد للبيئة التي أمرنا الشرع الحنيف بالمحافظة عليها ، فينبغي العناية بالبيئة والبعد عن كل ما يلوثها ويفسد الفطرة التي فطر الله الكون عليها.

ومن أهم وسائل الحفاظ على المياه: التعاون في منع الاعتداء عليها أو إهدارها ، فإن الماء نعمة ينبغي أن نحافظ عليها وأن نرشد استخدامها ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.. (وذكر منهم): رَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ

فَيَقُولُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ" (صحيح البخاري).

اللهم ارزقنا قلوبا تقية ، وأيديًا نقية ، وألسنة ندية ، واهد إلى الرشاد من ضل طريق الرشاد.

❊ ❊ ❊

النظافة والجمالُ من سماتِ المجتمعِ المتحضرِ

الحمدُ للهِ ربّ العالمينَ ، القائلِ فِي كتابهِ الكريمِ: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [١-٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ القائلَ فِي حديثهِ الشريفِ: "إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ فَمَضْمَضَ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ أَنْفِهِ ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ وَجْهِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ يَدَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ يَدَيْهِ ، فَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أُذُنَيْهِ ، وَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ كَانَ مَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَصَلاَتُهُ نَافِلَةً لَهُ" (مسند أحمد) ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبعد:

فِممَا لا شكَ فيهِ أنَّ النظَافةَ من أمورِ الفطرةِ التِي جُبلتْ عليهَا الطباعُ السليمةُ ، وسمةٌ من سماتِ الأممِ والمجتمعاتِ المُتحضرةِ ، ودليلُ النُبلِ والمُروءَةِ الآدميةِ ، كيفَ لاَ؟ والدِّينُ والحضارةُ والرقِيُّ والإنسانيةُ كلُّهَا تدعُو إلى نظافةِ الجسدِ والمكانِ والثوبِ والمنتدياتِ العامةِ ، لانعكاسِ ذلكَ على الصحةِ العامةِ من جهةٍ ، وعلى سعادةِ الإنسانيةِ وبثِّ رُوحِ الجَمالِ وَالبَهاءِ من جهةٍ أُخْرَى ، وَلاَ خلافَ أنَّ البيئةَ النظيفةَ دليلٌ على رُقِيِّ مَن يعيشُ بهَا.

وَلقدْ اهتمَّ الإسلامُ بأمرِ النّظافةِ اهتمامًا بالغًا ، فأمرَ أتبَاعَهُ بِهَا ، وَحثَّهمْ عليهَا ، وَرغّبهُمْ فِيهَا ، وَجَعَلهَا سَبيلاً وَطَرِيقًا مُوصّلاً إلى محبةِ اللهِ (عَزّ وَجَلَّ) ، وامتدحَ الحَقُّ (سُبحانَهُ وتَعالى) أهلَ مسجدِ قُباءٍ لحِرصِهمْ على الطَّهارةِ وَالنّظَافةِ ، فقالَ جلَّ شَأنُه: {لمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة: ١٠٨] ، وَبيَّنَ نَبِيُّنَا (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) أنَّ الطُّهُورَ نصفُ الإيمانِ ، أيْ: نصفُ الدينِ ، فقالَ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم) ، وقالَ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي ، أَوْ عَلَى النَّاسِ لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ) (صحيح البخارى) ، وقالَ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ) (صحيح البخارى) ؛ وذلكَ حرصًا منهُ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) على طيبِ رائحةِ الفَمِ وعدمِ إيذاءِ الإنسانِ لأخيهِ الإنسانِ بأيِّ رائحةٍ كريهةٍ من شأنِهَا أن تنفِّرَ الناسَ مِنْهُ.

ولمْ يُعنَ الإسلامُ بمجردِ النظافةِ لذاتِهَا ، بلْ جعلَ الطهَارةَ والنظافةَ الكاملةَ للجسدِ والثّوبِ والمكانِ شرطًا لقَبُولِ أهَمِّ عِبادةٍ فِي حياةِ المُسلمِ ، وَهِيَ الصّلاةُ ، فشَرعَ الوُضوءَ للصّلاةِ ، وأوجَبَ الغُسلَ من الجنابةِ ، وأمرَنَا أن نُطَهِّرَ ونُنَظِّفَ أجسادَنا وثيابَنَا ، فقالَ سُبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا} [المائدة: ٦] ، وقالَ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَقْبَلُ صَلاَةً بِغَيْرِ طُهُورٍ ، وَلاَ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ) (سنن النسائى) ، كمَا حثَّ نبيُّنَا (صلى اللهُ عَلَيهِ

وَسَلَّمَ) على الكمَالِ فِي النظافةِ والطَّهارةِ ، فَعدَّ إسباغَ الوضوءِ ممَّا يرفعُ اللهُ بهِ الدرجَاتِ ، ويَحُطُّ بِه السيئَاتِ ، فَقَالَ (صلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ): (أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ) (صحيح مسلم).

لقدْ اتسمَ الدينُ الإسلامِيُّ بالحرْصِ على هَذَا السُّلُوكِ الحَضَارِيِّ واعتبارهِ جُزءًا لا يتجَزّأُ من تعاليمهِ ، فكانَ (صلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ) يأمرُ أصحابَهُ بالمحافظةِ عَلى الوضوءِ والطهارةِ ، ويُبيِّنُ لهُم أنّ المداومةَ على ذلكَ صفةٌ من صفاتِ المؤمنينَ ، حيثُ قالَ (صلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ): (اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَةُ ، وَلاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَ مُؤْمِنٌ) (سنن ابن ماجه) ، كمَا حَثَّنا النبيُّ (صلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ) على الاغتسالِ فِي مواطنَ عديدةٍ ، وبخاصةٍ عندَ الجُمعِ والجَمَاعاتِ ، كغُسلِ الجُمعةِ ، وغُسلِ العيدينِ ، والغُسلِ لدخولِ مكةَ ، تأكيدًا علَى نظافةِ الجسدِ وطهارتهِ طهارةً تامةً ، ودليلاً على أنَّ الإسلامَ دينٌ قَائمٌ على النّظَافةِ والطَّهارةِ.

ولأنَّ النّظَافةَ عُنوانٌ للمُسلِمِ فِي بَدنِهِ ، وَثَوبِهِ ، وَحتَّى فِي مكانِ نومهِ ، فقدْ حَثَّ الإسلامُ عَلى تنظيفِ مكانِ النومِ ، والتأكدِ من خُلوِّهِ ممَّا يمكنُ أن يسببَ الأذَى للإنسانِ ، حيثُ يقولُ نبينَا (صلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ): (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ ، فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ ، فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ ، وَلْيُسَمِّ اللهَ ، فَإِنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ، وَلْيَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبِّى ، بِكَ وَضَعْتُ

جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ) (متفق عليه).

وَكمَا عُنيَ الإسلامُ بالنظافةِ الخاصةِ – أوِ الشخصيةِ – عُنِيَ كذلكَ بالنظافةِ العامةِ ، فقالَ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (طَهِّرُوا أَفْنِيَتَكُمْ) (المعجم الأوسط) ، والأفنيةُ تشملُ فناءَ البيتِ ، والمدرسةِ والمصنعِ ، والمنتدياتِ ، والمتَنزهاتِ العَامةِ ، كمَا تتسعُ لتشملَ الطُّرقَ والميادينَ وغيرَهَا ، وقدْ عدَّ نبيُّنَا (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) رفعَ الأذَى عنِ الطريقِ من شُعبِ الإيمانِ ، فقالَ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" (صحيح مسلم) ، وقالَ (صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) (متفق عليه) ، كمَا أمرَ الشرعُ الحنيفُ بَنظَافَةِ الطّريقِ وَالأمَاكنِ العامَّةِ مِن كُلِّ دَنَسٍ أَوْ أذَى ، بَلْ جعَل للطّريقِ حقًّا ينبغي أن تُؤَدى إليهَا ، وعدَّ إيذاءَ الناس في طرقاتهم من مستجلِبات اللعن.

وكانَ من هديهِ (صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) تكريمُ من يقومُ بخدمةِ المجتمعِ – وَلا سيمَا فِي مجالِ النظَافةِ – فقدْ كانتْ امرأةٌ تَقمُّ الْمسجدَ عَلى عهدِ النّبِيِّ (صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) ، ففقدَهَا رسولُ اللهِ (صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) ، فسألَ عنهَا ، فقالُوا: مَاتتْ ، فقالَ (صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (أَفَلاَ كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي) ، فَدَلُّوهُ على قَبْرِهَا ، فصلى عليهَا النبيُّ (صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) (متفق عليه) إكرامًا لهَا ، ولِمَا كانتْ تقومُ بهِ من نظافةِ المسجدِ المُباركِ.

إنَّ مفهومَ النظافةِ والطهارةِ فِي الإِسلامِ ليسَ قَاصِرًا فَقَطْ عَلى نظافةِ أوِ طهارةِ الظاهرِ ، بلْ يتعدى إلى مَعَنىً آخرَ وهُوَ طهارةُ الباطنِ ، فكَمَا كَانَ الإِسْلامُ حَرِيصًا على الطَّهارةِ الحِسّيّةِ بكُلِّ صُورِهَا، كانَ حَرِيصًا على الطهارةِ المعنويةِ بكلِّ معانيهَا ، كطهارةِ العقيدةِ مِن كُلّ الخُرافاتِ التِي تلصقُ بهَا ، وطهارةِ الأخلاقِ منَ الرذائلِ والمنكراتِ ، وطهارةِ اللسانِ من كُلِّ القبائحِ والآثامِ ، وطهارةِ الفكرِ مِن التطرفِ والانحرافِ ، وكذلكَ طهارةِ القلوبِ مِن الغلِّ والحقدِ والحسدِ والكراهيةِ ؛ لأنَّ كلَّ هذهِ الصفاتِ لا تليقُ بالمسلمِ الذِي يريدُ النجاةَ فِي دُنياهُ وآخرتهِ ، فيجبُ على العبدِ العملُ على طهارةِ ظاهرهِ ، وإصلاحِ باطِنهِ ، فينتفعُ فِي دينهِ ودنياهُ وآخرتهِ.

إنَّ دينَنَا الحنيفَ يدعُو إلى أكمَل وأجمَل مظَاهِرِ النظَافَةِ والطَّهَارَةِ والجَمَالِ الظاهرةِ والباطنةِ ، وينْهَى عن كُلِّ ألوانِ القُبحِ وَالأذَى الحِسِّي والمَعنويِّ ، مِمَّا يتطَلَبُ أن نكونَ على قدرِ المسئُوليةِ فِي الحِفاظِ على موارِدِنا المائيةِ سواءٌ أكانتْ نهرًا ، أمْ بحرًا ، أمْ بئرًا ، أمْ أيَّ مصدرٍ آخرَ من مصادِرِ المياهِ ، حتى لا نُؤذِيَ أنفُسَنا أو غيرَنَا ، فإن لَّمْ نَقُمْ بالإسهامِ في نظافةِ بيئَتِنا ومُجْتَمَعِنَا ومُحيطِنَا ، فعَلى أقلِّ تقديرٍ يجبُ أن لا نكونَ سببًا فِي أذى الناسِ ، أو أذى أنفُسِنَا بإلقاءِ الفضلاتِ ، أو المُخَلَّفَاتِ في الطُّرُقِ ، أو الأماكنِ العامَّةِ ، فدينُنَا دينُ النَّظافَةِ ، دينُ الطَّهارَةِ ، دينُ الجمَالِ ، فَعلى كُلٍّ منَّا أنْ يَعْمَلَ عَلَى نَظَافَةِ جَسَدِهِ ، وثوبِهِ ، ومكانِهِ ، ومدْرَسَتِهِ ، ومكانِ عملِهِ ، وأن يُسْهِمَ قَدْرَ استِطَاعَتِهِ في نَظَافَةِ مجْتَمَعِهِ ، حتى يَكُونَ مُجتَمَعًا راقِيًا نَظِيفًا مُتَحَضِّرًا ، يُتَرجِمُ إيمَانَهُ بدِينِهِ وقِيَمِهِ إلى سُلوكٍ عَمَليٍّ

وواقعٍ ملموس، وأن يَبْدأَ كلُّ واحدٍ مِنَّا بنفْسِهِ ، ولْيَكُنْ شِعَارُنَا : " معًا لمُجْتَمَعٍ نَظيفٍ مُتَحَضِّرٍ ".

أقولُ قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لاَ إلهِ إلا اللهُ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنّ سيدنَا ونبينَا محمدًا عبدُه ورسوُله ، اللهم صلِّ وسلمْ وباركْ عليهِ، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين ، ومن تبعهمْ بإحسانٍ إلى يوم الدينِ.

إخوة الإسلام:

إنَّ الدينَ الإسلاميَّ دينُ الحضارةِ والرُّقِيِّ ، دينُ الكمالِ والجمالِ، دينُ البهجةِ والسعادةِ ، وكلُّ نصُوصهِ وتوجيهاتِه وطرقِه ومسالكِه تؤَدِّي إلى ذلكَ ، على أنَّ الجمالَ نوعَان: حسِّيٌّ ، ومعنويٌّ ؛ أمَّا الحِسِّيُّ فهُوَ كلُّ مَا يثيرُ البهجةَ ويؤَدِي إلى انشراحِ النفسِ ، حيثُ يقولُ الحقُّ سبحانَهُ: {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}[النحل: ٥ ، ٦] ، ويقولُ جلَّ شأنُه: {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [ق: ٧] ، ويقول سبحانه: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} (النمل: ٦٠) ، ويقولُ تعَالى: {أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية:١٧-٢٠] ، ويقولُ سبحَانهُ فِي شأنِ السماوَات العُلا: {وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} [الحجر: ١٦] ، {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [فصلت: ١٢].

وأمَّا الجَمَالُ المَعْنَوِيُّ ؛ فهُوَ جَمَالُ الجَوْهَرِ ، جَمَالُ القُلُوبِ ، حَيْثُ يقولُ نبينَا (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) (صحيح مسلم) ، فَالجَمَالُ الحقِيقِيُّ لاَ يقفُ عندَ حُدودِ الشَّكلِ ؛ إنَّمَا يتجاوزهُ إلى جمالِ الجَوهرِ ، وجمالِ الأخلاقِ ، وجمالِ الطِّبَاعِ.

فيجبُ عَلينَا جَمِيعًا أن نَتجَمَّلَ بِجَمَالِ الإِسْلامِ فِي سَمْتِنَا ، وفِي مظهرِنَا، وفِي بيئَتِنَا ، وفِي مدَارِسنَا ، وفِي معَاهِدنَا ، وفِي حدَائقنَا ، وفِي مُتَنَزّهاتنَا ، وفِي أمَاكننَا العامّةِ ، وألاَ نُشَوِّهَ معالمَ الجمالِ والبهجةِ بمَا ينفرُ الطبعَ السليمَ والذوقَ الراقِي ، حيثُ يقولُ نبينَا (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ) (صحيح مسلم) ، وعن جابرِ بنِ عبدِ الله (رضِيَ اللهُ عنهُمَا) قالَ: أتانَا رسولُ اللهِ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) فرأىَ رجُلاً شعِثًا قدْ تفرَّقَ شَعرُهُ، فقالَ: (أمَا كانَ هذَا يَجدُ مَا يُسَكِّنُ به شَعْرَهَ؟) (سنن أبى داود) ، وعندمَا قَدِم النبيُّ (صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ) من سَفرٍ ومعهُ أصحابُه ، قالَ لهُم: (إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِى النَّاسِ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلاَ التَّفَحُّشَ) (سنن أبى داود).

فمَا أجملَ أن يسودَ الجمالُ بنوعيهِ بينَ الناسِ ؛ فترى أعيُنُهُم جمَالاً حِسِّيًّا منبعثًا من نظافةٍ خارجيةٍ يقومُ بهَا الناسُ فِي أحوالهِم وملابِسهمْ وطرقهمْ وحياتهمْ كلِّهَا ، وجمالاً معنويًّا يَرونَهُ فِي المَودةِ والمحبةِ والإيثارِ ، وتقديمِ يدِ العونِ للغيرِ وحسنِ الظنِّ بالناسِ ، وعدمِ الخوضِ فِي الأعراضِ، وفِي حسنِ التعاملِ مع النَّاسِ جميعًا.

اللهُمّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ ، وأَعْمَالَنَا مِنَ الرِّيَاءِ ، وألسِنَتَنَا منَ الكَذِبِ ، وأَعْيُنَنَا منَ الخِيَانَةِ ، وارزقنَا الصِّدقَ فِي القولِ والعملِ ، وأدخلنَا برحمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصّالحينَ.

* * *

الحفاظ على المياه وترشيد استخدامها

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، نهانا أن نكون في طعامنا أو في شرابنا من المسرفين فقال : {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف : ٣١] ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فمما لاشك فيه أن الماء عصب الحياة في كافة مناحيها ، حيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه ، مما يتطلب خلق الوعي عند الجميع بأهميته وترشيد استهلاكه ، والحفاظ عليه ، فهو ضرورة في الحياة ، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ}[الأنبياء: ٣٠].

إن واجبنا نحو الماء يتمثل في النقاط التالية :

المحافظة على الماء ومصادره : فهو ثروة غالية نفيسة ، ولكن الناس لا يقدرونها حق قدرها ؛ لأن الله تعالى هيأها لكل المخلوقات مجانًا في الأنهار والبحار والأمطار ، كما قال تعالى: {وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ}[إبراهيم: ٣٢] ، وقال تعالى: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا}[النازعات:٣٠ ، ٣١] .

ومن فضل الله تعالى على عباده أن جعل الماء أرخص الأشياء ؛ لأنه أوجده وهيأه للناس بوفرة ، وهذا ما جعل كثيرًا من الناس لا يحسون ولا يقدرون هذه النعمة العظيمة إلا إذا فقدوها أو حرموا منها ولو نسبيًا ،

ساعتها يدرك الإنسان قدر الماء وفائدته ، وقد قيل قديمًا: "لا يُعرَف الشيء إلا بفقده".

ومما ينبغي أن يُعلَم: أن الماء خاصة لا يقبل الزيادة مثل الثروة الزراعية أو الحيوانية ؛ لأن الله تعالى يقول: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}[المؤمنون : ١٨].

وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير الماء ، والماء محدود فالواجب على البشر أن يحافظوا على هذه الثروة النفيسة ، ولا يسيئوا إليها بالتلوث والإهدار في غير وجهها الصحيح أو الإسراف في الاستهلاك لغير حاجة أو مصلحة لها اعتبارها عند العقلاء من الناس.

ولقد نبه علماء الجيولوجيا وغيرهم على أن الماء من أهم مكونات البيئة ، وأن الحاجة إليه عامة ، وأن البشرية مقبلة على أزمة في المياه توشك أن تكون هذه الأزمة من أسباب الحروب بين الناس ، وأن الماء في المستقبل سيكون أهم وأغلى من البترول ، وربما ظهرت مؤشرات لهذه الأزمة نلحظها اليوم.

وإذا أمعنا النظر في تعاليم الإسلام وأحكامه نجد أنه عنى عناية بالغة بالحفاظ على الثروة المائية ، وذلك من خلال عدة توجيهات ملزمة للناس، تتناول الجوانب الأخلاقية ، والجوانب القانونية ، والتي نوضحها في الأمور الآتية:

الاستخدام الأمثل للماء:

ينبغي على الإنسان أن يستخدم الماء الاستخدام الأمثل باعتبار أن الماء من أعظم النعم التي أنعم الله بها عليه وعلى الكائنات الحية من حوله ، ويتمثل الاستخدام الأمثل للماء في الالتزام بالآتي:

المحافظة على الماء نقيا طاهرًا:

وتكون المحافظة على طهارة الماء ونقاوته بعدم تلوثه بأي ملوث من الملوثات التي تخرجه عن خصائصه وطهوريته التي أوجده الله عليها ، وتجعل الماء خبيثًا غير طيب ، ضارًّا غير نافع ، وأن يستخدم الماء في الأغراض النافعة ، لا في الأغراض الضارة ، وآفة الحضارة الحديثة أنها لم تراعِ ذلك في استخدام الماء ، فكان تلوث الماء في الأنهار والبحار وغيرها سببًا في موت كثير من الكائنات الحية في الماء أو إصابتها بما يضرها ويضر الإنسان معها ، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ}[الملك: ٣٠] .

عدم الإسراف في الماء:

لقد نهى الإسلام عن الإسراف فى الماء كما نهى عن الإسراف في كل شيء ، فقد روى أكثر من صحابي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَسْأَلُهُ عَنِ الْوُضُوءِ، فَأَرَاهُ الْوُضُوءَ ثَلاَثًا ثَلاَثًا ، ثُمَّ قَالَ: "هَكَذَا الْوُضُوءُ ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ" (سنن النسائي) ، وفي رواية أخرى: "فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ" (سنن أبي دواود).

وروى ابن ماجه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى رجلاً يتوضأ فقال: "لاَ تُسْرِفْ ، لاَ تُسْرِفْ" (سنن ابن ماجه) ، ويدخل في إطار الإسراف كل ما يقع تحت يدي الإنسان من الأشياء والآلات والأدوات والمساكن ، فيجب عليه أن يحافظ عليها وألا يفسدها أو يعتدي عليها بالإتلاف أو الإهمال أو إضاعتها ؛ فتضيع بذلك ثروة على المجتمع كله.

العناية بالمصادر المائية:

من التوجيهات الإسلامية النهى عن تلويث الماء بأي سبب من الأسباب ، فالماء أساس الحياة كما قال تعالى: {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}[البقرة: ١٦٤] ، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ}[الأنعام: ٩٩].

ومن الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى العناية بالمصادر المائية ، ما ورد عن معاذ بن جبل أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَ: الْبَرَازَ فِى الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ" (سنن أبي داود) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ (أي الراكد) ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ" (متفق عليه).

التوعية بخطر تلوث المصادر المائية :

خلق الله الأرض وما عليها من أنهار وبحار نظيفة لا تحمل أي نوع من أنواع التلوث ، متوازنة لا خلل فيها ، صالحة لحياة الإنسان وقيامه بمهمته تلك هي فطرة الله التي فطر الكون والأشياء عليها ، قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا}[الفرقان: ٤٨] ، و قال تعالى: {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل:٨٨] ، فالماء فطره الله من غير خبث ولا تلوث ولا خلل فى التكوين صالح لقضاء احتياجات المخلوقات ، إنما يأتي الخلل والتلوث والخبث بما يفعله الإنسان من إساءة في استخدام هذه النعمة واستعمالها ، فالمسئول عن تلوث الماء ومصادره إذًا هو الإنسان الذي استجاب لظلمه وجهله قال تعالى:{إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً}[الأحزاب: ٧٢].

ولم يتبع الإنسان وحي ربه الذي هداه السبيل وأضاء له الطريق وأرشده إلى كل خير وحفظه من كل شر ، قال تعالى: {وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا} [الجن: ١٦] ، فأصل المياه العذبة من الأمطار التي تتحول إلى أنهار وبحيرات ، بالإضافة إلى الأنهار المتجمدة وجبال الجليد الموجودة عند القطبين، وكذلك الآبار والعيون فى جوف الأرض ؛ فالأنهار هي المورد الرئيس للمياه العذبة حيث يعتمد كثير من البشر عليها فى أغراض الزراعة والتصنيع ومياه الشرب والنظافة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

وإن من الأمور الواجبة علينا نحو نعمة الماء: **تنمية الموارد المائية**:

فعلينا فى سبيل تنمية مواردنا المائية أن نسلك طريقين:

الطريق الأول: إدراك الخطر المترتب على استنزاف الموارد المائية: إن استنزاف الموارد المائية يعد مشكلة من مشاكلنا العصرية بحيث أصبح الإنسان فى العالم مهدَّدًا بأنه قد يأتي يوم – ليس ببعيد – يجد أن الماء لا يكفيه ، وذلك ليس لقلة الماء ، فإن الله تعالى خلق الماء كافيا لجميع خلقه ، ولكن ظلم الإنسان لنفسه ولغيره وكفرانه بنعمة الماء هما اللذان أديا به إلى هذه العاقبة الوخيمة ، قال تعالى: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ

تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[إبراهيم:٣٤] ، فاستنزاف الماء نقيض المحافظة عليه ، فلنكن على وعي من هذا كله ، فإن ذلك إنذار بالخطر الذي بات يهدد البشرية كلها.

ويمكننا أن نشير إلى بعض صور استنزاف الموارد المائية في حياتنا بالتالي:

١- استخدام المياه في غير ما خلقت له: فالماء خلقه الله تعالى ليحيا به الإنسان ويسقيه الحيوان ، وليكون وسيلة للطهارة والنظافة ، ولتعيش به الأحياء التي يحتاج إليها الإنسان في مأكله ، كما قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}[الفرقان:٤٨،٤٩] ، وقوله تعالى: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ}[الأنفال:١١] ؛ فلا يجوز للإنسان أن يضيع الماء في غير ما خلقه الله له ، وذلك بإهداره في غير محله.

٢- الإساءة في استخدام المياه: ومن مظاهر الإساءة في استخدام الماء وسوء استعماله عدم إصلاح صنابير المياه في المنازل والمحلات والمصالح العامة والخاصة ، وكذلك غسل السيارات ورش الشوارع بمياه الشرب ، والإساءة في ري الأراضي الزراعية والحدائق العامة ، وذلك بترك الماء يغمر الأرض الزراعية والحدائق لغير حاجة.

الطريق الثاني: العلم بتحذير الإسلام من الإسراف: لمَّا كان الإسراف في الماء مظهرًا من مظاهر استنزاف الموارد المائية فإن الإسلام نهى عن الإسراف في عديد من الآيات والأحاديث النبوية ، وحثنا على القصد والاعتدال ، وبين أن التبذير مدخل من مداخل الإسراف ، وحسبنا في

ذم المسرفين أن الله تعالى لا يحبهم كما لا يحب الظالمين والمفسدين ، قال تعالى: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١] ، وكما نهى عن الإسراف نهى عن التبذير ، قال تعالى: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٧].

والفرق بين الإسراف والتبذير: أن الإسراف هو تجاوز الحد في استهلاك الحلال المباح ، أما التبذير فهو استغلال الحلال المباح فيما حرم الله وإن قلَّ ، فمن تجاوز الحد في استخدام الماء ولو في النظافة والطهارة الشرعية فقد أسرف وأساء ، ففي الحديث أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "كُلُوا وَاشْرَبُوا والبسوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ" (صحيح البخاري) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) مثالاً في الاعتدال في استخدام الماء ، وقد نهانا عن الإسراف فيه ، ففي الحديث أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مرَّ بسعد ابن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال: "مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟" ، قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟ ، قَالَ: "نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ" (مسند أحمد).

أهمية العلاقات الدولية في الحفاظ على الموارد المائية:

إن للعلاقات الدولية دورًا لا ينبغي إغفاله في الحفاظ على الموارد المائية ، ولذلك تعمل مصر على تطوير علاقاتها الدبلوماسية مع دول حوض النيل ، وتفعيل دور المؤسسات الدينية من (الأزهر ، والأوقاف، والكنيسة) للمشاركة في قضية مياه النيل ، وتكثيف تواجدها المعنوي في دول حوض النيل ، من خلال البعثات التعليمية ، والدينية ، والثقافية ، بما يضمن تفهم موقف مصر في هذا الخصوص .

وعلى القوى العالمية بالتنسيق مع مجموعة الدول المشترِكة في نهر واحد أن توجِد سبلاً للتعاون بين حكومات هذه الدول من خلال إشراف أممي يؤسس للأمن المائي والتقسيم العادل للمياه محاطًا بضمانات واتفاقيات دولية تحقق إدارة أفضل لموارد المياه المشتركة ، وتقلل الأضرار إلى الحد الأدنى بعيدًا عن ادعاءات الحق المطلق لدول المنبع على حساب دول المصب .

اللهم بارك لنا في أقواتنا وأرزاقنا ، وقنا يا ربنا فجاءة نقمتك وتحول عافيتك ، وجميع سخطك ، إنك سميع قريب ، ولمن دعاك مجيب .

* * *

فضل الشهادة وكرامة الشهيد

الحمد لله رب العالمين ، الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله واحد بر كريم ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن بلوغَ الأهداف الكبرى ونيلَ الغايات العظمى في هذه الحياة يستلزم تضحيات جِسامًا مكافِئة لها ، ولا ريب أن سمو الأهداف وشرف المقاصد ونبل الغايات يقتضي سمو التضحيات وشرفها ، ورقي منازلها، ويأتي في الذروة منها التضحية بالنفس ، وبذل الروح – التي هي أعز ما يملك – رخيصة في سبيل الله نصرة لدينه ، ورغبة في عزة البلاد وكرامة العباد.

ولا مراء في أن الشهيد أرفع الناس درجة بعد الأنبياء والصديقين ، فالشهادة اصطفاء من الله واجتباء ، وهي منحة يمنحها الله لأحب خلقه إليه بعد الأنبياء والصديقين ، اقرءوا في ذلك قول الله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}[آل عمران: ١٤٠] ، وقول الله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[النساء:٦٩] ، وكيف لا؟ وقد استعلى الشهيد على شهواته ، وانتصر على رغباته ، واسترخص الحياة في نيل شرف الشهادة في سبيل الله؟

ونحن إذ نُحيي يوم الشهيد إنما نعني شهيد الدارين الدنيا والآخرة ، ونذكر أنفسنا والجميع بهؤلاء الذين ارتقوا بأرواحهم إلى الله (عز وجل) وفازوا برضوانه ، ونستنهض هَمما تثاقلت إلى الأرض ، ورضيت بالحياة الدنيا من الآخرة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَ قَلِيلٌ}[التوبة: ٣٨].

ونغبط أقواما على ما أكرمهم الله به من نعيم أيقنوا بصدق وعد الله لهم به فنالوه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ}[البقرة:١٥٤] ، ونُرَجِّي أنفسنا بشهادة في سبيله ، وبجزاء كريم أكرم الله به الشهداء ، ولم لا؟ وقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ" (صحيح مسلم).

إن الخوف من ألم القتل وحب الحياة ، والخشية من الموت هي أكثر ما يقعد الناس عن خوض غمار المعارك فداء للدين وللوطن ، ومن أجل ذلك أكرم الله الشهيد بأعظم الكرامات ومنها:

أولا: أن صفقته مع الله مضمونة الربح بمجرد الوفاء منه ببذل النفس ، والوعد الحق من الله (عز وجل) جزاء ذلك هو الجنة ، يقول سبحانه: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة: ١١١].

إذًا فالله هو المشتري ، والثمن الجنة ، لا ، ليست جنة واحدة ، بل جنان ، فقد روي أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَتْ: "يَا نَبِيَّ اللهِ ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ – وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ (أي لا يعرف له رامٍ) – فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ؟ ، قال:"يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى" (صحيح البخاري) .

ثانيا: ما أخبر الله تعالى به من أن الشهداء أحياءٌ ، وليسو أمواتا ، يقول تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] .

نعم إنهم أحياء وليسوا أمواتا ، ومن ثم فهم فرحون بما أعطاهم الله (عز وجل) حيث جنة الخلد التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويستبشرون بإخوانهم القادمين عليهم ، وذلك لحبهم إنزالهم هذه المنزلة التي أنزلهم الله إياها فلا حزن ولا غم ولا هم ، بل استبشار وفضل ونعيم ، والله إنها للحياة بحق وإنه للرزق بحق.

ثالثا: تخفيف الله لألم الشهيد عند القتل إلى الحد الذي قال عنه (صلى الله عليه وسلم) : " مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ " (سنن الترمذي) ، فلِمَ الخَوْفُ إذًا؟.

رابعا: ضمان الله للشهيد إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة ، أو الشهادة والجنة ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَ إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ

أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ" (متفق عليه) ، إنهم أصحاب الأجر الوفير ، والنور التام ، يقول تعالى: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} [الحديد: ١٩].

خامسا: تميزهم يوم القيامة بهيئة خاصة وبريح طيبة تنبعث من أجسادهم تتطاول لها الأعناق ، وتنحني لهل الهامات إجلالاً واحترامًا يقول (صلى الله عليه وسلم): "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ – إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ" (متفق عليه).

سادسا: النجاة من فتنة القبر (أي من سؤال الملكين) : فقد روي أن رجلا قال: يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: " كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةٌ " (سنن النسائي) .

سابعا : يُشَرف الله الشهداء يوم الحساب بأن يكونوا أول من يقضي بينهم مع النبيين يقول تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الزمر: ٦٩].

ثامنا: إكرام الله للشهيد بمِنَح عظيمة وبشفاعة مخصوصة له في أهل بيته ، يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مبشرًا الشهيد : " لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ" (سنن الترمذي).

لأجل هذه الكرامة الربانية للشهداء ، ولعظم ما أعد الله لهم من الجزاء رأينا ما يلي :

رأينا النبي (صلى الله عليه وسلم) يتمنى أن لا يتخلف عن سرية تغزو في سبيل الله ، وما منعه من الخروج في كل سرية إلا خشية أن يشق على أصحابه ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يتمنى أن يُقتَل شهيدًا في سبيل الله مرات متعددة ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ" (متفق عليه) .

ورأينا الشهيد وحده من أهل الجنة هو من يتمنى أن يرجع إلى الدنيا لينال شرف وكرامة القتل في سبيل الله عدة مرات ، يقول: (صلى الله عليه وسلم) : "مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرُ الشَّهِيدِ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ " (متفق عليه).

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

إننا بعد أن ذكرنا كرامات الشهداء عند الله (عز وجل) نجد سؤالا يطرح نفسه ، حتى لا تختلط الأمور خاصة في عصرنا الراهن ، والسؤال هو : من

هو الشهيد؟ إن النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) لم يترك هذا الأمر دون بيان فأبان لنا أن :

الشهيد هو: من اعتنق الحق وأخلص له وضحى في سبيله وبذل دمه ليروي شجرة الحق به ، وفي شأنه قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ" (متفق عليه).

الشهيد هو: من يأبى الدنيَّة ويرفض المذلة والهوان ، ويقاوم من يحاول أن يستولى على ماله أو متاعه ، وقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَال: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: "فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ" قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قال: "قَاتِلْهُ" قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: "فَأَنْتَ شَهِيدٌ" قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قال: "هُوَ فِي النَّارِ" (صحيح مسلم).

الشهيد هو: من يذود عن أرضه وعرضه ووطنه ، فليس الوطن والعرض أقل خطرًا ومكانة عند المسلم من نفسه ودينه وماله ومتاعه ، وقد قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ ، أَوْ دُونَ دَمِهِ ، أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" (سنن أبي داود).

ونؤكد أنه ما طمع فينا طامع ، ولا تجرأ علينا متجرئ ، ولا تطاول علينا متطاول إلا لأننا تشبثنا بالدنيا الفانية وأخلدنا إلى الهوى الذي يعمى ويصم ، وتقاتلنا على الحطام الفاني ، وتنافسنا فيما لا وزن له عند الله ، وآثرنا الفانية على الباقية ، وقد حذرنا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) من ذلك حين قال: "يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الآمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا" ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟

قَالَ: "أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ"، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" (مسند أحمد).

فلنكن أوفياء لدماء من سبقنا على درب الشهادة ، ولنضع نصب أعيينا دائما قول الحق سبحانه: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[التوبة: ٥١].

كما نؤكد أن قتل الأبرياء غدرًا وخيانة حتى لو كانوا مخالفين في الدين أو العقيدة أمر لا يقره دين ولا عقل سليم ولا إنسانية سوية ، وأن الإسلام يرفض كل مظاهر الفساد والإفساد والتخريب والتدمير ، ونؤكد أن العمليات الانتحارية والتفجيرية محض إفساد ، ولا علاقة لها بالشهادة في سبيل الله من قريب أو بعيد ، وأن المفجر لنفسه منتحر يعجل بنفسه إلى نار جهنم ، وأن مصر هي الدرع الحصين للعروبة والقلب النابض للإسلام ، وأن الذود عن حماها واجب شرعي ووطني ، وأن محاولة النيل منها هي محاولة لضرب الأمة الإسلامية كلها في قلبها النابض لصالح عدوها الصهيوني ، وكل من يعنيه إضعاف أمتنا للاستيلاء على خيراتها ومقدراتها ؛ فلنقف صفًّا واحدًا في سبيل الذود عن ديننا ووطننا ابتغاء مرضاة الله تعالى ووفاءً لحق هذا الوطن الذي منحنا الكثير ، وقد آن أوان رد الجميل.

اللهم إنا نسألك أمنًا لأوطاننا ، ورفعةً لبلادنا ، ورفعًا لدرجات شهدائنا ، وأن تحفظ مصرنا من كل مكروه وسوء ؛ إنك نعم المولى ونعم النصير.

❊ ❊ ❊

مفهوم الشهادة بين الحقيقة والادعاء

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [البقرة:١٥٤]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهم صلِّ عليه وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَن تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّين.

وبعد:

فقد اقتضت سنة الله (عز وجل) أن يصطفي من عباده من يشاء فيرفع درجاتهم، ويعلي من شأنهم ، ويُفيض عليهم من كراماته ونفحاته ، ويُمِدهم بعطاياه ورحماته ، ولا شك أن مقام الشهادة من أعلى مقامات الاصطفاء والاجتباء التي يمتن الله (عز وجل) بها على من يشاء من خلقه ، حيث يقول سبحانه: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] ، ويقول سبحانه: {وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران: ١٤٠].

ولقد خصَّ الله (عز وجل) الشهداء بمناقب عديدة ، منها: شرف مكانهم وجوارهم ، وعظيم أجرهم ونعيمهم ، قال تعالى: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} [الحديد: ١٩] فأكرِم به من شرف وجوار مع عِظَم أجر ونور تام يسعى بين أيديهم ، قال مسروق (رحمه الله): "وهذه المكانة للشهداء خاصة" ، ولا أدل على عظم هذا الشرف والمكانة من حرص

النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) على الشهـادة في سبيل الله (عز وجل) ليكتب له أجر هذه الدرجة العالية، فقد قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ" (صحيح البخاري) ؛ لعظيم ما أعدَّه الله (عز وجل) للشهيد في الجنة ، وشوقًا وحنينًا إلى لقاء الله (عز وجل).

ومنها: أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، حياة ليست كحياتنا ، حياة تفوق إدراك البشر ، وهم أيضًا في ذاكرة الأمة أحياء لا تُنسى ذكراهم بمرور الأزمنة والدهور ، قال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤].

وعن جَابِرِ بْن عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قال: "لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ لِي: يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي ، وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْنًا ، قَالَ: أَفَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إلا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا – أي: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول – فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، قَالَ الرَّبُّ (عَزَّ وَجَلَّ): إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ" قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩] (سنن الترمذي).

ومنها: أن أرواحهم في حواصل طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة كيف شاءت ، قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدَ ، جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ،

تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا أَنَّا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ ، لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ ، وَلاَ يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ، وَأَنْزَلَ اللهُ: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[آل عمران:١٦٩] (المستدرك على الصحيحين).

ومنها – أيضًا – ما أخبر به النبي (صلى الله عليه وسلم) من إكرام الله (عز وجل) للشهداء بمِنَح عظيمة ، وعطايا جليلة في قوله (صلى الله عليه وسلم): "لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ ستُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ" (سنن ابن ماجه) ، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ – إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ" (صحيح البخاري). إن هذه المكانة السامية ، والدرجة العالية التي أعدَّها الله (عز وجل) للشهداء لا ينالها إلا شهيد الحق ، فهناك شهيد الحق ، وقتيل الباطل ، فالشهيد الحق هو من عرف الحق، وأخلص له وضحى من أجله ، وبذل روحه في سبيله.

والشهيد الحق هو من دافع عن وطنه ضد كل مُعتَدٍ ، وبذل روحه فداءً له ، وحمايةً لترابه ، وحفاظًا على أهله وكل من يحيا على أرضه، فليس الوطن والعرض أقل خطرًا ومكانة من النفس والدين والمال ، فقد قال

النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ أَوْ دُونَ دَمِهِ أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" (سنن أبي داود) ، وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: قَاتِلْهُ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: فَأَنْتَ شَهِيدٌ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: هُوَ فِي النَّارِ" (صحيح مسلم).

أما قتيل الباطل الذي يسفك دماء الأبرياء بغير حق ، ويروع أبناء الوطن ، ويُهدد أمنهم وأمانهم ، ويسعى إلى نشر الفساد والفوضى في الأرض ، ويروع الآمنين بعمليات انتحارية ، وتفجيرات إرهابية لا يقرها دين ، ولا يقبلها عقل ، فكما أكد بيان الأزهر الشريف التاريخي في تفنيد مزاعم الجماعة الإرهابية أن هذا لا يُعد شهيدًا ، ووصفه بالشهيد ادعاء كاذب لا صحة له ، وتحريف للكَلِم عن مواضعه ، كما أصدرت دار الإفتاء المصرية العديد من الفتاوى التي تصف مثل هذه الأعمال بالإرهابية ، وأنَّ القيام بها صورة من صور الانتحار الذي يعد من أكبر وأعظم الآثام والذنوب عند الله (عز وجل) ؛ لأن من يفعل ذلك جاهل أقحم نفسه في الموت إقحامًا ، والحق سبحانه يقول: {وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا" (متفق عليه) ، وقد بوَّب الإمام النووي على هذا الحديث بابًا في شرحه لصحيح مسلم فقال: "باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ، وأن من قتل نفسه بشيء عُذِّب به في النار" ، وهذا وأمثاله يصدق فيهم قول الله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر: ٨].

إن من يقوم بمثل هذه العمليات الانتحارية هم من يتبعون أفكار مذاهب الغلاة من الخوارج ومن جاء بعدهم من الجماعات الضالة المضلة ، الذين يقولون بتكفير المجتمع بكل طوائفه ، ويستبيحون دماء أبنائه جميعًا ، وليعلم أنَّ اتّخاذَ وسيلةِ التّفجيرِ والتّدميرِ والتّخريبِ والاغتيالِ والانتحارِ من الأمور المحرمة شرعًا بالإجماع ، حيث إن ذلك كله يخالفُ نصوصَ الشّرعِ الحنيف الآمرةَ بوجوبِ المحافظةِ على النفس والوطن والمال ، فإقدام الإنسان على إهلاَك نفسه ، وإزهاق روحه ، والاعتداء على أرواح الآخرين ، والإفساد في الأرض كل ذلك مما حرمه الشرع الحنيف.

لقد أكد الإسلام تأكيدًا شديدًا على حرمة الدماء وضرورة عصمتها، فقد استهل نبينا (صلى الله عليه وسلم) خطبته الجامعة في حجة الوداع بقوله (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَلاَ تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا – أَوْ ضُلَّالاً – يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَزَالُ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا" (المستدرك للحاكم) ، وعن عَبْد اللهِ بْن عُمَرَ ، قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحمدٍ بِيَدِهِ ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ ، مَالِهِ وَدَمِهِ ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلا خَيْرًا" (سنن ابن ماجه) ، وقد نهى الإسلام عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ورتَّب على ذلك وعيدًا شديدًا ، فقال

سبحانه: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

إخوة الإسلام:

إنَّ بلوغَ الأهداف الكبرى ونيلَ الغايات العظمى في هذه الحياة يستلزم من التضحيات ما يتناسب مع سمو الأهداف وشرف المقاصد ونبل الغايات ، ويأتي في ذروة التضحيات التضحية بالنفس ، وبذل الروح في سبيل الله نصرة لدينه ، ورغبة في عزة البلاد وكرامة العباد.

ونحن إذ نجدد الاحتفاء بيوم الشهيد ، فإننا نُذكِّر أنفسنا بهؤلاء الذين ارتقت أرواحهم إلى الله (عز وجل) وفازوا برضوانه من رجال قواتنا المسلحة الباسلة ، ورجال الشرطة البواسل ، وسائر الوطنيين الشرفاء على خط مواجهة قوى الإرهاب والشر والظلام.

هؤلاء الشهداء الأبطال هم الشهداء حقًّا ، وثمة فارق كبير بين الحقيقة والادعاء ، فهؤلاء الأبطال هم من أحيوا فينا روح الكرامة والمروءة والعزة والشهامة ، واستطاعوا أن يحفظوا لمصر مكانتها وهيبتها ، وما زال حماة الوطن يبذلون أنفسهم في سبيله لمواجهة الإرهاب الأسود الغاشم ، والجماعات التكفيرية الضالة المضلة.

ونحن على يقين وثقة في نصر الله سبحانه وتعالى لهم ، وإننا لنُرَجِّي لأنفسنا شهادة في سبيل الله والوطن ، ولم لا؟ وقد قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "مَنْ سأل اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ" (صحيح مسلم) ، وإن واجبنا في هذه المرحلة التي يمر بها وطننا العزيز أن نسعى جميعًا لحمايته والدفاع عنه من أي عدو أو خطر يهدد أمنه واستقراره ، والعمل بكل ما أوتينا من قوة في مواصلة مسيرة البناء والتعمير ، فديننا دين فن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، ودين البناء والتعمير لا الإفساد ولا التخريب، فعلينا أن نتكاتف جميعًا لردع كل من تسول له نفسه أن يجترئ على وطننا الذي تحيط به مخططات متنوعة، هدفها النيل من مصر وأرضها وشعبها ، يقف أمامها المخلصون من أبناء مصر فيقدمون أرواحهم ودماءهم وأموالهم دفاعًا عنها وحماية لأرضها، فمصر هي درع العروبة والقلب النابض للإسلام ، والدفاع عنها واجب شرعي ، وحق ديني ، والنيل من مصر هو نيل من الإسلام ، وإضعاف للمسلمين في سائر البلاد ، فلنقف جميعًا صفًّا واحدًا في سبيل الدفاع عنها من فساد المفسدين ومكر الماكرين وحقد الحاقدين.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنّا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين.

* * *

الوفاء بالعقود والعهود
وحرمة التلاعب بها أو التحايل عليها

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}[النحل: ٩١] ، وأَشهدُ أَنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن وفاء الإنسان بالعقود التي أبرمها والعهود التي قطعها أدبٌ رباني قويم ، وخُلُق نبويٌ كريم ، وسلوكٌ إنساني مستقيم ، دعا إليه ديننا الحنيف؛ حيث يقول الحق سبحانه آمرًا بالوفاء بالعقود: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[المائدة: ١] ، ويقول جل شأنه آمرًا بالوفاء بالعهود: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} [الإسراء: ٣٤]، بل إن القرآن الكريم جعل الوفاء بالعقود والعهود أمارة وعلامة على منزلتين عظيمتين من منازل الإيمان ، ألا وهما الصدق والتقوى ، حيث يقول سبحانه: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧].

وأخبر الحق سبحانه أن أهل الوفاء الملتزمين بعهودهم ومواثيقهم هم أهل محبته ، وصفوته من خلقه ، حيث يقول سبحانه:{بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[آل عمران:٧٦] ، ثم أخبر سبحانه أنهم أصحاب الأجر العظيم ، وورثة جنة النعيم ، فقال جل شأنه: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[الفتح : ١٠] ، ثم بيَّن

سبحانه هذا الأجر العظيم في موضع آخر من كتابه ، حيث قال سبحانه: {وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} [المعارج: ٣٢– ٣٥] .

وكما أمر ديننا الحنيف بالوفاء بالعقود والعهود حذرنا من نقضها ، ونهانا عن عدم الوفاء بها أو التلاعب بأيٍّ منها ، أو التحايل على عدم القيام بالتزاماتها ؛ لما يترتب على ذلك من خلل واضطراب مجتمعي ، وضياع للحقوق ، وفقدان للثقة بين أبناء المجتمع ، وتعطيل لمسيرة المجتمع ونهضته ورقيه ، حيث يقول سبحانه: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[النحل: ٩١] ، أي : والتزموا الوفاء بكل عهد أوجبتموه على أنفسكم سواء فيما بينكم وبين الله ، أو فيما بينكم وبين الناس ، فيما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ولا تنكثوا الأيمان بعد أن أكَّدْتموها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً وضامنًا حين عاهدتموه ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "... والمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً ، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا " (سنن الترمذي) ، ولا فرق في ذلك بين الالتزامات الشخصية والعامة ، بل إن الوفاء بالعقود تجاه المال العام ألزم وأوجب ، والإخلال بها أشد جُرمًا وإثمًا ، لكثرة أصحاب الحقوق المتعلقة بها ، كما أن الدين والأمانة والوطنية كل ذلك يدفع دفعًا إلى الوفاء بالعقود والعهود على الوجه الأكمل الأتم الذي يُرضِي الله سبحانه،

فمن أبرم عقدًا وجب عليه أن يحترمه ، ومن أعطى عهدًا وجب عليه أن يلتزم به .

على أن الإخلال بمقتضيات العقود أكل للسحت ، وأكل لأموال الناس بالباطل ، يقول الحق سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[النساء: ٢٩] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) (شعب الإيمان) .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن عاقبة الغدر ستكون وبالاً وخسرانًا على صاحبها في الدنيا والآخرة ، حيث يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[الفتح:١٠] ، قال محمد بن كعب القرظي: " ثلاث خصال من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر ، حيث يقول تعالى: {وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ}[فاطر : ٤٣] ، والبغي ، حيث يقول تعالى: {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم}[يونس: ٢٣] ، والنكث ، حيث يقول تعالى: {فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ}[الفتح : ١٠] " (ذم البغى لابن أبى الدنيا) .

ولقد ضرب لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة بفعله وقوله في الوفاء بجميع صوره ، فلم يغدر (صلى الله عليه وسلم) يومًا ، ولم يخن ، بل كان (صلى الله عليه وسلم) برًّا وفيًّا حتى مع أعدائه ، ولا أدل على ذلك من يوم بدر ، حيث يقول حُذَيْفَةُ بْن الْيَمَانِ (رضي الله عنه) : مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَالُوا: إِنَّكُمْ

تُرِيدُونَ محمدًا ، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: "انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ" (صحيح مسلم) ، وحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من عقوبة الغدر ، فقال: (إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ) (صحيح مسلم).

ومما ينبغي الإشارة إليه أن العهد والعقد يشتركان في أنَّ كلاًّ منهما ينبغي الوفاء به ، غير أن العلماء فرَّقوا بين العهد والعقد ، فقال بعضهم: العقد هو العهد المؤكد أو الموثق بالكتابة أو الأيمان ، وقال بعضهم: هو ما تعاقد عليه الناس ، أي: أنه صار عقد اتفاق بينهم ، سواء أكان شفاهةً أم كتابةً ، وعلى هذا قالوا: "الْعَقْدُ شَرِيْعَةُ الْمُتَعَاقِدَينِ".

فالعقد الذي بين العامل وصاحب العمل سواء أكان صاحب العمل فردًا أم مؤسسة أم دولة يجب على الطرفين الوفاء به ، فالعامل يؤدي عمله على النحو الذي تضمنه العقد زمنًا وأداءً ، كمًّا وكيفًا ، دون تحايل على العمل بأي صورة من صور التحايل ، وفي المقابل يجب الوفاء بحقه، وفي الحديث القدسي يقول رب العزة سبحانه: (ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ) (صحيح البخاري).

وهناك عهد آخر هو عهد الأمان والسلام لكل من يدخل بلادنا سائحًا أو زائرًا أو عاملاً أو مقيمًا ، طالما أن ذلك يتم بالطُرق القانونية .

فكل من يحصل على إذن بالدخول أو الإقامة فقد صار له عهد وعقد أمان ، يحفظ له ماله وعرضه ودمه ، وهذا العهد الذي تعطيه الدولة مُلزم لكل مواطنيها والمقيمين بها ، لا يجوز نقضه أو الالتفاف عليه ، أو التحلل منه لا شرعًا ولا قانونًا ، فإن أخلَّ أحد بنظام الدولة أو حاول النيل منه كانت محاسبته من أجهزة الدولة في ضوء ما تقتضيه وتنظمه القوانين ، وليس لآحاد الناس محاسبته على ما يبدر منه أو التعرض له بسوء وإلا صارت الأمور إلى الفوضى وعدم الانضباط ، وتظهر عظمة الإسلام وتتجلى في أعلى صورها في ضرورة إعلام العدو بنبذ العهد إذا بدا منه نقضٌ للعهد أو إخلالٌ به ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم): {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ}[الأنفال: ٥٨] ، وقد كان بين سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) وبين الروم عهد ، ففكر معاوية أن يخرج من الشام على مقربة من حدود الروم فإذا انتهى الموعد باغتهم ، فلحق به رجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول: الله أكبر ، الله أكبر ، وفاءً لا غدرًا ، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) ، فأرسل إليه معاوية (رضي الله عنه) فسأله ، فقال: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) يقول: "مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَشُدَّ عُقْدَةً ، وَلاَ يَحُلَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ" فرجع معاوية (رضي الله عنه) (سنن أبي داود).

ولله درُ ناصيف اليازجي حينما قال:

وَفاءُ العَهــدِ من شِيَــم الكـــرامِ ونقــضُ العَهــدِ من شِيَمِ اللِّئَـــامِ
وعنـدي لا يُعَـدُّ مــن السَّجـايـــا سِوَى حِفــظِ المَـوَدَّةِ والذِّمـــامِ

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن نقض العهود وعدم الوفاء بها علامةٌ من علامات النفاق التي بينها لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) وحذر منها أشد التحذير ، فعَن عبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قَالَ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" (متفق عليه واللفظ للبخارى) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: " آية المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب ، وإذا وعدَ أَخلفَ ، وإذا اُؤتمِنَ خانَ" (متفق عليه).

ومما لا شك فيه أن نقض العهد مع الله (عز وجل) من أخطر ألوان نقض العهد ، حيث يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى

يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ}[التوبة: ٧٥ – ٧٧] ، ويقول سبحانه:{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[الرعد: ٢٥].

ألا ما أحوج الإنسانية كلها إلى التخلق بخُلُق الوفاء بالعهد ليتحقق الخير للناس أجمعين ، وأن نُدرك أن الوفاء بالحقوق والالتزامات ، وتحري الحلال شرط في قبول العمل عند الله (عز وجل) ، كما أنه أساس في النهوض والارتقاء بالمجتمعات والدول والأمم .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، اللهم احفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين .

* * *

براءة الإسلام من العمليات الانتحارية والتفجيرية والتخريبية

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ}[البقرة: ١١ ،١٢] ، وأشهد أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ، وأشهد أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ إِمَامُ الأَنبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ ، وَأَفْضَلُ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِيْنَ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِيْنَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ .

وبعد :

فإن الله (سبحانه وتعالى) خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض ليَعْمُرَها ، وأنعم عليه بنعمة الأمن ، وأحاطه بسياج من الضوابط الصارمة التي تمنع المعتدين من الوصول إلى إزهاق نفسه أو انتقاص حريته ، قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}[هود: ٦١] .

وإذا كان الله (تبارك وتعالى) قد منَّ على الإنسان بنعمة الأمن فانه (سبحانه) جعل استدامة هذه النعمة مرهونًا بالتمسك بالشرع والوقوف عند حدوده وآدابه ، فإذا ما أهمل الإنسان العمل بالدين وتفلت من الضوابط الشرعية نزع الله عز وجل عنه هذه النعمة السابغة وألبسه لباس الجوع والخوف ، قال تعالى: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخوف بما كانوا يصنعون}[النحل:١١٢].

إن العالَم اليوم تعتريه موجات عنيفة من الخوف والفزع وعدم الاستقرار نتيجة قيام بعض الأفراد غير المسئولين ، بل غير العقلاء بالاعتداء على بعض الأفراد بالقتل والاختطاف ، وعلى بعض المنشآت بالتدمير والتخريب، وهو ما يسمى الآن بظاهرة التفجيرات الانتحارية والإرهابية ، والإسلام بعيد كل البعد عن هذه العمليات ، وبريء منها وممن ينفذها أو يشارك فيها ؛ لأن في ذلك هدمًا لبنيان الله ، وإفسادًا في الأرض ، وترويعًا للآمنين ، وحينما يواجَهون بما يفعلونه يدَّعون أنهم يُصلِحون ولا يُخرِّبون، فهؤلاء يصدق فيهم قول الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١١ ، ١٢].

إن نعمة الأمن تشكل مع العافية والرزق ، الملكَ الحقيقيَّ للدنيا ، فعن عبيد الله بن محصنٍ الأنصاري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا" (سنن الترمذي).

فالأمن هو : اطمئنان الفرد والأسرة والمجتمع دونما خوف على النفس والعرض والمال ، والأمن مِنْ أن يعتدي عليهم أحد دون وجه حق ، ولقد ذُكِر هذا المعنى في قول الله تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}[الفيل: ٤]، ففي الجمع بين إطعامهم من جوع وأمْنِهم من خوف ، نعمة عظمى ؛ لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل هاتين النعمتين معًا ، إذ لا عيش مع الجوع ، ولا أمن مع الخوف ، وإنما تكمل النعمة باجتماعهما.

ففي رحاب الأمن ، يأمنُ الناس على أموالهم ومحارمهم وأعراضهم ، وفي ظلال الأمن ، يعبدون ربهم ويقيمون شريعته ويدعون إلى سبيله ، وفي رحابِ الأمن وظلِّه تعم الطمأنينةُ النفوسَ ، ويسودها الهدوء ، وترفرف عليها السعادة ، وتؤدَّى الواجباتُ باطمئنان ، من غير خوفِ من هضمِ حق، ولا من حرمان مستحق.

إن عقد الأمن لو انفرط ساعة لرأيت كيف تعم الفوضى وتتعطل المصالح ويكثر الهرج ، ففي ظل الأمن والأمان تحلو العبادة ، ويصير النوم سباتًا ، والطعام هنيئًا ، والشراب مريئًا ؛ فالأمن والأمان هما هدف كل المجتمعات على اختلاف مشاربها ، بل هو مطلب الشعوب كافة بلا استثناء، وتشتد الحاجة إليه في المجتمعات المسلمة ، التي إذا آمَنَتْ أَمِنَتْ ، وإذا أَمِنَتْ نَمَتْ ؛ فانبثق عنها أمن وإيمان ؛ إذ لا أمن بلا إيمان ؛ إذ إن الأمن والإيمان قرينان ، فلا يتحقق الأمن إلا بالإيمان ، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢].

إذا الإيمـان ضـاع فلا أمـان ... ولا دنيـا لمن لم يحي دينًـا

ومن رضي الحيـاة بغيـر ديـن ... فقـد جعـل الفنـاء لهـا قرينًـا

والحق الذي لا مراء فيه أن الإسلام بريء من الإرهاب ومن القائمين به ، وأنه دين الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، إنه دين يصون النفس الإنسانية ويُحَرِّم الاعتداء عليها ؛ لما لها من حرمة مقررة، حتى إنه ليجعل الاعتداء على نفس واحدة اعتداءً على الناس جميعًا ، قال جل شأنه: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [الأعراف:٣٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ ، لَقِيَ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ" (سنن ابن ماجه) ، وروى الترمذي في سننه من حديث أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنهما) عَنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ" (سنن الترمذي).

بل إن الإسلام ينهى المسلمَ عن مجرد الإيذاء باللسان ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ" (سنن الترمذي) ، وفي رواية عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: "مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ" (صحيح مسلم).

فلا خير فيمن يدَّعي الإيمان وهو يؤذى الناس بالقول والفعل ، فلا نستطيع بحال أن نسمي مثل هذا مؤمنًا ، وقد تبرأ منه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث قال : "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا" (متفق عليه).

ولخطورة هذا الأمر نبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أن مجرد سبابِ المسلم لأخيه المسلم فسوقٌ ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ" (متفق عليه) ؛ فإذا لم يستطع المرء أن يفعل خيرًا مع أخيه أو مجتمعه ، فلا أقل من أن يكف أذاه ويمسك شره عن الناس ، وهو في ذلك مأجور ، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ١١٠].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إننا في زمن اختلطت فيه المفاهيم فسمي الإرهاب جهادًا ، وسمي البغي عدلاً ، ولَبِس الباطل ثوب الحق ، وانطلقت أبواق الدعاية لتتهم الإسلام بالإرهاب ، والإسلام بريء من هذا الافتراء ، فلفظ الإسلام مأخوذ من مادة السلام ؛ لأن الإسلام والسلام يلتقيان في توفير الطمأنينة والأمن وصيانة الحرمات ، والله تعالى من أسمائه السلام ، ورسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) يدعو الناس إلى السلام الذي يجمع القلوب على المحبة ، فيقول (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ،

وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَىْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ" (صحيح مسلم).

ومَن تأمَّل مقاصدَ الشرع في العبادات والمعاملات والآدابِ والأخلاق والأوامِر والنّواهي ، تبيّن أن له مقصدًا كبيرًا وغاية عُظمى، وهي جمعُ الكلِمة وغرسُ المحبّة وزرعُ الأُلفة ونشر المودَّة بين أفرادِ الأمَّة ، والحثُّ على التناصُر والتعاون ، والبعد عن أسباب العداوة والبغضاء وما يحمِل على الكراهية والشّحناء ، وما يثير الأحقادَ والأضغان ، والتحذير الشديد مِن الطّعن في المسلمين والتَّشهير بهم وإساءةِ الظنِّ بهم واتهامهم ببدعةٍ أو كفر أو فسوقٍ أو نفاق أو ظلمٍ أو جهل ؛ ومن ثم فإن الإسلام دين الوسطية واليسر والتسامح ، ودين المحبة والألفة والتعاون ، وليس دينَ قتلٍ أو تخريبٍ أو إرهابٍ.

أما ما يحدث من تكفير وتخريب وتفجير وغلو في مجتمعنا ، وما ينشأ عنه من ترويع وإرهاب وسفك للدماء البريئة ، وتفجير للمساكن والمَرْكَبات والمرافق العامة والخاصة ، وتخريب للمنشآت ، فكلها أعمال إجرامية دخيلة على بلادنا وعلى عاداتنا وتقاليدنا ، إنها إفساد في الأرض وإشاعة للرعب والخوف ، واستهداف للأمن والأمان والاطمئنان ، والإسلام بريء منها ، وكذلك كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر بريء منها ، فديننا الحنيف حذّر من إرهاب الآخرين ، ونهى عن ترويع الآمنين وتخويفهم ، وحرَّم التعدي عليهم ؛ لأنه إجرام تأْباه الشريعة والفطرة ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ" (صحيح مسلم) ، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى لَيْلَى

قَالَ: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا" (سنن أبي داود).

ولا يمكن لوطني عاقل أن يقبل بمظاهر الحرق والتخريب والتدمير التي لا يقرها شرع أو دين بأي حال من الأحوال ، فضلاً عن أن يكون مشاركًا فيها ، أو مؤيدًا لها ، أو متعاطفًا معها إلا إذا كان قد انسلخ من كل معاني الوطنية ، فإن من يسلك هذه المسالك التكفيرية أو التخريبية أو التفجيرية لن يجنى إلا حسرة وندمًا وسوء عاقبة.

ولا ينكر أحد أننا في ظروف استثنائية في تاريخ مصرنا العزيزة ، فإما أن يكون وطن أو لا يكون ، وقد يظن البعض من الذين يفجرون أنفسهم أنهم يقومون بعمل بطولي ويضحون بأرواحهم من أجل فكرة ، أو معتقد ، أو دين ، وهذا فهم خاطئ ، فهناك فرق بين من يضحي بنفسه من أجل دينه وبلاده ، وبين من يفجر نفسه لإيذاء الآخرين ، فليس هناك شرع يبيح أو يجيز ذلك .

وفي العمليات الانتحارية تتعدد الجرائم ، فمفجر نفسه سواء أصاب غيره أم لم يصب منتحر يعجل بنفسه إلي الهلاك في الدنيا والآخرة ، وقد نهى الحق سبحانه وتعالى عن قتل النفس ، أو الاعتداء عليها بأي لون من الألوان فقال سبحانه: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩] ، وقال أيضًا: {وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ١٥١] ، فإن فجَّر عن بعد في غيره فهو قاتل ومفسد ومعتد على الآخرين.

على أن هذه التفجيرات الإجرامية إذا استشرت ولم تواجه بيقظة وحزم من الجميع أكلت الأخضر واليابس ، وارتدت على أصحابها والمحرضين لهم ، والصامتين عن جرائمهم ، والمترددين والخائفين.

اللهم رد عن بلادنا السوء كيف شئت وبما شئت يا قوي يا عزيز ، واجعل اللهم مصر سخاء رخاء وأمنًا وأمانًا وسائر بلاد المسلمين.

* * *

سماحة الإسلام ونبذه لكل مظاهر العنف

الحمد لله رب العالمين ، جعل التفكير السليم سبيلاً إلى دينه القويم ، ولم يرض لعباده المؤمنين أن يكرهوا أحدا على هذا الدين، فقال تعالى في محكم التنزيل: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٥٦] ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد :

فلما كان الدين الإسلامي هو خاتم الأديان فإن الله (عز وجل) حباه بخصائص تؤهله لأن يكون دينًا صالحًا لكل زمان ومكان ، ومن أبرز تلك الخصائص وأجلِّها: السماحة واليسر في كل شأن من شئون الحياة.

إنه دين عظيم بأحكامه وتعاليمه ، يتميز بالسماحة في تعاليمه وفى تعاملاته ، سماحة في عقيدته وعباداته ومعاملاته وآدابه وسائر تشريعاته ، سواء مع المسلمين أو غير المسمين ، فلم يجبر أحدًا على اعتناقه ، ولم ينتشر بحد السيف كما قيل ويقال ، إنما انتشر بتعاليمه السمحة وأخلاقه الكريمة وقيمه النبيلة ، وانتشر بأخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من بعده ، مما يبرهن على أن الإسلام بريء من العنف والإرهاب والتطرف ، وأنه دين اليسر والسماحة ، ولم تعرف البشرية نظامًا ولا دينًا اشتملت مبادئه على السماحة واليسر كالإسلام ؛ لأن تعاليمه تتفق وطبيعة الإنسان ، لا حرج فيه ولا مشقة ، ولا شدَّة فيه ولا تعسير .

ومن ينظر في كتاب الله تعالى وفي سيرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) يجد أن اليسر والسماحة من خصائص هذا الدين ، يقول الله سبحانه في كتابه العزيز: {يرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] ، ذلك ما أراده الله تعالى لهذه الأمة: اليسر والتخفيف ، وتلك صفة الدين العامة ، قال تعالى: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

ويؤكد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على هذه المعاني في سنته الشريفة ، حيث أوصى باليسر والسماحة فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ" (صحيح البخاري).

وعَنْ أَنَسٍ بن مالك (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قَالَ: "يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا" (متفق عليه) ، وهكذا نجد أن تعاليم الإسلام التي جاء بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمحة ميسرة لكل إنسان ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قال: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلاَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ" (مسند أحمد).

ومما لا شك فيه أن للسماحة والتيسير أهمية كبرى وأثرًا واضحًا في سرعة انتشار الإسلام وارتفاع رايته ودوام بقائه بين الأمم والشعوب التي اعتنقته ، فالتاريخ يشهد بأن سرَّ انتشار الإسلام واعتناق الناس له ودخولهم في دين الله أفواجًا هو هذا المنهج الرباني المبني على السماحة واليسر ،

وحسن المعاملة ، وعدم التعصب والتشدد ، أما صور التعصب الممقوت التي يساء فيها إلى الإسلام ، والتي تتجاوز أصل السماحة إلى الشدة والمشقة والعنت ، فإنها لا تدفع الناس إلى الدخول فيه ، بل تدفعهم إلى النفور منه ، أو التفريط في بعض تعاليمه.

وتجنبًا للوقوع في هذا الجانب السلبي وصَّى النبي (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري (رضي الله عنهما) حينما أرسلهما داعيَيْن إلى اليمن ، قائلاً لهما : " يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا" (متفق عليه) .

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلام وارتفعت رايته ؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسان ، وبما جبلت عليه العقول السليمة من حب الخير للناس أجمعين ، وإذًا فليس في ثقافة الإسلام ولا في تعاليمه ما يدعو إلى العنف والكراهية.

وتتجلى سماحة الإسلام في مظاهر كثيرة ، منها:

السماحة في الدعوة إلى الله (عز وجل): فالإسلام دين الناس قاطبة ، وبه بعث الله كل الأنبياء ليُبلغوه للناس ، فهو أصل رسالتهم ، وإن اختلفت شرائعهم وأحكامهم ، فإنهم متفقون على أن الأصل الأول هو التوحيد.

ومن مظاهر سماحة الإسلام في الدعوة إلى التوحيد: أن الله تعالى امتنَّ على نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالشفقة واللين ، فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩].

ويتجلى هذا التسامح كذلك في مخاطبة أهل الكتاب بالأسلوب الراقي الجميل ، قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤] ، ويتضح هذا الأسلوب اللين السمح – أيضًا – في أمر الله تعالى نبيه موسى وهارون (عليهما السلام) بإلانة القول لفرعون في دعوتهما له ، فقال تعالى: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٣ ، ٤٤] ، ولذا قال الخليفة المأمون لما عنَّفه واعظ: "يا رجل ارفق؛ فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق" (إحياء علوم الدين).

وإلى هذا النهج رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بقوله: "إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ، ولاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ " (صحيح مسلم) ، بل دعا النبي (صلى الله عليه وسلم) لمن رفق بأمته بقوله: "اللهُمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ" (صحيح مسلم).

كذلك تتجلى سماحة الإسلام ويسره في العبادات حيث جاء بتنظيم العلاقة بين العبد وربه بالعبادات التي تزكي النفوس وتطهر القلوب ، والتي تمتازُ باليُسْرِ والسُّهولةِ ؛ لأنها مَشروطةٌ بالقُدْرة على أدائها ، مع مُراعاةِ الحالاتِ المُختلفةِ عند القصور أو العَجْزِ ، وهذا مِن تَجلِّياتِ السَّماحةِ التي لا يُجارَى فيها الإسلامُ ولا يُبارَى ، ولعلَّ مِن أشهر القواعدِ الفقهيَّة التي بُنيتْ عليها الأحكامُ التَّشريعيَّةُ (الضَّرُوراتُ تُبِيحُ المَحْظُوراتِ) ، و (لا ضَرَرَ ولا ضِرار) ، وقد حافظ الإسلامُ على وصف السَّماحة لأحكامِهِ ، وأقامها على التَّيسير ورَفْعِ الحَرَج ودَفْعِ الضَّرَر ، مُنْتهِجًا فيها أُصولَ التدرُّج في التَّشريع ،

مُراعاةً للطَّبيعة البشريَّة ، مُشرِّعًا مِن التَّكاليف ما تَحتمِلُهُ طاقةُ المُكلَّف ، وذلك مِن سماحة الدِّين واعتِدالِهِ ووَسَطيَّتِهِ ، قال تعالى: {لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها مَا اكتَسَبَتْ} [البقرة:٢٨٦].

سماحة الإسلام في المعاملات: وإذا كان هذا الحالُ في العباداتِ فالنَّاسُ في المُعاملاتِ أحوجُ إلى السَّماحةِ واليسر ؛ لذا جاء الإسلام بتنظيم المعاملات بين البشر بعضهم لبعض ؛ ليعيش الناس في أمن وعدل ورخاء ، ومن سماحة الإسلام وتيسيره أنه جعل الأصل في المعاملات الإباحة إلا ما دل عليه الدليل.

والمُعاملات الماليَّة لها صُوَر كثيرة ومُتعدِّدة ، منها معاملات البيع والشِّراء والدَّيْن والقُرُوض وغيرِ ذلك.

ففي البيع والشراء حث النبي (صلى الله عليه وسلم) على السماحة ، حيث قال: "رَحِمَ اللهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى" (صحيح البخاري) ، ففي الحديث حث على السماحة في المعاملة واستعمال مكارم الأخلاق وترك المشاحنة ، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة وأخذ العفو منهم ، فينبغي أن يكون المسلِمُ سَمْحًا في بيعه وشرائه.

ومن سماحة الإسلام: أنه راعى المصالح والظروف ، ورفع المشقة والحرج عن الناس في البيوع ؛ إذ قد يقع البيع فجأة من غير تأمل ولا نظر ، فيحتاج المتبايعان أو أحدهما إلى التريث والتروِّي في أمره، من أجل ذلك أعطى الإسلام طرفي البيع فرصة ومهلة للنظر في مصلحتهما من تلك الصفقة ، فشرع لهما الخيار في البيع لاختيار ما يناسب كلاًّ منهما

من إمضاء البيع أو فسخه ، فعن حكيم بن حزام (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "البيِّعان بالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفرَّقا ، أو قال: حَتَّى يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا" (متفق عليه) ، كما حثَّ الإسلام على السماحة في القرض وإنظار المعسر ، قال تعالى: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢٨٠] ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ" (صحيح مسلم).

كذلك رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) في التجاوز عن المعسر ، فعن أبي حُذَيْفَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "تَلَقَّتِ الْمَلاَئِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قال: كُنْتُ آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا وَيَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُوسِرِ ، قال: فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ" (صحيح البخاري).

وعَنْ أَبِى مَسْعُودٍ الأنصاري (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَىْءٌ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَكَانَ مُوسِرًا ، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ ، قال: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ" (متفق عليه).

وكما راعى الإسلام السماحة بين المسلمين ، **راعى السماحة في معاملة غير المسلمين** ، فلم تقتصر سماحته على المسلمين فحسب ، بل شملت غير المسلمين ، حتى في حالة الحرب ، فنهى عن قتل الأطفال ،

والنساء ، والشيوخ ، والعجزة ، فعن بريدة (رضي الله عنه) قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ ، أَوْ سَرِيَّةٍ ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، ثُمَّ قَالَ: "اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا ، وَلاَ تَغْدِرُوا ، وَلاَ تَمْثُلُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا ، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلاَلٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ" (صحيح مسلم).

ومن صور السماحة في الإسلام كفالة حرية الاعتقاد: فقد كفل الإسلام الحرية لكل فرد ، فلا إكراه لأحد في دخول الإسلام إلاَّ بعد القناعة التامة بهدايته ، قال تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦].

كذلك من صور سماحة الإسلام مع غير المسلمين: أنه حرَّم التعرض بالأذى – بالقول أو الفعل – لكل معاهد أو مستأمن دخل ديار الإسلام ، وتوعد وأغلظ في العقوبة لمن تعرض لهم بالأذى ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) عَنْ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" (صحيح البخاري).

وكذلك من صور سماحة الإسلام مع غير المسلمين: أنه أوجب على المسلمين سلوك العدل في التعامل مع غيرهم ، ولم يجعل عدم دخولهم في الإسلام سببًا في ظلمهم أو خيانتهم ، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إننا لو تتبعنا سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) لوجدنا فيها ضروبًا من التسامح والموادعة ، فكان (صلى الله عليه وسلم) مثالاً للكمال البشري في حياته كلها ، مثالاً للكمال في علاقته بربه ، وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم ، مسلمين وغير مسلمين.

وقد تجلَّت روح التسامح عند النبي (صلى الله عليه وسلم) يَوْمَ الْفَتْحِ حين قال: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِى سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلاَحَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ" (صحيح مسلم) ، وما أروع قوله (صلى الله عليه وسلم) يوم الفتح لمن ناصبوه العداء وكانوا حربا على الدعوة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (السنن الكبرى للبيهقي).

وقد أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) بالقبط خيرًا ، حيث قال: "إِذَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا ؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا" (المستدرك للحاكم).

وعن أَبي ذر (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا ؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا" (صحيح مسلم).

لم تكن هذه الأخلاقُ العظيمةُ في الإسلام شِعارًا فَضْفاضًا ، ولا قِيَمًا خالية مِن مَضامِينها الإنسانيَّةِ ، بل كانت حركةً نابضةً بالحياة جَسَّدَها الرَّسولُ الكريمُ (صلَّى الله عليه وسلَّمَ) في قدوَتِهِ لنا بصورةٍ مُضيئةٍ ، فقد آذته قريشٌ في معركة أُحُد ، وجمعت جهدَها لقتْلِهِ ووَأْدِ دعوتِهِ ، وخرج من المعركة جريحًا وقد كُسِرت رَباعيَّتُهُ وشُجَّ وجهُهُ الكريمُ ، فقيل له: يا رسولَ الله ادْعُ على المُشركين ، فقال: "إنِّي لم أُبْعَثْ لَعّانًا وإنَّما بُعِثْتُ رحمةً" (صحيح مسلم).

إنَّ رحمتَهُ (صلَّى الله عليه وسلَّمَ) وشفقتَهُ العظيمةَ وسماحَتَهُ القلبيَّةَ هي التي تغلِبُ في المواقف العصيبةِ ، التي تبلغُ فيها المُعاناةُ أشدَّ مراحلِها ، وهذا ما بَرزَ واضحًا حين ذهب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف يدعو الناس إلى الإسلام ، إلا أنهم رموه بالحجارة وأدموا قدمه الشريفة ، فرجع (صلى الله عليه وسلم) وهو مهموم ، فأرسل الله تعالى له جبريل (عليه السَّلامُ) ومعه ملك الجبال، فقال له جبريلُ: "إنَّ اللهَ قد سمِعَ قولَ قومِكَ لكَ وما ردُّوا عليكَ ، وقد بعثَ اللهُ إليكَ مَلكَ الجِبالِ لتأمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم ، فناداني ملك الجِبال فسَلَّمَ عليَّ ، ثمَّ قال: يا مُحمَّدُ! إنْ شئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأَخشَبَيْنِ؟ فقال النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): "بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشرِكُ به شيئًا" (متفق عليه) ، هكذا نظر رسول الله إلى قومه بنور الإسلام وسماحته.

وعلى نهجه (صلى الله عليه وسلم) سار الصحابة (رضي الله عنهم) ، فهذا أبو بَكرٍ الصِّدِّيقِ (رَضِيَ اللهُ عَنهُ) كَانَ يُنفِقُ عَلَى مِسطَحِ بنِ أُثَاثَة لِقَرَابَتِهِ مِنهُ وَفَقْرِهِ ، فَلَمَّا وَقَعَ المُنَافِقُونَ في عِرضِ ابنَتِهِ عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ (رَضِيَ اللهُ عَنهَا) ، وَكَانَ مِسطَحُ فِيمَن وَقَعُوا قَالَ الصِّدِّيقُ: "وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ ، فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالَى: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور:٢٢] ، فَقَالَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ: "بَلَى وَاللهِ ، إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي ، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا" (متفق عليه) ، إِنَّ أَعظَمَ السَّمَاحَةِ وَأَعلى دَرَجَاتِهَا أَن يَتَسَامَحَ المَرءُ مَعَ مَن أَسَاءَ إِلَيهِ ، أَو جَحَدَ فَضلَهُ وَنَسِيَ مَعرُوفَهُ ، تلك نماذج من صفحات التاريخ الإسلامي ، والتي تنمّ عن يسر الإسلام وسماحته ، وكم لها من آثار في جميع الجوانب التي تؤدي إلى المحبة والتآلف ونبذ العنف والتنافر .

إننا بحاجة إلى خلق السماحة ؛ لنطهِّر بها أنفسنا من الغلِّ ، والشحناء ، والمنازعة ، والبغضاء ، ونرسخ في مجتمعاتنا مبادئ المحبَّة والإخاء ، حتَّى إذا أصرَّت فئة أو طائفة على خلاف ذلك وجدت في مجتمع المؤمنين رفضًا عمليًّا لأخلاق الجفاء ، واستنكارًا جماعيًّا لموارد الهلكة والشحناء.

اللهم اجعل في قلوبنا نورًا ، وفي ألسنتنا نورًا ، وفي أسماعنا نورًا ، وعن أيماننا نورًا ، وعن شمائلنا نورًا ، ومن بين أيدينا نورًا ، ومن خلفنا نورًا ، واجعلنا نورًا يا نور السموات والأرض.

* * *

لا للإرهاب والإفساد

الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القَائِلِ في كِتَابهِ الكريمِ : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة:٢٠٤-٢٠٦] ، وأشهدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدهُ لا شَريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يُحيي ويُميتُ ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا ونَبِيَّنَا محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ ، القائِلُ : " لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا" (سنن أبى داود) ، اللهم صلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ ، ومَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِ وَسَلَكَ طَرِيقَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبعد:

فَقَدْ حَرصَ الإسلامُ كُلَّ الحِرصِ عَلَى حِفْظِ الدِّمَاءِ والأمْوالِ والأعراضِ، وحرَّمَ قتلَ النفْسِ التي حرَّمَ اللهُ (عز وجل) قتلَهَا إلا بالحقِّ يقولُ تعَالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ١٥١] ، ويقولُ سُبْحانَهُ: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جَمِيعًا} [المائدة:٣٢] ، فحرَّم كُلَّ اعتداءٍ أو تَرويعٍ للآمنِينَ وكُلَّ ما يُهدِّدُ الأمنَ والاسْتِقرارَ من إرهابٍ أو إفسادٍ في الأرضِ أو اعتداءٍ على الأبرياءِ.

ولكنْ ما زالَ الإرهابُ الخبيثُ يُطِلُّ علينا بوجهِهِ القَبيحِ بينَ الحينِ والحينِ ، من خلالِ قيامِ جَمَاعَاتٍ ضالةٍ مُضلَّةٍ بالخروجِ على المجتمعِ

بالسلاحِ واستباحةِ الدِّماءِ المَصُونةِ ، وقتْلِ الأبرياءِ ، وترويعِ الآمنينَ ، وإشاعةِ الفسادِ في الأرضِ ، كُلُّ ذلكَ بدَعْوَى الجهادِ في سبيلِ اللهِ كذِبًا وزُورًا وافتراءً على اللهِ ورسولِه.

فالجهادُ الحقِيقِيُّ هو ردُّ العُدوانِ عنِ الدَّولَةِ بمَا يُمَاثِلُهُ دونَ تجَاوُزٍ أو شَطَطٍ ، ولا مَجَالَ للاعتداءِ ولاَ حَقَّ للأفْرادِ في إعلانِهِ ، إنَّمَا هو حَقٌّ لرئيسِ الدَّولَةِ والجِهاتِ المختَصَّةِ بذلِكَ وِفْقَ ما يقْتَضِيهِ قانُونُ كلِّ دولةٍ ودُستورُها ، والحقُّ أنَّ أفعَالَ هؤلاءِ المارِقِينَ تكْشِفُ يومًا بعْدَ يوْمٍ أنَّهُم بَعِيدونَ كلَّ البُعدِ عنِ الإسْلامِ ورُوحِهِ السَّمْحَةِ ، ولا يعْرِفُونَ شيئًا عن هُدَى سيِّدِ الأنامِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ويحْسبونَ أنفُسَهُم مُؤمِنينَ مُصْلِحِينَ ، مع أنَّهُم مُنافقونَ مُفسِدونَ ، يقولُ سبحانَهُ وتعالى في شأنِهِمْ: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}[الكهف:١٠٣ ، ١٠٤] ، ويقولُ سبحانَهُ: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}[الأعراف: ٣٠].

فَكُلُّ مُفْسدٍ – وإنِ ادَّعَى صَلاحًا – فَعملُهُ باطِلٌ ، وإنْ تحقَّقَ لهُ ما يَتَوهَّمُهُ نجاحًا ، فهو زيفٌ مؤقَّتٌ ، مآلُهُ الخذلانُ والخسرانُ ، وهذا هو حالُ المنافقِ المفسدِ مدَّعي الإصلاحِ ، كما أخبرَ القرآنُ الكريمُ حيثُ يقولُ الحقُّ سبحانَهُ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١١،١٢].

وأبشعُ أنواعِ الإفسادِ هو ما استُبِيحَتْ به الدماءُ باسمِ الدينِ ، والدينُ منه بَراءٌ ، فقد ابتُلِيتِ الأمَّةُ بأُناسٍ يُفسِدونَ في الأرضِ ولا يُصْلِحونَ ،

وهؤلاء قد ذمَّهمُ القرآنُ الكريمُ وتوعَّدَهُمْ بالعذابِ العظيمِ، فقال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[النساء: ٩٣] ، ويقول سبحانه: {إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}[يونس: ٨١] .

أما شريعةُ الإسلامِ السَّمْحةِ فقد كفَلتْ للإنسانِ حقَّهُ في عيشٍ آمنٍ ، ونفسٍ مطمئنةٍ ، فنهتْ عن ترويعِهِ وتخويفِهِ ، وحرَّمَتِ التَّعدِّي عليه أيًّا كان جنسُهُ أو لونُهُ أو معتقَدُهُ ، أو التعرضَ لهُ بالإيذاءِ والضررِ في نفسِهِ أو مالِهِ أو عرضِهِ ، لأنَّ ذلكَ يُعدُّ فسادًا وإفسادًا في الأرضِ ، يقولُ نبيُّنَا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لا يَحِلُّ لِمُسْلمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا" (سنن أبى داود) ، ويقولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ" (متفق عليه) ، حتى ولو كانَ الترويعُ على سبيلِ المِزاحِ ، يقولُ نبيُّنَا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ" (صحيح مسلم) .

فإذا وصلَ الترويعُ والاعتداءُ إلى حدِّ الاستيلاءِ على المُمتلَكاتِ بالقوَّةِ دخلَ ذلكَ في بابِ الحِرابةِ والبَغْيِ ، يقولُ سبحانَهُ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس: ٢٣] ، وقدْ نفَى النبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) انتسابَ هؤلاءِ إلى الإسلامِ ، فقالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا" (متفق عليه).

أقولُ قَوْلِي هَذَا وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

إنَّ المُسلمَ لا يزالُ في مُتَّسَعٍ منْ أمرِهِ حَتى يَقتَرِبَ مِنَ الدِّماءِ ويعْتدِيَ علَى البناءِ الذي بناهُ اللهُ (عز وجل) وهو الإنسانُ حيثُ يقولُ نبيُّنا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لاَ يَزَالُ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا" (صحيح البخاري) ، فأمرُ الدِّماءِ عظيمٌ وخَطيرٌ، لدرجةِ أنَّ النبيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ" (سنن ابن ماجه) ، ويقولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا في دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ في النَّارِ" (سنن الترمذي)، فقتْلُ النفسِ بغيرِ حقٍّ حرامٌ ، قالَ تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [الأنعام: ١٥١].

ويَلْحَقُ بهؤلاءِ في الفَسادِ والإفْسَادِ كلُّ منْ يعملُ علَى تخْريبِ العامرِ وهدمِ البُنيانِ والمَساسِ بالمَرافِقِ العامَّةِ أوِ العمَلِ علَى تعطِيلِهَا أوِ التلاعُبِ بالعُملاتِ الأجنبيَّةِ وسوقِ الصَّرفِ الماليِّ ، أو بأقواتِ الناسِ قَصْدَ الإضرارِ بالمصْلَحةِ الوَطنيَّةِ.

إنَّ الدينَ الإسلاميَّ يَنْبِذُ كلَّ عُدْوانٍ وتَطرُّفٍ وإرْهابٍ ، ويَحُثُّ على التصدِّي للإرهابيينَ المُجرمينَ وتطْهيرِ الأرضِ منهمْ ، فإنَّ اللهَ (عزّ وجلّ) يدفعُ بالمصلِحِينَ فسادَ المفسدِينَ ، قالَ تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} [هود: ١١٦].

فالإرهابيُّ المفْسِدُ مِعْوَلُ هدمٍ للمُجتمَعِ ، ولا نجاةَ للعِبادِ إلاَّ بمنعِهِ منَ الفَسادِ ، والتَّصدِّي لهُ ، فَفِي ذلكَ نجاةٌ للمجتمَعِ كلِّهِ ، أمَّا إهمَالُهُ وعدَمُ التَّصدِّي لهُ ففيهِ الهَلَكَةُ للمجتمَعِ كلِّهِ ، قالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا" (صحيح البخاري).

إنَّ كشْفَ هُوِيَّةِ الإرْهابيِّينَ ومُخطَّطاتِهِمْ والإبلاغَ عنْهمْ يُعَدُّ واجبًا دينيًّا ووطنيًّا وإنسانيًّا ، ممَّا يُحتِّمُ علينَا أنْ نَقِفَ جَميعًا صفًّا واحدًا في مُواجَهةِ هذا الإرْهابِ الأسْوَدِ حتَّى نقْتلِعَهُ منْ جُذورِهِ ، وأنْ نَكُونَ بأقْوالِنَا وأفعَالِنَا وأخلاقِنَا صورةً مُشرِّفَةً للإسلامِ الوسطِيِّ السَّمحِ الذي نَشْرُفُ بالانتِمَاءِ إليهِ.

نسألُ اللهَ تعَالَى أنْ يَقِيَنَا السُّوءَ بمَا شاءَ وكيفَ شاءَ ، وأنْ يُديمَ لُطفَهُ بِمصْرَ وأهلِهَا ، وأنْ يحفَظَ جَيشَنَا وشعْبَنَا منْ كلِّ مكْرُوهٍ وسُوءٍ ، وأنْ يجعَلَ مِصْرَنَا أمْنًا أمَانًا وسَائِرَ بلادِ المُسلِمينَ.

* * *

حرمة الاعتداء والتخريب
وضرورة البناء والتعمير

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإنَّ الدين الإسلامي دين يدعو إلى البناء والتعمير ، لا إلى الهدم والتخريب والتدمير ، دين الرحمة والأمن والسلام للناس جميعًا ، يأمر بحفظ النفس والمال والعرض ، وينهى عن القتل والاعتداء وترويع الآمنين، كما ينهى عن الفساد والإفساد في الأرض ، فشتان بين من يخرِّب ويدمِّر ويكدِّر حياة الناس بالفساد والإفساد ، وبين من يعمر ويبني ويتنافس في إسعاد الآخرين وإدخال السرور عليهم ، فقد خلق الله (عز وجل) الإنسان لعبادته وطاعته ، فقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦] ، وجعل من مظاهر هذه العبادة تزكية النفس البشرية وتهذيبها بالأخلاق الحسنة ، وكذلك إعمار الأرض وإصلاحها ، واستخراج كنوزها ، والحفاظ عليها وتنميتها، وعدم الاعتداء على مقومات الحياة وعمارتها ، قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود:٦١] ، فكل ما من شأنه أن يُحدِث فسادًا ، أو اعتداءً ، أو تخريبًا وتدميرًا ، أو ترويعًا للآمنين ، يُعَدُّ إفسادًا في الأرض .

ومن ثمَّ فإن الاعتداء على الدين ، أو النفس ، أو العقل ، أو المال، أو العرض أو ترويع الآمنين هو فساد وإفساد حذَّر منه الإسلامُ بكل صوره وأشكاله ، فقال تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [الأعراف: ٥٦] ، وقال سبحانه: {إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ} [يونس: ٨١].

ولقد جاءت رسالات السماء كلها داعيةً إلى الإصلاح والحفاظ على هذه الكليات الخمس ، ومحذرةً من الفساد والتخريب ، فقال تعالى على لسان نبيه صالح (عليه السلام) لقومه: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِين * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٠-١٥٢] ، وقال تعالى أيضًا: {فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى على لسان شعيب (عليه السلام): {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [العنكبوت: ٣٦] ، وقال تعالى: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا} [الأعراف: ٨٥] ، وقال سبحانه على لسان موسى (عليه السلام): {كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة: ٦٠] ، ثم هو يقدِّم النصيحة الغالية لأخيه: {وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢].

إن الفساد والتخريب والاعتداء على الأنفس وترويع الآمنين ما هو إلا نشر للفوضى ، وتخريب للمجتمعات ، فهؤلاء العملاء والخونة الذين يريدون تخريب الأوطان والاعتداء على الآمنين ، هم فئة ضالة منحرفة

ضلت الطريق ، وانسلخت من كل معاني المروءة والإنسانية ، إلى الاعتداء والتخريب والتدمير والتفجير ، وتعريض حياة الناس للخطر ، هؤلاء لا علاقة لهم بالإسلام ، ولا بالأديان ، ولا بالإنسانية ؛ فهم يُلبِسون الباطل ثوب الحق ، ويَظهَرون في صورة المصلحين ، لكن الله (عز وجل) كشف أمرهم بقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦] ، فهو سبحانه وتعالى يعلم حالهم ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالى: {وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [البقرة: ٢٢٠].

ولقد بيَّن الحق سبحانه وتعالى ضلال هؤلاء الذين يَظهَرون بمظهر الإصلاح ، ويتخذون من العنف والقتل والتخريب ، وإشاعة الفوضى والرعب بين الناس سبيلاً لهم ، متوهمين أنهم على الحق ، فقال تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف:١٠٣،١٠٤].

وقد تنوعت صور الإفساد والاعتداء والتخريب في الأرض ، فمنها: قتل النفس التي حرَّمَ اللهُ (عز وجل) قتلَهَا إلا بالحقِّ ، بغض النظر عن اعتقادها ودينها.

فالنفس البشرية معصومة أيًّا كانت ديانتها ، وقَدْ حَرصَ الإسلامُ كُلَّ الحِرصِ عَلَى حِفْظِ الدِّمَاءِ والأمْوالِ والأعراضِ ، فقال تعَالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام:

١٥١] ، فحرَّم كُلَّ اعتداءٍ أو ترويعٍ للآمنِينَ وكُلَّ ما يُهدِّدُ الأمنَ والاسْتِقرارَ من إرهابٍ أو إفسادٍ في الأرضِ أو اعتداءٍ على الأبرياءِ.

بل جعل الإسلام الاعتداء على النفس الواحدة بمثابة الاعتداء على الناس جميعًا ، فقال جل شأنه: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢] ، وقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا في دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ في النَّارِ" (سنن الترمذي) ، فقتل النفس البشرية لا يقره دين سماوي ولا عقل مستنير.

وقد أكدَ النبي (صلى الله عليه وسلم) على عصمة الدماء وحرمة النفس البشرية بقوله في حجة الوداع: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا أَوْ ضُلاَّلاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (متفق عليه).

كما كفَلتْ شريعةُ الإسلامِ للإنسانِ الحق في عيشٍ آمنٍ مطمئن ، فنهتْ عن ترويعِهِ وتخويفِهِ ، وحرَّمَتِ التَّعدِّي عليه أو التعرضَ لهُ بالإيذاءِ والضررِ في نفسِهِ أو مالِهِ أو عرضِهِ أيًّا كان جنسُهُ أو لونُهُ أو معتقَدُهُ ، لأنَّ ذلكَ من مظاهر الفساد ، يقولُ نبيُّنَا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لا يَحِلُّ لمسلمٍ أنْ يُرَوِّعَ مسلمًا" (سنن أبى داود) ، ويقولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لاَ يُشِيرِ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ" (متفق عليه) ، حتى ولو كانَ الترويعُ على سبيلِ المِزاحِ ،

يقولُ نبيُّنَا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ" (صحيح مسلم).

وكذلك نهى الإسلام عن ترويع المُعَاهَد ، والمستأمن ، لما كفله لهم الإسلام من حقوق وواجبات ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" (صحيح البخاري) ، فالإيمان الصحيح يمنع الإنسان من حمل السلاح على الآمنين وترويعهم ، بل إن الإسلام نهى عن مجرد الإيذاء باللسان ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ" (سنن الترمذي) ، وفي رواية عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: "مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ" (صحيح مسلم) فلا خير فيمن يدَّعي الإسلام وهو يؤذى الناس بالقول والفعل.

والحق الذي لا مراء فيه أنَّ الإسلام دين الصلاح والإصلاح ، دين الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، دين يصون النفس الإنسانية ويحرِّم الاعتداء عليها ، فلفظ الإسلام مأخوذ من مادة السلام ؛ لأن الإسلام والسلام يحققان الطمأنينة والأمن وصيانة الحرمات ، والله تعالى من أسمائه السلام ، ورسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) يدعو الناس إلى السلام الذي يجمع القلوب على المحبة ، فيقول (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيء إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ" (صحيح مسلم).

أقولُ قولِي هَذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلى يَوْمِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

ومن صور الفساد والتخريب: الاعتداء على رجال الأمن المرابطين سواء في أرجاء الوطن أم على حدوده ، ومنها: زعزعة الاستقرار في البلاد، ونشر الأقوال المغلوطة والمعتقدات الفاسدة والتشكيك في الإنجازات الوطنية ، ومنها: العمل على بثِّ الفتنة والفرقة بين أبناء المجتمع الواحد.

وأبشعُ أنواعِ الإفسادِ هو ما استُبيحَتْ به الدماءُ باسمِ الدينِ ، والدينُ منه بَراءٌ ، قال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:٩٣].

إنه لا بد من التصدي وبحزم وحسم لكل صور الفساد ، فالمفسدون هم مِعوَل هدم للمجتمع ، والتصدي لهم فيه نجاة للمجتمع كله ، وإهمالهم وعدم التصدي لهم فيه الهلكة للمجتمع كله ، قال (صلى الله عليه وسلم): "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا" (صحيح البخاري) ، فالله (عزّ وجلّ) يدفع بالمصلحين فساد المفسدين ، قال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} [هود: ١١٦].

فالتصدي للفساد مسئوليَّةُ الجميع ، وأوَّل صور التصدي للفساد عدمُ قبوله ورفضُه وبيانُ خطورته وأثره على الفرد والمجتمع ، فلا بد من التآزر والتعاون والتناصر والتضامن بين جميع أبناء الوطن لتصل سفينة الوطن إلى بر الأمان ، كما نؤكد أن من أعان المفسدين ، أو رضي بأفعالهم ، أو تستر عليهم ، أو دافع عنهم ولو بكلمة – وخاصة من يفسد باسم الدين – فهو شريك لهم في الإثم ، وقد نهى الله (تعالى) عن ذلك بقوله: {وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ} [المائدة:٢] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّة ، حتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِم، وهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلاَ يُنْكِرُوه ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِك ، عذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ" (مسند أحمد) ، وفي مواجهة هذا الفساد والتخريب لا بد من البناء والتعمير ، فنحن نواجه صناعة الموت بصناعة الحياة ، ونعمل على تحقيق الأمن والأمان والحياة الكريمة للجميع ، وعلى كل منا أن يؤدي واجبه تجاه دينه ووطنه ، وأن ننمي روح العمل والإتقان ، وعمارة الكون ، وبناء الحضارات ، كما يجب أن نُعلِي من روح التعاون والتكافل بما يحقق الأمن والسلام والطمأنينة ، والتقدم والرخاء والازدهار للوطن جميعًا ، بل للإنسانية جمعاء.

اللهُمَّ وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا

* * *

مخاطر التطرف الفكري والانفلات الأخلاقي

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّين.

وبعد:

فمما لا شك فيه أنَّ وجوه العظمة في ديننا متعددة ، وأنَّ من أبرز مظاهر عظمته أنه دين الاعتدال والوسطية ، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] ، ووسطية الإسلام تعني: انتهاج منهج معتدل متوازن يشمل العقيدة والعبادة ، والمعاملات والأخلاق ، وليس هناك شك في أنَّ الشريعة الإسلامية راعت مصلحة الإنسان وطبيعته البشرية دون إفراط أو تفريط ، واشتملت مبادؤها على الوسطية والسماحة واليسر ، قال تعالى: {يرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[النساء: ٢٨] ، وقال سبحانه: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[البقرة: ١٨٥] ؛ وكان من هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) القصد والاعتدال ، واليسر والسماحة ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ" (صحيح البخاري) ، وتقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله

عنها): "مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِنَفْسِهِ ، إِلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ تَعَالَى ، فَيَنْتَقِمُ للهِ (عَزَّ وَجَلَّ) بِهَا" (متفق عليه).

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلامُ شرقًا وغربًا، وارتفعت رايتُه بسماحته ويسره ؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسانِ السوية ، بل إن نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليقول: "دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ ، قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا" (مسند أحمد).

إن قضية التطرف الفكري التي ابتُلِيَت بها الأمة دخيلة على الإسلام ، وإن لم تكن وليدة اليوم ، بل هي قديمة ، لها أسبابها وبواعثها ، ومن أهم أسبابها: الجهل بتعاليم الإسلام ، واتباع أناسٍ جُهَّالٍ ضلُّوا وأضلوا بغير علمٍ، ما بين متطرف في فهم النصوص الدينية ، وما بين متحلل منها ، وما بين صاحب مصلحة يتاجر بدين الله في سبيل تحقيقها ، وأول ظهوره كان فى عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) وَهْوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ ، وَهْوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ فَقَالَ: وَيْلَكَ ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَقَالَ: دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ..." (متفق عليه).

ومن أجل المحافظة على هذه الوسطية ، وذلك الاعتدال حذَّر النبي (صلى الله عليه وسلم) من كل مظاهر الغلو وخاصة الغلو في العبادة ، فأنكر على من بالغ من أصحابه في التعبد والتقشف مبالغةً تخرجه عن حدِّ الاعتدال ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ" (سنن ابن ماجه) ، وحينما دَخَلَ النبي (صلى الله عليه وسلم) الْمَسْجِدَ رَأَى حَبْلاً مَمْدُودًا بَيْنَ سَارِيَتَيْنِ ، فَقَالَ: "مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: لِزَيْنَبَ تُصَلِّي ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ ، فَقَالَ: حُلُّوهُ ، حُلُّوهُ ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ" (صحيح البخاري) ، فالإسلام يرفض الغلو والتطرف والتشدد في الدين ؛ لأنه يتناقض مع ما يتميز به من اعتدال وقَصْد.

فالتطرف شجرة خبيثة لا تثمر إلا التنازع والتدابر والشقاق والعداوة والبغضاء ، حتى يصل الأمر في نهايته إلى سفك دماء الأبرياء ، واستباحة أموالهم وأعراضهم ، وإشاعة الرعب والخوف ، واستهداف الأمن والأمان والاطمئنان ، وكلها أعمالٌ الإسلام بريء منها ، فديننا الحنيف حذَّر من تفزيع الناس ، ونهى عن ترويع الآمنين وتخويفهم ولو على سبيل المزاح ، وحرَّم التعدي عليهم ؛ لأنه إجرام تأْباه الشرائع السماوية والفطر السوية ، قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ" (صحيح مسلم) ، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى لَيْلَى قَالَ: "حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ ، فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا" (سنن أبي داود).

ولا يقتصر التطرف الفكري على التشدد فى الدين ، بل إنه ليشمل أيضا كل ألوان التفريط والتسيب والانحلال ، وبخاصة تلك الأفكار الهدَّامة التي تتجاوز ثوابت ديننا ، وتتصادم مع المصلحة الوطنية ، وذلك لما تحدثه من فوضى وصراع مجتمعي.

وعلاج هذه الظاهرة يتمثل في توعية المجتمع المسلم بكافة أطيافه بخطر التطرف الفكري وضرره في الحاضر والمستقبل ، سواء أكان ذلك إفراطًا أم تفريطًا ، غلوًّا أم تقصيرًا ، وذلك لا يكون إلا بأخذ العلم من منابعه الصافية ، وعلمائه المتخصصين ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا" (متفق عليه).

ونؤكد أنَّ من أعان أصحاب الفكر المتطرف بنشره أو الرضا به ، أو التشجيع عليه أو تستر عليهم ، فهو شريك لهم في الإثم أمام الله (عز وجل) وأمام المجتمع كله ، وقد نهى الله (تعالى) عن ذلك بقوله: {وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّة ، حتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيهِم ، وهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلاَ يُنْكِرُوه ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِك عذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ" (مسند أحمد).

فحريٌّ بكل مسلم صادق محب لدينه ووطنه أن يتخذ من التوسط منهجًا يطبقه في كل أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته وأحواله ، مقتديًا في ذلك برسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) متجنبًا كل مظاهر التطرف

الفكري والتشدد والغلو التي نهى عنها ديننا الحنيف ، والعمل على نشر سماحة الإسلام ، وترسيخ أسس المواطنة الكاملة والعيش الإنساني المشترك ، وتحقيق الحياة الكريمة الآمنة لكل الناس ، بعيدًا عن كل ألوان التكفير والتفجير والتخريب.

أقولُ قَوْلِي هَذا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

وكما أن الإسلام دين الوسطية والاعتدال فهو أيضًا دين الأخلاق الفاضلة ، فالأخلاق ركيزة من ركائز الإسلام ، لا تتغير بتغير الزمان أو المكان ، ولا تتبدَّل بتبدل المصالحِ والأهواء ، لثبوتها في القلبِ ، ورسوخها في النفسِ ، وهي إحدى ثمرات العبادة ، فما من عبادة شرعها الله من صلاة وصيام وزكاة وحج إلا ولها أثر يظهر على سلوك الفرد في السمو الأخلاقي ، بل يتعدى هذا الأثرُ الفردَ إلى المجتمع؛ ليتأكد بذلك أن الإسلام ليس طقوسًا جوفاء تؤدَّى في المسجد ولا علاقة لها بالواقع ، فيخرج المصلي بعدها ليغش ويحتكر ، ويؤذي جاره ، فإن العبادات في جميع الأديان جاءت لترتقي بالإنسان ، وتسمو بأخلاقه ، وما ذلك إلا لكون الأخلاق ميزانًا شرعيًا يهذِّب الإنسان ، ويرقى به إلى مدارج الكمال، وفي ذلك يقول ربنا (سبحانه): {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ

يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٤٥] ، وتأتي السنة النبوية المطهرة لتؤكد على أهمية الأخلاق في حياة الإنسان ، مبيِّنة الأجرَ العظيم لمن تخلَّق بالأخلاق الفاضلة ، ومن ذلك قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ" (سنن الترمذي) ، ولما سُئِلَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدخِل الناسَ الجنةَ ، قَالَ: "تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ" (سنن الترمذي) ، ثم جعل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مكارم الأخلاق من أسباب محبته والقرب منه يوم القيامة ، فقال: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إلي وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا" (سنن الترمذي).

بل إنِّ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أولاها عناية فائقة ، حيث بيَّن (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن الغاية الأولى من بعثته ورسالته إنما هي إتمامُ مكارمِ الأخلاق ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ" (مسند البزار) ، فمع أهمية أركان الإسلام جميعًا ، لم يقل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): بعثت لأُعَلِّم الناس الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو الحج ، إنما جعل الأخلاق الهدف والغاية الأسمى لرسالته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ولقد كان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مثلاً أعلى في حسن الخلق ؛ امتدحه ربه بذلك فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] ، وهذا ما أكدته أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ (رضي الله عنها) حين سُئلت عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" (مسند أحمد) ، فما شاع بين الناس بأن الأمم الأخلاق ، ليس مجرد شعار ، إنما هو واقع

عملي يتجسد على الأرض ، فالأمم التي لا تُبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها ، ولله درُ القائل:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ   فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

فبالأخلاق تحيا الأمم وتبقى آثارها خالدة ، وبزوالها وانهيارها تنهار الأمم وتسقط ، فكم من حضارات انهارت ، لا بسبب اقتصادها ، أو قوتها العسكرية فحسب ، وإنما بتردي أخلاقها ، وهي كذلك صمام أمان المجتمعات تعصمها من الانحلال ، وتصونها من الفوضى والضياع ، فسلامة الأمة وقوة بنيانها مرتبط ، بتمسكها بالأخلاق الفاضلة ، كما أنَّ شيوع الانحلال والرذيلة يأتي نتيجة لنبذ الأخلاق والأفعال الحميدة.

ولا ريب أنَّ من أخطر ما يهدد أمن المجتمع وسلامته هو الانفلات الأخلاقي الذي يعني التخلي والتجرد من كل قول أو فعل كريم ، أو التهاون في ثوابت الدين وعادات وتقاليد المجتمع الأصيلة التي تدعو إلى الأدب والرقي والتحضر ، حتى لا يصل المجتمع إلى فساد وإفساد يهدم ثوابت المجتمع ، كما أن الانفلات القيمي والأخلاقي يعد مؤشرًا على وجود خلل في المجتمع ، ينبغي تداركه والتصدي له قبل فوات الأوان ، فسقوط الأخلاق انهيار للمجتمع كله.

لذا يتوجب على الجميع أن يقوم بواجبه نحو مواجهة هذا الانفلات الأخلاقي بدءًا بالأسرة ، وانتهاءً بالمجتمع ومؤسساته ، فلكل منا دوره المنوط به ولا بد من القيام به على أكمل وجه ، قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥].

إن الانحراف السلوكي والانفلات الأخلاقي والدخول في مرحلة المجاهرة بالفسق والفجور جريمة نكراء لا تقل جرمًا عن مخاطر العنف والتطرف الفكري والإرهاب ، فكلا الأمرين مُدَمِّر للشعوب والمجتمعات ومُهْلك للأمم.

لذا اتفقت الشرائع السماوية على أصول الأخلاق وثوابت القيم التي ذكرها القرآن الكريم في قول الله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ١٥٢] ، ويقول تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠] ، فالأديان كلها قائمة على مكارم الأخلاق من الصدق ، والأمانة ، والوفاء بالعهد ، والنظافة ، والنظام واحترام آدمية الإنسان ، لا يشذُّ عنها إلى أضدادها ونقائضها من الكذب والخيانة والغدر وسوء الخلق ، إلاَّ شخص بعيد كل البعد عن معاني الأديان والإنسانية السوية.

* * *

الديـــن المعـــامـلـــة

الحمد لله رب العالمين ، جعل العمل قرين الإيمان وعلامة صحته وصدقه ، وأنكر على من آمن أن يتناقض قوله مع خلقه ، فقال في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّه أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢ ، ٣] ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الشريعة الإسلامية السمحة لها مقاصد وغايات تحقق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة ؛ ليتمكن من خلافته في الأرض ، وقد جاءت الأحكام الشرعية دليلاً ومرشدًا ؛ لتساعده في تحقيق مصالحه، وتجلب له المنافع ، وتدفع عنه الشرور والمضار ، فتدلُّه على كل خير ، وتهديه إلى الطريق المستقيم.

وما من مصلحة في الدنيا والآخرة إلا وقد رعاها الشرع ، وأوجد لها ما يكفل إيجادها والحفاظ عليها وما من مفسدة في الدنيا والآخرة إلا وحذَّر منها وأوجد لها بديلا.

قال العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: "والشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح ، فإذا سمعت الله يقول: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[البقرة: ١٠٤]؛ فتأمل وصيته بعد ندائه ، فلا تجد إلا خيرًا يحثك عليه أو شرًّا يزجرك عنه ، أو جمعا بين الحث والزجر" (قواعد الأحكام للعز بن عبد

السلام) ، ويقول أيضا: "ما أمر الله بشيء إلا وفيه مصلحة عاجلة أو آجلة أو كلاهما ، وما نهى عن شيء إلا وفيه مفسدة عاجلة أو آجلة أو كلاهما ، وما أباح شيئًا إلا وفيه مصلحة عاجلة" (القواعد الصغرى للعز بن عبد السلام)

ومن مقاصد الشريعة الإسلامية المحافظة على الكليات الست التي نادى بها رسل الله الكرام (عليهم السلام) ووجوب المحافظة عليها ، وهي الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسب ، والمال ، والعرض ، ومنها اليسر ورفع الحرج والمشقة.

إن الغاية المنشودة والثمرة المرجوَّة من الطاعات والعبادات في الإسلام هي تزكية النفوس البشرية وتقوية صلة الإنسان بربه وخالقه ، وبمن يعيشون معه في مجتمعه ؛ لتؤتي أكلها إذا صدقت النية ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاَةَ إِنَّ الصَّلَاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥].

وبالزكاة تتآلف القلوب وتتطهر النفوس والأموال ، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة ١٠٣].

وبالصوم يتدرب المسلم على الصبر ، وبالحج ومناسكه تُغرس الفضائل في قلوب المسلمين وتدعوهم إلى محاسن الأخلاق ، قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ}[البقرة : ١٩٧] ، فالعبادات والطاعات لها ثمرات جليلة

حين تجتمع مع المعاملة الحسنة والسلوك الطيب ، ومن تتبع نصوص القرآن الكريم وسنَّة النبي (صلى الله عليه وسلم) يجد أنها اعتنت بمعاملة الناس معاملة حسنة ، ولننظر إلى الآية الكريمة التي جمعت أصول فضائل المعاملة الحسنة ، قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩] ، فجمعت الآية الكريمة أصول الفضائل ومكارم الأخلاق فيما يتعلَّق بمعاملة الإنسان مع الغير:

الأول: الأخذ بالعفو ، وهو السَّهل اللين من أخلاق الناس وأعمالهم ، دون تكليفهم بما لا يطيقون ، وأن يصل الرحم المقطوعة ، وأن يرفق بالمؤمنين ، كما ورد عن أنس بن مالك عن النَّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلم): "يسِّروا ولا تعسِّروا ، وبشِّروا ولا تنفِّروا" (متفق عليه).

والثاني: الأمر بالعرف وهو المعروف والجميل من الأفعال ، وهو كل ما أمر به الله تعالى ، واستحسنه أهل الخير ، فيشمل كل خير من طاعة وبرّ وإحسان إلى الناس ، ولا يذكر المعروف في القرآن إلا في الأحكام المهمة.

والثالث: الإعراض عن الجاهلين ، ويكون هذا في عدم مقابلة السُّفهاء والجهَّال بمثل فعلهم، والابتعاد عن معاشرتهم ، والصَّبر على سوء أخلاقهم، عملاً بقوله تعالى:{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا}[الفرقان :٦٣].

جاء في تفسير الطبري عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ، عَنْ رَجُلٍ ، قَدْ سَمَّاهُ ، قَالَ:" لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ :{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[الأعراف: ١٩٩] قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟" قَالَ: مَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ الْعَالِمَ ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ: يَا

مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ" (تفسير الطبري)

لقد جاء الإسلام ليهذب السلوك والأخلاق ويسمو بالنفوس إلى درجات الرقي والتحضر ، ويدعو إلى حسن التعامل مع الآخرين ، ويعد ذلك من أعظم العبادات والقربات إلى رب الأرض والسموات.

ولما كان الدين المعاملة في القول والفعل والأخلاق ، كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) ألين الناس قولاً ، وأطهرهم فعلاً وخُلقًا ، فأظهر الفهم الصحيح للإسلام سلوكًا عمليًا عرفنا أثره في معاملته للناس ومخالطته لهم ، فكان نِعم القدوة والأسوة كما قال الله (سبحانه): {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:٢١] ، وقد أمرنا باتباعه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ؛ فيجب على كل مسلم ومسلمة أن يحسن إلى الناس قولاً وعملاً ، وأن يتخير من الكلمات أحسنها ، ومن الجمل أفضلها ، حتى ينشر المودة والألفة بين أهله وأصدقائه ومجتمعه.

فالقول الحسن اللطيف يفتح مغاليق القلوب ، ويورث المحبة والتقدير ، ويدل على سمو النفس ، وعفة اللسان ، قال تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيْنًا} [الإسراء: ٥٣].

وعن عَبْد اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضى الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ" (سنن الترمذى).

إن الأخلاق الحسنة في معاملة الآخرين – وهي سلعة نادرة – تكشف معدن الإنسان وتظهر سمو فكره ، والناس لا يحبون العابد المتكبر ، وإنما يحبون البسَّام الهيِّن المتواضع ، وهذه صفات نبيِّنا التي جمع بها من حوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩].

وإذا تتبعنا أخبار المسلمين المخلصين الأوائل وجدنا أن عامة من دخلوا في الإسلام أيامهم كان بسبب ما رأوه من حسن أخلاقهم ؛ فأقرَّت قلوب القوم قبل عقولهم أن الإسلام هو دين الله الحق فدخلوا فيه أفواجًا.

وقد حذرنا رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من سوء الخلق والمعاملة السيئة للناس حتى ولو كنت عابدًا زاهدًا فهي تضيع الأجر والثواب.

إن دين الإسلام هو دين السماحة واليسر في جميع المعاملات ، وقد أثنى (نبينا صلى الله عليه وسلم) على من كان سمحًا في بيعه وشرائه ؛ فعن جابر (رضي الله عنه): قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "رَحِمَ اللهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى ، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى ، سَمْحًا إِذَا قَضَى" (صحيح ابن حبان).

فيجب على المسلم ألا يستغل في معاملاته المالية حاجة الناس وفقرهم وشدة حاجاتهم ، فهذا من التعسير والتضييق الذي يوغر الصدور ، ويزيد الأحقاد ، وينشر الكراهية والبغضاء ، وهو ما لا يريده الإسلام ولا تقبله النفوس المؤمنة ، وليعلم الرجل السمح في بيعه وشرائه أن الله سيرحمه

في الدنيا والآخرة ، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ" (سنن الترمذي) ، وبهذا يكون المسلم قريبًا من الناس ، فإذا أحب الله تعالى عبدًا جعل محبته في قلوب الخلق وكل هذا راجع إلى حسن المعاملة وحسن الخلق ، فالإنسان المؤمن يتعامل مع الخَلْق المعاملة التي يحب أن يعاملوه بها ، فيُحسِّن خُلُقَه غير مبتغ من وراء ذلك إلا وجه الله.

ولكي تكونَ المعاملة حسنة يجب ضبط السلوكيات الأخلاقية ، وفي مقدمتها الأمانة التي يجب أنْ يتَّصِف بها المسلم ؛ فهي علامة الإيمان ، ولثقلها أبَت السماوات والأرض والجبال حَمْلَها ، وحملَها الإنسان ، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً} [الأحزاب: ٧٢].

وقد وَرَد في القرآن الكريم الكثير مما يؤكِّد أهميَّة هذا الخُلُق الكريم في أكثر من موضع ، من ذلك على سبيل المثال قولُه تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} [القصص: ٢٦] ، وقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨].

ويحذر الله تعالى المؤمنين من الخيانة بكافة أشكالها ؛ فالخائن مضيع للحقوق ، مقطع لأواصر المحبة ، يلحقه غضب الله تعالى في الدنيا وعذابه في الآخرة ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ

وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الأنفال: ٢٧] ، وهذا مما أشار إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قال: قَلَّ مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ (صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إلا قال: "لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ" (مسند أحمد) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" (سنن أبى داود).

ومما يدل على المعاملة الحسنة وانضباط السلوك الصدق في المعاملات، فالمسلم الحق صادق في كل أقواله وأفعاله ، لا خوفًا من عقاب ، ولا هروبا من عذاب ، ولا بحثًا عن مصلحة شخصية ، ولا مآرب دنيوية.

ألا فليصدق المسلم مع أخيه ؛ فقد جاء عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنّه قال: "كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ" (سنن أبي داود).

وصدق قول القائل:

عوِّد لسانك قول الصدق تَحْظَ به ... إن اللسان لما عوَّدْتَ معتادُ

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

ومن الأخلاق التي تكون دليلا على المعاملة الحسنة وانضباط السلوك الإنساني الوفاء بالعهد ، وهو خلق كريم من أخلاق الإسلام ، قال الله

سبحانه وتعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً} [الإسراء: ٣٤] ، وقال في صفات أهل الجنة: {وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المعارج: ٣٢].

وإذا نظرنا إلى سيرة الحبيب (صلى الله عليه وسلم) وجدناها ملأى بالمواقف العظيمة للوفاء بالعهد.

ولنأخذ مثلا لذلك موقفًا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل غزوة بدر حين أخبره حذيفة بن اليمان أن كفَّار قريش قد أخذوه قبل أن يدخل المدينة هو وأباه أبا حُسَيل ، فقالوا إنكم تريدون محمدًا ، قلنا: ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منا عَهْد الله وميثاقه لننصرفَنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معك يا رسول الله ، ومع أنه كان في أشد الحاجة إلى الرجال ؛ ليقاتلوا معه ضد المشركين ، وبالرغم من كلِّ هذا ، قال لهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "انْصَرِفَا ، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ" (صحيح مسلم) ، فإن كان هذا هو وفاء المسلمين لغير المسلمين ، فكيف يكون وفاءُ المسلمين للمسلمين؟! لقد دعا الإسلام إلى المعاملة الحسنة مع كل أعضاء المجتمع أطفالا وشيوخًا ونساء ورجالا ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحسن معاملة الأطفال ويفيض عليهم من حنانه ويحبهم ويقبِّلهم ويداعبهم ويلاعبهم ويسأل عنهم ، ويسلم عليهم ، ويمسح على رؤوسهم ويضع يده الشريفة على خدهم ، ويدعو لهم ويضعهم في حجره ، بل ويستمع إلى أحاديثهم.

فها هو (صلى الله عليه وسلم) قد أتي بشراب ، فشرب منه وعن يمينه ابن عباس وعن يساره الأشياخ – كبار الصحابة – فقال لابن عباس:

"أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاَءِ؟" فَقَالَ ابن عباس: "لاَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لاَ أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا" ، قَالَ فَتَلَّهُ (دفعه) رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي يَدِهِ" (صحيح البخاري).

ومن جمال سيرته (صلى الله عليه وسلم) معاملته الحسنة مع الخدم فعَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطُّ ، وَلاَ امْرَأَةً ، وَلاَ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلاَ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلاَ خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ ، إِلاَ كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ أَيْسَرُهُمَا ، حَتَّى يَكُونَ إِثْمًا ، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الإِثْمِ ، وَلاَ انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ مِنْ شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ، فَيَكُونَ هُوَ يَنْتَقِمُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ" (مسند أحمد) ، قال أنس (رضي الله عنه): "خَدَمْتُ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – عَشْرَ سِنِينَ بِالْمَدِينَةِ ، وَأَنَا غُلاَمٌ لَيْسَ كُلُّ أَمْرِى كَمَا يَشْتَهِى صَاحِبِى أَنْ أَكُونَ عَلَيْهِ ، مَا قَالَ لِى فِيهَا أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِى لِمَ فَعَلْتَ هَذَا أَوْ أَلاَ فَعَلْتَ هَذَا" (سنن أبي داود).

ولما كانت حقيقة الدِّين تتجلّى عمليًّا في إحسان معاملة النّاس ، فإنَّ مفهوم المعاملة واسع يشمَل كلَّ علاقات المسلم وغير المسلم ، فحثنا الإسلام على التعامل مع العدو معاملة حسنة.

فكان (صلى الله عليه وسلم) يتعامل مع أعدائه وهو متمكِّن منهم ، فلم يعرف التاريخ أحدًا أرحم منه مع أعدائه ، رغم ما كان يلاقيه منهم من الأذى فكان مثالاً للأخلاق الحسنة ، فماذا تقول عن رجل لا يعرف الأحقاد ، ولا يحمل إلا الخير لكل العباد؟!.

فالدين المعاملة أيها المسلم أينما كنت ، فيا أيها الطبيب كن رحيمًا بمرضاك ، خفف عنهم الآلام ولا تثقل عليهم ، وجُد عليهم بطيب الكلام وبما يبث الأمل في نفوسهم و الرجاء في قلوبهم.

الدين المعاملة أيها المسلم ؛ فلتكن أخلاقك حسنة مع الناس كل الناس ، فعنْ أَبِي ذَرٍّ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قَالَ لَهُ: "اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" (سنن الترمذي) ، فالمسلم الحق هو الذي يترجم إسلامه إلى سلوكيات إيجابية في واقع حياته ؛ ليعود أثر ذلك عليه وعلى المجتمع بكل ما هو مفيد وصالح ، وفيه النفع لعامة المسلمين ، فلقد جعل النبي الكريم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حسن المعاملة والعلاقة مع الآخرين من كمال الإيمان فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ" (صحيح البخاري).

وقال: "إِنَّكُمْ لاَ تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ ، وَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ" (المستدرك على الصحيحين).

وفي مقابل ذلك قد تكون المعاملة السيئة مع الناس سببًا لدخول النار حتى ولو مع الاجتهاد في العبادات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرَ مِنْ كَثْرَةِ صَلاَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيْرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ: "هِيَ فِي النَّارِ" قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ فُلاَنَةَ ذَكَرَ

من ذَكَرَ مِنْ قِلَّةِ صَلاَتِهَا وَصِيَامِهَا ، وَأَنَّهَا تَصَدَّقَتْ بِأَثْوَارِ أَقِطٍ (القطع من الجبن) ، غَيْرَ أَنَّهَا لاَ تُؤْذِي جِيرَانَهَا ، قَالَ: "هِيَ فِي الجَنَّةِ" (صحيح ابن حبان).

إن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الأخلاق والإيمان ، وكل عمل يقوم به العبد المسلم ينبغي أن يكون نابعًا من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة ، ولا شك أن من فقد الإيمان والتقوى فقد فقد تلك الأخلاق، وكلما كان المؤمن أكمل أخلاقًا كان أكثر إيمانًا.

والالتزام بمكارم الأخلاق فيه تقوية لإرادة الإنسان وتمرينها على حب الخير وفعله والبعد عن الشر وتركه ، وبذلك تتحقق سعادة القلب، ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة في التحلي بالأخلاق الكريمة والصفات الحسنة ، والتي تعود بالنفع على الفرد والمجتمع والأمة، ومن ثم فإن المعاملة الحسنة النابعة من الخلق القويم أمر تستحسنه الفطر السليمة على اختلاف الأماكن وتباين العصور ، و يستحق صاحبها لأجلها الثناء والتكريم.

إن المعاملة الحسنة لها عظيم الأثر على الفرد والمجتمع فهي تُشِيع المحبة والرحمة بين أفراد المجتمع ، وتزيل أسباب الشقاق ، فحين يتعامل الناس معاملة حسنة بعضهم مع بعض يسود في مجتمعهم الصدق ، والأمانة ، والوفاء بالوعود ، والتواضع ، واحترام الكبير ، والعطف على الصغير ، وتقبل النصيحة ، وأداء الواجبات بكل دقَّة وإخلاص ، حينئذٍ لن نجد مستغِلاًّ أو غاشًّا أو سارقًا أو متطرفًا أو منحرفًا ، كما أن المعاملة الطيبة

تورث التقوى والورع وتكسب ثقة الآخرين ، وتجلب الخير والبركة ، وتكون سببًا في رفع الدرجات ، والحصول على عفو الله ومغفرته.

اللهم أخلص لدينك ضمائرنا ، واملأ باليقين بواطننا ، وهبنا ظاهرًا لا نفاق فيه ولا رياء ، واجعلنا ممن يعمل بما علم ، لا ممن يقول ما لا يعمل.

* * *

□

نعمة الأمن والاستقرار

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، أحمدُهُ سبحانَهُ حمدًا يليقُ بِجلالِ وجهِهِ وعظيمِ سلطانِهِ ، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وأَشْهَدُ أَنَّ سيدَنَا محمدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، سيد الأنبياء والمرسلين ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ وعلَى مَنْ تبعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بقدرته ، ورباهم بحكمته ، وأنعم عليهم بنعم كثيرة وعظيمة لا تعد ولا تحصى ، فقال تعالى:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[النحل:١٨].

وقد أمر الله تعالى عباده جميعًا أن يذكروا نِعمَهُ عليهم ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [المائدة:١١] ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [فاطر: ٣].

ومن أعظم نعم الله تعالى التي يجب أن نذكرَها ونَذكرَ بها: نعمةَ الأمن والاستقرار ، فهي من أجلِّ نعم الله تعالى على الإنسان ؛ فبدونها لا يهدأ بال ، ولا تطمئن نفسٌ ، ولا يهنأ إنسان بالحياة حتى لو أوتى الدنيا بحذافيرها ، فالأمن للإنسان أهم من طعامه وشرابه ، فقد يجوع ويعطش فيصبر ، ولكنه يخاف فلا يكاد يهنأ براحة بال ولا يهدأ له حال.

ومن ثمَّ فإن الأمن نعمةٌ عظيمة ، لا يعرف قدرها إلا من فقدها ، وهو مطلب الناس أجمعين ، تلك النعمة طلبها إبراهيمُ (عليه السلام) لأهلِهِ وقومِهِ ، قالَ اللهُ تعالَى حكايةً عنْهُ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}[البقرة: ١٢٦].

فإبراهيمُ (عليه السلام) سأل الله (عز وجل) أن يمُنَّ على مكة بالأمن والرزق ، وقدَّم الأمن على الرزق ؛ لأن الرزق لا يستطيع المرء البحث عنه، ولا يكون له طعم إذا فُقد الأمن ، فبالأمن يهنأ الإنسان ويشعر بلذة الطعام والشراب ، فاستجاب الله لدعاء نبيه وخليله ، وجعل من مكة مستقَرًّا وبلدًا آمنًا بإرادته ومشيئته ، وجعلها وطنًا للإسلام بعد اختياره للمصطفى (صلى الله عليه وسلم) نبيًّا عربيًّا ، وذلك ببركة دعاء إبراهيم (عليه السلام) .

وموسى (عليه السلام) لما ألقى العصا – كما أمرَه ربُه (جل وعلا) ، ورأى أنها قد انقلبتْ إلى حيةٍ تسعى ، ولَّى مدبرًا ولم يلتفتْ من شدة الخوف ، فهو أحوج ما يكون في مثل هذه الحالة إلى الأمن ، فأعلمه ربه أنه من الآمنين ؛ ليهدأ رَوْعه ، وتسكن نفسه ، ناداه ربُه قائلاً: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ} [القصص:٣١] .

كمَا امتَنَّ اللهُ جلَّ جلالُهُ علَى أهْلِ قُريشٍ ، فحبَاهُمْ برَغَدِ العيشِ فِي الحياةِ ، والأمْنِ فِي الأوطانِ ، قالَ تعالَى عنْهُمْ: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش:٣،٤].

ومما يدل على أهمية هذه النعمة ما رواه الترمذي وغيره من حديث ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلاَلَ قال: "اللهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيمَانِ ، وَالسَّلاَمَةِ وَالإِسْلاَمِ ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا تُحِبُّ وترْضَى ، رَبُّنَا وَرَبُّكَ الله" (صحيح ابن حبان).

فالأمن نعمةٌ ، واختلاله شرٌّ ونقمة ، بل إن اختلاله يؤثر حتى في العبادات – وهي الهدف الأول من خلق الإنسان – ولهذا كانت صلاة الخوف مختلفة عن صلاة الأمن في صفتها وهيئتها ، والحج كذلك يشترط في وجوبه على الإنسان أمن الطريق ؛ فإذا كان الطريق غير آمن فلا يجب عليه الحج ، فالعبادات لا يتأتى الإتيان بها على أكمل صورها إلا بنعمة الأمن والاستقرار ، ولا يُغيِّر الله على قومٍ أمنَهم ورخاءَهم إلا حين يكفُرون بنعم الله ، قال تعالى: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل:١١٢].

والمتأمل في جوهر الشريعة الإسلامية يلحظ بوضوح أنها قد جاءت لتحقيق مصالح العباد بالأمن والاستقرار ، فحفظت للناس كافة حقوقهم في دينهم ، وأنفسهم ، وعقولهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وجعلت الحفاظ على هذه الضروريات من أهم مقاصدها التي لا تستقيم الحياة إلا بها ؛ لأن الإنسان يحتاج في حياته إلى الأمن على نفسه ودينه وعرضه وماله.

ومن ثمَّ فقد حرَّم الإسلام الاعتداء على الكليات الخمس ، واعتبر مرتكبها فاسقًا ما لم يحدث توبة ، ومنها: حرمة النفس ، فقد نهى الشارع الحكيم عن قتل النفس لما لها من حرمة عند الله (عز وجل) ، فقال تعالى:

{وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَ بِالْحَقِّ} [الإسراء:٣٣] ، ثم جعل عز وجل قتل نفس واحدة بمثابة قتل للناس جميعًا ، فقال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة:٣٢].

والأمر لا يقف – هنا – عند حد القتل المادي فقط ، بل يشمل أيضًا القتل المعنوي في شتَّى صوره وأشكاله ، سواء كان ذلك بالإذلال أو القهر أو التعذيب أو سلب الحرية ، أو بغير ذلك من الصور، فحرمة النفس المؤمنة أعظم عند الله من حرمة الكعبة ، كما جاء في قول النَّبِي – صلى الله عليه وسلم – مخاطبًا الكعبة: "مَا أَطْيَبَكِ! وَأَطْيَبَ رِيحَكِ! مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلا خَيْرًا" (سنن ابن ماجه).

كذلك نهى الشارع عن أكل أموال الناس بالباطل لحرمتها ، فقد أمَّنَ الإسلام مال المسلم ، فمنع المسلم من أكل الحرام ، ومنعه من المكاسب الخبيثة المحرمة التي لا تتفق مع الشرع ، وأمَّنَهُ من التعدي عليه فأوجب قطع يد السارق ؛ حفاظًا على المال من الضياع، وحذر الأمة من أن يأكل بعضهم مال بعض ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} [النساء:٢٩] ، وحرم التعدي عليه ظلمًا وعدونًا ، قال (صلى الله عليه وسلم): "لا يَحِلُ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بِطِيب نَفْسِه" (سنن الدارقطني) .

وكذلك حفظ الشارع للعرض حرمته فأوجب صيانته ، وتوعد المخالف باللعنة ، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور:٢٣] ، كذلك نهى الشارع عن الاقتراب من الفاحشة فقال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً}[الإسراء:٣٢] ، وعلى ذلك فإن وقعت هذه الجريمة النكراء كان الحدُّ وكانت العقوبة ، كما يصورها قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور:٢].

وبعد أن أمر الإسلام بحفظ الحرمات من النفس والمال والعرض أكد كذلك على الأمن الاجتماعي ، فأمَّنَ الإسلام المجتمع من الفوضى والاضطرابات والنزاعات والشقاق ، فأوجب طاعة ولاة الأمور في طاعة الله؛ فقال وهو أصدق القائلين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء٥٩] ، فبالولاة يقيم الله العدل في الأرض ، وبالولاة يُنتصف للمظلوم من ظالمه ، وبالولاة تُحقن الدماء ، وتُصان الأعراض ويُقام شرع الله.

وأمَّنَ الأعراض فحَرَّمَ على المسلم أن يغتاب أخاه أو يسعى بالنميمة أو يسخر من أخيه أو يستهزئ به أو يلمزه ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات:١١] ، وأمَّنَ

المجتمع من إشاعة الفاحشة ، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النور:١٩] ، وقال تعالى: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَ قَلِيلاً} [الأحزاب٦٠].

وقد شرع الله تعالى القصاص والحدود والعقوبات الشرعية زواجر ليُؤَمِّنَ الناسَ على دمائهم وأعرضهم وأموالهم ، وإلا سُلبت نعمة الأمن – والعياذُ بالله – وفشا الجهل ، وشاع الظلم ، وسُلبت الممتلكات ، وأكل القوي الضعيف ، وعمت الفوضى ، وتعطلت المصالح ، وكثر الهرج.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن الأمن لا يتحقق في حياة الناس بمجرد أمنهم على دمائهم وأموالهم فهذا أمن ناقص ، بل إن ذلك لن يتحقق إلا بشعور الإنسان بالأمن الداخلي في نفسه ، وقلبه وتفكيره ، وإحساسه بالطمأنينة والسكينة ، وبعده عن أسباب الخوف والقلق والانزعاج ، وهذا لا يتأتى إلا إذا أمن العبد على دينه فلم يفتن فيه ، وأمن على نفسه من الظلم والاعتداء ، وأمن على عرضه وعقله وماله ، وكل هذا لا يطمح في الحصول عليه إلا

في ظل الدين الذي أكمله الله عز وجل للأمة ، ورضيه لها دينًا ، ألا وهو دين الإسلام العظيم ، الذي شرع الله (عز وجل) فيه من العقائد والأحكام ما إذا أخذ العبد بها ، فإنه يحصل على الأمن والأمان ، والسكينة والاطمئنان.

فمِنْ أهمِّ عواملِ الأمن والاستقرارِ الإيمانُ باللهِ تعالَى واجتنابُ نواهيهِ، كما قالَ سبحانَهُ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[الأنعام: ٨٢] ، فمَنْ حقَّقَ الإيمانَ ، واجتنَبَ العِصيانَ ، وهبَهُ اللهُ تعالَى الأمنَ ورزقَهُ الأمانَ ، بل إن سعادة الدنيا ونعيمها في تحقيق الأمن ، قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا" (سنن الترمذي).

إن الأمن والاستقرار ليس مسئولية الحاكم وحده ، ولا مسئولية العالِمِ وحده ، بل مسئولية الجميع ، فعلى كل إنسان القيامُ بمسؤوليَّته وواجبه في المحافظة على هذه النِّعمة ؛ فالأمنُ نعمةٌ للجميع ، تاجرًا، ومُعلِّمًا ، ومُفكِّرًا ، وإعلاميًّا ، وغيرهم من جميع أطياف الوطن.

وحريٌّ بالمسلم أن يحافظ على هذه النعمة ، ويشكر الله تعالى عليها ؛ لأن الحياة لا تُطاق بدونها ، فالنعم تثبت بالشكر ، وتذهب بالجحود ، قال تعالى في ذلك: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧].

فإذا شاع الأمن في أمة ، واطمأن كل فرد فيها على نفسه وماله وعرضه نَعِمَ المجتمع بحياة هادئة مستقرة ، لا رعب فيها ، ولا اضطراب ، ولا قلق ،

ونَعِمَ المجتمع كذلك بالتقدم والازدهار ؛ حيث إنه لا تروج تجارة ، ولا تنتج صناعة ، ولا تربو زراعة إلا في مثل هذا الجو الآمن الصافي ، وفي ظل الأمن ينعم المجتمع بعلاقات طيبة مع جيرانه من الدول الأخرى ؛ إذ لا اعتداء ، ولا خيانة ولا نقض لعهد.

هذا هو دين الإسلام الداعي لكل أمن وأمان واستقرار ، النابذ لكل عدوان وإرهاب ، ففي الحديث الشريف يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لاَ إِيْمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِيْنَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ" (صحيح ابن حبان) ، فالإيمان مصدر الأمان ، وصدق الشاعر حين قال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينًا

ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينًا

اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

❊ ❊ ❊

عوامل القوة والنصر
وأسباب الهزيمة والضعف

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وعد عباده المؤمنين بالنصر والتمكين ، إن هم أقاموا تعاليم الدين القويم، فقال في محكم التنزيل: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: ٥٥] ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإذا كان رمضان شهرَ التقوى والصيام ، وشهر الصبر وتلاوة القرآن ، وشهر النفقة والإحسان ، فهو أيضا شهرُ الانتصارات ، وشهر الفتوحات ، إذ منَّ الله تعالى فيه على الأمة الإسلامية بالنصر على أعدائها في المعارك التي خاضتها قديمًا وحديثًا ، منذ عصر النبوة إلى عصرنا الحاضر ، فما من غزوة من الغزوات ، ولا معركة من المعارك خاضها المسلمون في هذا الشهر العظيم إلا وتحقق لهم النصر على أعدائهم ، وكُتب لهم الغلبة والتمكين.

وفي ذلك دلالة على المنزلة العظيمة لهذا الشهر الكريم عند الله سبحانه وتعالى ، وفيه دلالة أيضًا على أن رمضان ليس شهر تكاسل وتقاعس؛ بل هو شهر جدٍّ واجتهادٍ ونشاطٍ وإقبالٍ على كل ما يرضي الله تعالى.

ففي رمضان ، في السابع عشر منه ، في العام الثاني من هجرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) كان انتصار المسلمين في بدر ، حيث خاض المسلمون أول معركة ، فَرَّق الله فيها بين الحق والباطل، مرورًا بفتح مكة والذي تم – أيضا – في هذا الشهر المبارك في العام الثامن للهجرة ، وهو الفتح العظيم الذي تحطمت فيه الأصنام وثبت به الحق والصواب ، وزهق الباطل.

والمتأمل في التاريخ الإسلامي يجد كثرة انتصار المسلمين في شهر رمضان المبارك ، ففي هذا الشهر من العام الرابع عشر من الهجرة انتصر المسلمون في معركة القادسية على الفرس ، وفي عام ٦٥٨ من الهجرة كانت موقعة عين جالوت التي انتصر فيها المسلمون على التتار ، وفي تاريخنا المعاصر كان انتصار العاشر من شهر رمضان ، سنة ١٣٩٣ هجرية ، ذلك اليوم التاريخي الفذ الذي أعاد لمصر والوطن العربي والإسلامي مشاعر العزة والكرامة ، فشهر رمضان هو شهر الفتوحات والبطولات والانتصارات.

وإذا كانت الأيام دولاً بين الناس ، يتقلبون فيها بين نصرٍ وهزيمةٍ ، فإن للنصر أسبابه التي لا يتحقق إلا بها ، وللهزيمة أسبابها التي لا يَحُول دون وقوعها إلا اجتنابُها ، وقد جاء في القرآن الكريم وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) نصوص صريحة واضحة ، تبين هذه الأسباب التي من أخذ بها فاز بحلاوة النصر ، ومن أهملها ذاق مرارة الهزيمة.

ومن عوامل القوة التي تساعد على النصر: **الإيمان الصادق والعمل الصالح** ، والصبر والثبات وتحمل المشاق ، والتوكل على الله (عز وجل)

وحده مع الأخذ بالأسباب من الوَحدة والتآلف ، والتنظيم الدقيق والإعداد الجيد ... إلى غير ذلك من عوامل القوة.

فأما الإيمان الصادق بالله سبحانه فيتمثل في طاعة الله تعالى بالامتثال لأوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ويتجلى ذلك في قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٥-٤٦].

إن المسلم الحق يدرك أن النصر لا يأتي إلا من عند الله ، وحين يترسخ الإيمان في قلب المؤمن يكسبه ثقة فيما عند الله (سبحانه وتعالى) فيركن إليه ، ويتوكل عليه ، ويطلب منه المدد والتوفيق ، والنصرة والتمكين قال تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[آل عمران: ١٢٦] ، والمسلمون الأوائل في معاركهم كانوا على وعي تام ويقين أكيد أن نصرهم على عدوهم ليس بالعدد الكثيف ، ولا بكثرة الأسلحة والمعدات ، قال تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

وهو (سبحانه) إنما يمن بالنصر على عباده المؤمنين الذين ينصرون دينه ويستقيمون على منهجه ، ويتبعون أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم} [محمد: ٧].

ومن ثمَّ فإنه ينبغي علينا أن ننصر الله تعالى بأقوالنا وأعمالنا وقلوبنا ، ونصرنا لله تعالى يكون بتعظيم دينه وامتثال أمره وإعلاء كلمته وتحكيم

شرعه والجهاد في سبيله ، وانتصار النفس على شهواتها وملذاتها ، ولا يتأتى ذلك إلا بعزائم صادقة وقلوب راسخة بالإيمان {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١].

ومن نصرَه اللهُ (عز وجل) فلا غالِبَ له من الناس ، ولن يضُرَّه خُذلانُ الخاذِلين ، قال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٦٠] ، وقال (جلَّ ذكره): {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١-١٧٣].

فاستكمال حقيقة الإيمان ومقتضاه من الأعمال الصالحة ، تحقَّق النصر والتمكين للمؤمنين ، قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر:٥١] ، وقال تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: ٥٥].

كذلك من عوامل القوة وأسباب النصر: **الصبر والثبات وتحمل المشاق**، فرمضان شهر الصبر والتقوى والمراقبة الدائمة لله عز وجل ، وهو شهر تقوية الإرادة ، وبناء الشخصية الإسلامية بشقيها الروحي والبدني.

إن كل هذا يمنح المسلم من القوة ما يجعله يقف أمام أعدائه ثابت الجأش ، قوي العزم ، يصبر ويصابر ويرابط إلى أن يحقق الله له النصر ، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠] ، فالصبر الذي هو ثمرة الصيام ، هو أيضًا من أسباب النصر ، وقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ" (مسند أحمد) ، والمسلم لا يتمثل صبره في مواجهة العدو في ساحة المعركة فحسب ، بل إن الصبر خلق وسلوك يتجليان في جميع نواحي حياته ، وفي طريق دعوته ودفاعه عن هذا الدين ؛ فالصبر والثبات ، والإكثار من ذكر الله، من أكبر أسباب النصر في حياة المسلم عامة.

ومن عوامل القوة والنصر – أيضًا –: **التوكل على الله (عز وجل) وحده** ، والاعتماد عليه ، مع الأخذ الجاد بالأسباب: فالمسلم إذا وقع في كرب شديد لجأ إلى الله رب العالمين داعيًا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، وصدق ربنا حيث قال: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف: ٦٧] ، فمع اشتداد الأزمة والشدة يكون الفرج القريب ، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف: ١١٠].

ولقد أشار الله تعالى إلى حقيقة التوكل في المعارك مع الأعداء والاعتماد عليه فقال: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: ١٦٠] ، يقول الشوكاني معقبًا على هذه الآية: "من علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه ، وأن من نصره الله لا غالب له ، ومن خذله لا ناصر له ، فوض أموره إليه وتوكل عليه ولم يشتغل بغيره" (فتح القدير للشوكاني) ، وقد حثنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) على التوكل على الله تعالى فقال:

"لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا " (سنن الترمذي).

وكما أمرنا الله عز وجل بالتوكل عليه والأخذ بأسباب النصر ، فقد نهانا عن التكاسل والتخاذل والتواكل ، وأمرنا بالجد والإخلاص والمثابرة ، ومن الأخذ بالأسباب الإعداد العسكري والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي ببناء الإنسان الصالح الساعي إلى عمارة الكون الذي يعرف حق وطنه عليه ويعمل لأجله.

ولقد رأينا في معركة العاشر من رمضان حينما عادت الأمة كلها إلى الله، القادة والجند ، والأمة من ورائهم في المساجد ، وصيحة (الله أكبر) في الميدان ، لاحت بوادر النصر ؛ لأن منزل النصر ومدبره إنما هو الله (عز وجل).

كذلك يضع الله عاملاً آخر للقوة وسببًا من أسباب النصر ، وهو: الوحدة والتآلف بين أبناء الوطن الواحد ؛ وحدة في الفكر والشعور ، وحدة في الهدف والغاية والمصير.

إن الإيمان بالله ، وبقدسية الأوطان ، يجعل الأمة متماسكة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى كله ، إنها أمة لا مكان للعداوة بين أفرادها ، ولا تمييز بين عناصرها ، ولا صراع بين طبقاتها ؛ قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠].

ويترتب على هذه الأخوة الحب والسلام والتعاون والوحدة ، أكد هذا نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بقوله: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ

وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (متفق عليه) ، وقال في حديث آخر: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ" (متفق عليه).

إن الوحدة والتآلف تهبان الأمة القدرة على مواجهة التحديات ، قال تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون:٥٢] . وقال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٩٢].

ولا ريب أن توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة ودوام دولتها ونجاح رسالتها ، فينبغي توحيد الصف ، وجمع الكلمة ، والالتفاف حول هدف واحد ، وقيادة واحدة، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}[الصف: ٤]، وهكذا كانت أخلاق السلف الصالح عملاً بقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[آل عمران: ١٠٣] فلا نصر لقوم متفرقين مشتتين ، متباغضين متنافرين ، لا نصر إلا بصف متحد ، وبقلوب متآلفة ، وأخوة غامرة .

إن التعاون على البر والتقوى من المسلمات الإيمانية لدى الفرد المسلم والتي بها تتكون الأمة المترابطة المتماسكة ، قال الله تعالى: {وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ}[المائدة : ٢] .

كذلك من عوامل القوة والنصر: **الإعداد الجيد** ، فإن الجهاد في سبيل الله تعالى يحتاج إلى الإعداد الذي يواكب المرحلة التي يعيشها المسلمون ، وهو من أقوى عوامل القوة والنصر ؛ لذلك كان الأمر الإلهي بإعداد العدة قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ}[الأنفال: ٦٠].

ويتضح من هذه الآية أن الله تعالى أمر بإعداد القوة ورباط الخيل، وأن الهدف من ذلك هو إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلادنا ، كما يتبين أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم ، وإيقاع الرهبة والرعب في قلوبهم ، مما يحقق النصر عليهم ، ويتبين أيضا أن الإسلام يحاول – ما أمكنه ذلك – تجنب الصدام مع الآخرين ما كف الأعداء أيديهم ، فهو لا يبحث عن الدماء يريقها ، بل يسعى في كل سبيل لحقنها والحفاظ عليها ، غير أن هذا لا يعني – بحال – أن نحيا بلا جيش يُبقِي جانبنا مرهوبا لكل من تسول له نفسه الاعتداء على حرماتنا الآمنة ، فالمطلوب أن نأخذ بجميع الأسباب المتاحة والميسرة في إعداد القوة من الوسائل الحديثة المعاصرة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إذا كانت هذه هي الأسباب التي جعلها الله محققة للنصر والتمكين ، فإن ثمة أسبابًا أخرى جعلها الله جالبة للهزيمة والبوار ، وهي كما سنرى على الطرف المقابل لأسباب النصر فمن ذلك :

الشقاق والاختلاف: فإن الشقاق يضعف الأمم القوية ويميت الأمم الضعيفة ، ومن هنا فقد كانت أول نصيحة للمسلمين بعد انتصارهم في غزوة بدر حينما اختلفوا على الغنائم ، أن يوحِّدوا صفوفهم ويجمعوا أمرهم ، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال:١].

وجعل الله التنازع والاختلاف محلاًّ للضعف وداعيًا للسقوط في هوَّة العجز والكسَل عن كلِّ مصلحةٍ دنيويَّة أو أخرويَّة ، وتحويل الأمة إلى لقمة سائِغة في مخالب الأعداء ، فمن نظر نظرَةً في أحوال الشعوب ماضيها وحاضِرها ولم يكن مصابًا بموت القلب وعمَى البصيرة أدرَك سرَّ أمرِ الله في قوله: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا} [آل عمران: ١٠٣] ، وسرَّ نهيه سبحانه في قوله :{وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦].

لقد نهت الآية عن التنازع والاختلاف والشقاق ، فإن الشقاق إذا دبَّ في جماعة قطع أواصر المودة بين أفرادها ، وزرع الأحقاد في نفوسها ، وانشغلت بنفسها عن عدوها ، فتضعف قوتها ، وتسقط هيبتها ، وتزول دولتها، ويحل بها الفشل في جهادها وجهودها ، ويحال بينها وبين تحصيل مقصودها.

والذي يبدو أن الذي يقضي على كيان الأمة ليس مجرد الاختلاف ، وإنما هو الخلاف المبني على الهوى ، وحب الظهور والاعتداد بالرأي ،

والتعصب له ، إنها الأنانية التي تدعو صاحبها إلى التمادي في الباطل والاغترار به.

وقد شهد الواقع أن الخلاف والشقاق يورثان الفشل والهزيمة ، ففي غزوة أحد حينما اختلف المسلمون وتنازعوا وخالفوا أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) لحقت بهم لطمة موجعة أفقدتهم سبعين شهيدًا ، ومن قبل الواقع شهد رب السموات والأرض ؛ فجاء نهيه عن التنازع في قوله تعالى: {وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦] ، ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شديد الاحتراس والتحذير من عواقب الخصام والفرقة والتنازع ، وكان في حله وترحاله يوصي بالتجمع والاتحاد في السلم وفي الحرب ، فعن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "الشَّيْطَانُ يَهُمُّ بِالْوَاحِدِ وَالاِثْنَيْنِ ، فَإِذَا كَانُوا ثَلاَثَةً لَمْ يَهُمَّ بِهِمْ" (السنن الكبرى للبيهقي).

كذلك من أسباب الهزيمة والضعف: **التنافس على الدنيا** ، فإن التعلق بالدنيا ومحاولة التلذذ بملذاتها يؤدي بالمرء إلى الحرص عليها لدرجة الشعور بالبقاء الأبدي فيها ، حتى يصل به الحال إلى أن يهون حال الأمة في نظره لأجل دنياه هو ، وينسى قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران:١٨٥].

لقد كان التعلق بالدنيا من البعض سببًا للهزيمة بعد النصر في غزوة أحد حيث أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ

فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢].

ولقد كانت عين المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ترى هذا الأمر من بعيد حيث قال: "فَوَاللهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ" (متفق عليه) ، ويخبرنا المصطفى (صلى الله عليه وسلم) كذلك بأن تداعي الأمم على المسلمين واحتلال أراضيهم وخيراتهم وأموالهم ناتج عن حب الدنيا وكراهية الموت ، فيقول في حديثه الشريف: "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا" ، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ" ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ". (سنن أبي داود) ، وواقع الأمة اليومَ يجسِّد هذا الحديث ويوضحه ، فأعداد المسلمين كثيرة ، لكنها لا تفرح صديقًا ، ولا تخيف عدوًا ، فهم غثاء كغثاء السيل.

ومن أسباب الهزيمة والضعف: **اقتراف الذنوب والمعاصي** ، فقد يبتلي الله تعالى الأمة بتأخير النصر أو تمكين الأعداء بسبب الذنوب والمعاصي ، قال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}[آل عمران:١٦٥] .

إن الوقوع في المعاصي من أكبر أسباب الهزيمة؛ لأنها طريق الشيطان، يستَدرِج إليها من يطيعه ، بادئا بصغائر الذنوب ، ثم الكبائر التي يؤدي

انتشارها في الأمة إلى الهزيمة ، ولقد حذرنا الله تعالى من الشيطان وألاعيبه عندما تحدث عن غزوة أحد حيث قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[آل عمران:١٥٥] ، فقد ذكرت هذه الآية المصاب الجلل في غزوة فتحدثت عن موانع النصر ، وهي الذنوب والمعاصي ممثلة هنا في مخالفة أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مما جعل للشيطان عليهم سبيلاً ، وأوقعهم في الزلل ، أي الهزيمة وعدم الثبات في المعركة ، وهذه سنة الله تعالى التي لا تتخلف ولا تتعطل ، وهي أن الهزائم لا تقع إلا بسبب أعمال يصيبها المسلم.

إن اجتناب المعاصي والتحذير منها من أعظم أسباب فلاح الأمة ؛ فالمعاصي مفتاح لكل شر ومغلاق لكل خير ، وبسببها يتصدع كيان الأمة وتزول هيبتها ، وهذا ما فهمه المسلمون الأوائل رضوان الله عليهم.

فقد تتابعت وصايا الأمراء والخلفاء إلى قوادهم في المعارك بطاعة الله والبعد عن المعاصي ، وهذا ما أكده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في وصيته إلى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنهما) ومن معه من الأجناد حيث قال: "أما بعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان

لهم الفضل علينا في القوة" (العقد الفريد) ، فمن عوامل الهزيمة إذًا الوقوع في المعاصي ، فهي أشد خطرًا على جند المسلمين من أعدائهم ، وأشد منها المجاهرة بها ، وهذا ما نشهده في أيامنا هذه ، فإن ارتكاب المعاصي والآثام والموبقات والمجاهرة بها مما يلحق بألأمم الهزائم المتكررة.

كذلك من أهم أسباب الهزيمة والضعف: **الإعجاب بالكثرة**: فإن المسلم الذي يؤمن بالحق ويدافع عنه بكل ما يملك لا يقعده عن ذلك قلة عدد أو انعدام عتاد ، ويظل على تمسكه بالحق والدفاع عنه ، حتى يظهره الله أو يموت دونه .. ويوم يزهو المسلمون بما معهم من عدد ، أو ما يحوزونه من عتاد ، ينجرون للدخول في دائرة الإعجاب بالنفس والاغترار بالقوة والكثرة ، وهو ما يؤدي بهم إلى الهزيمة والانكسار كما وقع في يوم (حنين) ، ففي ذاك اليوم أُعجب المسلمون بكثرتهم ، وكانوا اثني عشر ألفًا فقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة ، فقال تعالى مخبرًا عن ذلك: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شيئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٢٥-٢٧] ، والحكمة في ذلك أن يعلم العباد أن النصر من عند الله تعالى ، وأن الأسباب ليست وحدها كافية في الانتصار ودحر الأعداء.

هذه هي مقوِّمات النَّصر ، وأسباب الهزيمة ، فما أحوجَنا إلى التأمل والتدبر فيها لأخذ العبر والعظات ، وصدق الله العظيم: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

فالأمة التي تريد النصر – والنصر من عند الله – تنهض لأمر الله طاعة وعبادة والتزامًا ، إيمانًا صادقا تؤثر به الآخرة على الدنيا ، وعملاً جادًّا تسعى به إلى الآخرة ، ولا تطلب الدنيا للدنيا.

ومن أهم أسباب الهزيمة والانكسار: **الخلود إلى الراحة والكسل وعدم الأخذ بالأسباب** ، فأمة لا تنتج غذاءها وكساءها ودواءها وسلاحها ، ولا تملك أسباب قوتها ، لا مكان لها في عالم اليوم ، ولا تستطيع أن تستقل بقرارها ، فلابد من أن نعمل ، وأن ننتج ، وأن نسعى إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي في جميع المجالات ، وليس ذلك إلا بالجهد والعرق والصبر والمثابرة.

ونؤكد أن الإرهاب وترويع الآمنين لا علاقة له بالجهاد ولا بالإسلام أصلاً ، فقد حرَّم الإسلام قتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، كما حرَّم الاعتداء على المال أو العرض وترويع الآمنين ، بل جعل جزاء من يعيثون في الأرض فسادًا ، شديدًا وحاسمًا ، حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣].

اللهم ارزقنا العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، اللهم ما رزقتنا مما نحب ، فاجعله قوة لنا فيما تحب ، وما صرفت عنا مما نحب، فاجعله فراغا لنا فيما تحب .

* * *

قيمة العمل بين بناة الأوطان ودعاة الهدم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، قرن بين الإيمان والعمل في كثير من آيات الذكر الحكيم ، وجعل جزاء من لم يجمع بينهما الخسران المبين ، فقال: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:١-٣) ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

لقد نظر الإسلام إلى العمل نظرة توقير وتمجيد ، فرفع قدر العمل وقيمته وجعله سبيلا للرقي والتقدم ، وجعله عبادة يثاب عليها ، وغدا الكسلُ وترْكُ العمل في شرعة الإسلام نقصًا في إيمان المؤمن ، فقد حث القرآن الكريم من خلال آياته على السعي على المعاش والعمل، وجاء الأمرُ بالانتشار في الأرض طلبًا للرزق الحلال بعد الأمر بالصلاة يقول الله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة:١٠]، وكان سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ قَالَ: "اللهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي ، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (تفسير ابن كثير) ، ولفت الحق أنظارنا إلى أنه جعل الأرض مسخرة لنا ؛ لنسعى فيها ، ونطلب من رزقه فقال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥].

وقد وردت في القرآن الكريم نحو ثلاثمائة وستين آية تحدثت عن العمل ، كما أن السنة النبوية المطهرة زاخرةٌ بنصوص الجدِّ والاجتهاد والحثِّ على العمل والبناء ، و ترك الخمول والكسل ، وأن العمل سبيل لحفظ ماء الوجه والرفعة والعزة ، فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "لأَنْ يَحْتَطِبَ أحَدُكُم حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ" (صحيح البخاري) ، وكان سفيانُ الثوريّ (رحمه الله) يمرُّ ببعض الناس وهم جلوسٌ بالمسجدِ الحرام ، فيقول: "ما يُجلِسُكم؟ قالوا: فما نصنَع؟! قال: اطلُبوا من فضلِ الله ، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين" (حلية الأولياء لأبي نعيم).

إن العمل الصالح الذي يعود بالفائدة على المجتمع يُجرى الله به الأجر على صاحبه في الدنيا والآخرة ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً ، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ..." (صحيح مسلم) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ (شكٌّ من الراوي) أو كَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُر أوَ كَالصَّائِمِ وَلاَ يُفْطِرُ" (متفق عليه) ، فالعمل المفيد يريح النفس ، ويسعد القلب ويُطيِّب العيش ، ويذهب الحزن والهم والقلق ، فالمسلم يجد فرحة ولذة بعد إتمام كل عمل صالح يعمله ، وهذه السعادة لا تُباع ولا تُشترى ، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل:٩٧].

ولا يستوي من يعمل صالحا ومن يعمل سيئًا في الحياة ، كما لا يستويان في الممات {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[الجاثية: ٢١].

إنّ الحياة مزيج من الكفاح والتعب والعمل ؛ فلا مكان فيها للخاملين والمتخلفين عن ركب الحضارة الذين لا يبذلون من الجهد إلا القليل ثم ينتظرون أن تمنحهم الحياة نعيمها ، وإذا أردنا الوصول إلى ما نصبو إليه ، فلا بد من بذل جهدٍ مفيدٍ يكافئ غايتنا المرجوة وهدفنا المنشود.

لقد رصد الإسلام لمن يسعى على كسب معاشه ورزق أولاده من حلال أجر الشهيد أو المرابط في سبيل الله ، فَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ" (المعجم الصغير للطبراني).

ومن القِيَم الخُلقيَّة المؤثرة في مجال العمل والإنتاج الإتقان ؛ لذا فقد حض عليه الإسلام ، وعدَّه أمانة ومسؤوليَّة في عنق العامل أو الموظف ، فليس المطلوب في الإسلام القيام بالعمل فحسب ، بل لا بُدَّ فيه من الإخلاص مع الإتقان والإجادة وأدائه على أكمل وجوهه؛ فذلك ليس

سببًا لتحقيق النجاح المادي في الدنيا فحسب ، بل هو قبل ذلك سبب للوصول إلى محبَّة الله تعالى ، ومن أحبه الله هداه واجتباه ، وحفظه ووقاه وأسعده في الدنيا والآخرة ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "إنَّ الله يحبُّ إذا عمِل أحدُكم عملاً أنْ يُتقِنه" (شعب الإيمان البيهقي) ، فالله سبحانه وتعالى يحب اليد التي تعمل وتجدُّ ؛ لتقدم الخير لنفسها ودينها ووطنها ، فبالعمل المتقن نتبوأ الصدارة بين الأمم.

وتقدم الأمة في الصناعات المختلفة وريادتها في الأعمال المبتكرة يحقق لها الحصانة من الأعداء المتربصين بها ، والطامعين في ثرواتها وخيراتها ، والناظر في آيات القرآن الكريم ، وفي أحاديث رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، يرى العناية الكبيرة بكل ما يصلح حياة الإنسان في دينه ودنياه ويصلح حياته ومماته ، وقد جعل الله النجاح والصلاح في الدنيا مرتبطا بالعمل الجاد الصالح ، وارتباط السعادة و الفوز به ليس مقصورًا على الآخرة وحدها ، فلا يخيب سعي ساع ، ولا جهد مجتهد في الدنيا ولا في الآخرة ، يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات إِنَّا لاَ نُضِيع أَجْر مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} [الكهف:٣٠] ، فمن عمل أُجر ومن قعد حُرم.

والإنسان بعمله المتقن هو أساس التنمية والتقدم والازدهار ، فهو صانع التغيير والتطوير بإذن الله تعالى ، فلا تتحقق تنمية أو ازدهار إلا من خلال إنسان مبدع متقن فاعل منظَّم ، ولا يتحقق نمو ولا رخاء إلا عبر مجتمع ناهض ، والأوطان لن تتجاوز تخلفها إلا إذا استثمر أبناؤها قدراتهم في

الإبداع والعمل والبناء ، فلا بد من تعزيز إرادة العمل ببذل أقصى الطاقة والقدرة من أجل بناء الوطن ، وصناعة المستقبل الأفضل والعيش الرغيد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

لقد حثَّنا الإسلام على الاحتراف والعمل والإنتاج ، ورغَّبنا فيه وشجَّعنا عليه ، وصغَّر مِن شأن مَن يتهاون به أو يحتقره ، ومما يدل على ذلك أن القرآن الكريم عرض لنا في مقام الامتنان صورًا من الصناعات التي هي من مقومات الحياة كصناعة الحديد وما فيها من فوائد في الحياة ، قال الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [الحديد: ٢٥] ، فمن الحديد نصنع الدروع وهي مهنة داوود (عليه السلام) قال تعالى: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[سبأ :١٠ ، ١١] ، ومن الصناعات التي لا يستغني عنها الإنسان صناعة الملابس والكساء: {وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [النحل: ٨٠] ، وقال فيها أيضا: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} [النحل:٨١] ، وقال سبحانه في صناعة الجلود: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ} [النحل: ٨٠].

وقال في حق نبي الله نوحٍ (عليه السلام) في صناعة السفينة: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} [المؤمنون: ٢٧] ، وقال تعالى في البناء السَّكَني: {وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا} [الأعراف: ٧٤].

وقد حث الإسلام المسلم على ألا ينقطع عن العمل والعطاء والتعمير في الأرض حتى يدركه الموت أو تأتيه الساعة ، حتى لو لم يدرك هو ثمرة هذا العمل ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَ بيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفعل" (مسند أحمد).

وقد كان النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) يعمل بنفسه ، ويقوم على خدمة أهله ، قالت عائشة (رضي الله عنها): "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ" (مسند أحمد).

فالإسلام لم يدعُ إلى العمل ، أي عمل فحسب ، وإنما يطلب في العمل المتقن الجيد ، وذلك مع ضرورة مراقبة الله عز وجل في السرِّ والعلن ، فإنه لمن الصعب ، بل ربما يكون من المستحيل أن نجعل لكل إنسان حارسًا يحرسه ، أو مراقبًا يراقبه ، وحتى لو فعلنا ذلك ، لوجدنا أن الحارس يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب يحتاج إلى من يراقبه ، وإنما الأجدر بنا والأنفع لنا أن نربي في كل إنسانٍ ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إلى الخير ، فهو حينها سيراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم ، ففي حديث جبريل الطويل حين سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن

الإحسان قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" (متفق عليه).

ومن القِيَم التي ينبغي الالتِزام بها في العمل أو المهنة: الحرصُ على أداء الواجبات قبلَ المطالَبة بالحقوق ، فهذا ما ينبغي أنْ يكون عليه خُلُقُ المسلم ، سواء أكان عاملاً أم تاجرًا أم موظفًا أم زارعًا ، أم طبيبًا أم مهندسًا أم سائقًا ، فيؤدي ما عليه من واجبات ، ثم يُطالِب بعد ذلك بحقوقه ، ذلك أنَّ أداء الواجب هو في الحقيقة حقٌّ للطرف الآخر.

ولا حق بدون واجب ، ولا كسب بلا تعب وجهد ، فقد ربط الإسلام بين الحقوق والواجبات وبين المكاسب والتضحيات ، وقد حدد الإسلام ما ينبغي على العامل أن يتحلى به من القيم الإيمانية والأخلاقية ، ومنها الإيمان بأن العمل عبادة وطاعة لله (سبحانه وتعالى) ، وأن الله تعالى سوف يحاسبه يوم القيامة عن عمله قال الله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة:١٠٥].

ومن هنا يتضح حرص الإسلام على السعي والاجتهاد ، شريطة أن يكون العمل في صالح البلاد والعباد ، يقول الله تعالى للسيدة مريم حين جاءها المخاض وهي بجوار النخلة: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} [مريم ٢٥] ، فأمرها الله بالجد وبذل الجهد أولاً ، فيجب على الإنسان ذكرًا كان أو أنثى أن يسعى وينصب؛ ليرزقه الله من فضله ونعمه.

إن على أبناء المجتمع الواحد أن يعملوا متحدين ضد من يتهاون أو يهمل أو يفسد أو يدمر أو يخرب في بنيان مجتمعهم ، وأن يبحثوا عن الأعمال والمشروعات والحِرَف والصناعات التي تفتقد إليها بلادهم في كل مجال.

اللهم إنا نعوذ بك من فراغ يفضي إلى سدى ، ومن سعي إلى غير هدي ، ومن عمل يعقبه الردى ، اللهم منك المبدأ وإليك المنتهى ، فاجعل دنيانا مزرعة للأخرى.

* * *

نحو علاقات أسرية سوية مستقرة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، جعل لنا من بيوتنا سكنا ، ومن أزواجنا سكنا ، ومن أولادنا قوة وعونا ، فقال عز من قائل: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم:٢١) ، وقال سبحانه: {وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل: ٧٢] ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

لقد عُني الإسلام بالأسرة واهتم بها اهتمامًا بالغًا ؛ فهي اللبنة الأولى في بنيان المجتمع ، وبصلاحها يصلح المجتمع ، وبفسادها يفسد المجتمع، ولقد وضع الإسلام للأسرة ضوابط ومعايير تنظم قيامها ، وتحرص على سلامتها واستقرارها ، حفاظًا على الإنسان والمجتمع ، ففي استقرار الأسرة استقرار للمجتمع بأسره.

وقد امتدتْ عناية الإسلام بالأسرة إلى مرحلة ما قبل تأسيسها بما يحقِّق التلاؤُم والانسجام ، والتوادَّ والتراحم بين جميع أفرادها ، ويُقَلِّل من دوافع الهدم والانهيار لبنيانها ، فقد حَثَّ الإسلام أتباعه على تكوين الأسرة بوسيلة مشروعة تتماشى مع الحفاظ على كرامة الإنسان وحفظ آدميته وتتوافق مع فطرته السوية ، ألا وهي الزواج ، إحدى سُنَن الله (عز وجل) في الخلق كله ، قال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩] ، ويقول سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ} [يس: ٣٦].

فالزواج سُنَّة كونيَّة ، جعله ربنا سبحانه دليلا على عظيم قدرته ، وآية باهرة من آياته في خلقه ، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١].

كما رغب الإسلام في تكوين الأسرة واستقرارها إعمارًا للأرض ، وتحقيقًا لمصلحة المجتمع وبناء الوطن ، ووصولاً إلى الغايات السامية المتمثلة في نشر العفة والفضيلة ، وحماية المجتمع من كل مظاهر الفسق والرذيلة ، وترابط الأسر فيما بينها بالمصاهرة ، وغير ذلك من الحكم والغايات النبيلة.

يقول الحق سبحانه: {وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٣٢ – ٣٣].

بل إن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حثَّ الشبابَ على تحقيق سنة الزواج مبينًا منافعه وفوائده ، حيث قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "يَا مَعْشَرَ

الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ" (متفق عليه).

وفي المقابل نهى الإسلام عن كل الأمور التي تتعارض مع عمارة الكون ، ومنها التبتل والانقطاع عن النساء ، فعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أنه قال: "رَدَّ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لاَخْتَصَيْنَا" (متفق عليه).

وعن أَنَس بن مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَيْهِمْ ، فَقَال: "أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" (صحيح البخاري).

ولمَّا كان الاستقرار الأسري – بكل ما تحمله الكلمة من معنى للهدوء والسكون والطمأنينة – مطلبًا شرعيًّا ودنيويًّا منشودًا وضع الإسلام أسسًا شرعية سليمة ومنهجًا قويمًا ، حتى تدوم العشرة والألفة بين الزوجين ، ويتحقق الاستقرار .

ومن أهم هذه الأسس الاختيار الصحيح لكل من الزوجين للآخر ، فقد أوصى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الزوج عند اختياره لزوجه بحسن

الاختيار ؛ لأنها المربية الصالحة ، المحافظة على ماله وعرضه ، وهي خير متاع الدنيا ، فعن عبد اللهِ بن عمرٍو (رضي الله عنهما) قال: قال رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنيا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ" (صحيح مسلم).

وعندما تُبنى الأسر على حسن الاختيار يتحقق السكن والاستقرار ، والودُّ المتصل ، والتراحم المتبادل ، حينها يكون الزواج أشرف النعم، وأبركها أثرًا.

ولا بد من أن يكون ذلك الاختيار على أساس من الدين والخلق، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ ، تَرِبَتْ يَدَاكَ" (متفق عليه) ، وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يقول رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى إِحْدَى خِصَالٍ ثَلاثٍ: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى مَالِهَا ، وَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى جَمَالِهَا ، وَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى دِينِهَا ، فَخُذْ ذَاتَ الدِّينِ وَالْخُلُقِ تَرِبَتْ يَمِينُكَ" (مسند أحمد).

فللزوجة دورها العظيم في رعاية الأسرة ، فبصلاحها تستقر الأسرة ، بل ويستقر المجتمع كله ، وبفسادها تنهار الأسرة والمجتمع.

يقول الشاعر:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددْتَها ... أعددْتَ شعبًا طيبَ الأعراق

وكذلك أوصى النبي (صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) عند اختيار الزوجة لزوجها بأن يكون الاختيار على أساس الدين والخلق ، فعَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "إِذَا جَاءَكُمْ

مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ) ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قال: "إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ" (سنن الترمذي) ، فجعل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الدين والخلق أهم صفات الزوج الصالح ، ومن ثم فالاختيار الصحيح على أساس الدين يحقق للأسرة الاستقرار الذي يؤدي إلى تقدم المجتمع.

ومن أسس استقرار الأسرة: أن يراعي كل فرد من أفرادها ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، فقد جعل الإسلام لكل من الزوجين على الآخر حقوقًا تتساوى مع ما عليه من واجبات ، قال تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ١٢٨] ؛ فلا يطالب أي فرد من أفراد الأسرة بحقِّه قبل أن يؤدي ما عليه من واجب ؛ حتى تتحقق المودة والرحمة والسكينة التي تجعل الأسرة مستقرة.

ولقد وضح الإسلام هذه الحقوق والواجبات ، وقسمها بين جميع أفراد الأسرة ، وألزم جميع أفرادها بضرورة المحافظة عليها ، فمنها الحقوق المادية ، ومنها الحقوق المعنوية والتربوية ، ومنها المشاركة البناءة في أداء المسئوليات ، وضرورة التعاون المشترك بين جميع أفراد الأسرة في أعباء الحياة ومتطلباتها .

ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَقُولُ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،

وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" ، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (صحيح البخاري) ، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: "كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ" (سنن أبي داود).

ولقد سأل أحد الصحابة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ ، قال: "أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ – أَوِ اكْتَسَبْتَ – وَلاَ تَضْرِبِ الْوَجْهَ ، وَلاَ تُقَبِّحْ ، وَلاَ تَهْجُرْ إِلاَ فِي الْبَيْتِ" (سنن أَبي داود) .

وها هي أَسْمَاء بِنْت يَزِيد الأَنْصَارِيَّةُ تسأل رسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فتقول: "إِنَّا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَحْصُورَاتٌ مَقْصُورَاتٌ ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ، وَمَقْضَى شَهَوَاتِكُمْ ، وَحَامِلاَتُ أَوْلاَدِكُمْ ، وَإِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ فُضِّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى ، وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ ، وَالْحَجِّ بَعْدَ الْحَجِّ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا أُخْرِجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمُرَابِطًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، وَغَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابًا ، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلاَدَكُمْ ، فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي الأَجْرِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى أَصْحَابِهِ بِوَجْهِهِ كُلِّهِ ، ثُمَّ قَالَ:"هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالَةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَسْأَلَتِهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا مِنْ هَذِهِ؟" فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ،

مَا ظَنَنَّا أَنَّ امْرَأَةً تَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: "انْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا ، وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ ، وَاتِّبَاعَهَا مُوَافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ) ، قَالَ: فَأَدْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا" (شعب الإيمان للبيهقي).

ومن ثمّ فإن نجاح الأسرة المسلمة واستقرارها مرهون بالمحافظة على الحقوق والواجبات بين جميع أفرادها ، وتجنب تجاهلها أو التفريط فيها.

ومن الأسس التي تساعد على استقرار الأسرة : انتشار الرحمة بين أفرادها ، فإن الرحمة من أهم دعائم البيت السعيد ، وأساس متين لأي أسرة ناجحة ، وهي من القيم التي ينبغي لكلا الزوجين أن يتحلى بها في علاقته مع الآخر حتى تنعم الأسرة بالسكينة والمودة والاستقرار ، قال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الروم:٢١] ، فالتراحم بين جميع أفراد المجتمع مرهون بتحققه في الأسرة.

ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأسوة الحسنة ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا في الرحمة بأهل بيته كلهم على السواء ، أزواجه وأولاده وحتى أحفاده وخادمه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) خير الناس لأهله.

فالرحمة إذا نُزعت من البيت أضحت الحياة الأسرية مبعثا للتوتر والقلق ، ومن ثم الشقاء والدمار ، فعلى كل أفراد الأسرة التراحم فيما بينهم ؛ لينعموا جميعا بالاستقرار.

وكذلك من أسس استقرار الأسرة: المعاشرة بالمعروف ، وهذا ما أمرنا به ربنا سبحانه وتعالى ، وأوصانا به نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قال تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩].

فكل من الزوجين مطالب بإحسان الصلة بالآخر حتى يسود الأسرةَ جوٌّ من المودَّةِ والتعاون يتحقق معه مقصد هذه العلاقة ، قال تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: ١٨٧] ، وقال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم:٢١] ، وقال سبحانه: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩].

ومما تتم به المعاشرة الحسنة : الكلمة الطيبة ، والفعل المحمود ، والتسامح ، والتعاون ، والاحترام ، والتشاور ، وحفظ الأسرار ، وتجنب دواعي النزاع والشقاق ، ولقد ضرب لنا النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه الكرام (رضوان الله عليهم) أعظم الأمثلة في حسن العشرة ، ففي حديث الأَسْوَدِ ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) مَا كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: "كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ – فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ" (صحيح البخاري) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ : "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ ، كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: ٢٢٨]، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنْطِفَ جَمِيعَ حَقِّي

عَلَيْهَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: ٢٢٨]" (مصنفابن أبي شيبة).

ومن معاني حسن العشرة بين الزوجين: عدم إثقال أحد الزوجين كاهل شريكه بالمشاكل التي يعاني منها الآخر ، فحسن العشرة كلمة جامعة تضم كل معاني الخير للحياة الزوجية الطيبة ، والإسلام يحرص كل الحرص على أن تقوم الرابطة الزوجية على المحبة ، والتفاهم والانسجام، وهذه هي أهم خطوة في إصلاح المجتمع .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

ومما يؤسس لاستقرار الأسرة : مشاورة كل من الزوجين للآخر ، فالتشاور بين الزوجين يزيد الألفة والمحبة بينهما ، حتى في الأمور التي قد تبدو أمام البعض صغيرة كمسألة فطام الرضيع قبل عامين ، قال تعالى: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَليهِمَا}[البقرة:٢٣٣] ، فالشورى بين الزوجين ، بل بين جميع أفراد الأسرة تمثل منهج حياة في ديننا الإسلامي ، والأمر بها ورد بصيغة العموم في كتاب الله عز وجل ، قال سبحانه: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الشورى:٣٩].

وهذا ما طبقه الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عمليًّا ، ففي السنة النبوية مواقفُ عدة لمشاورته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لبعض أزواجه ، منها: ما حدث بينه (صلى الله عليه وسلم) وبين زوجه السيدة أم سلمة (رضوان الله تعالى عليها) يوم الحديبية .

فبعد أن انتهى النبي (صلى الله عليه وسلم) من إبرام عهد الصلح بينه وبين أهل مكة قَالَ لأَصْحَابِهِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا" ، قَالَ راوي الحديث: " فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ (صلى الله عليه وسلم) عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: "يَا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا" (صحيح البخاري). قال الحسن البصري (رضي الله عنه) : "إنْ كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لفي غنًى عن مشورة أم سلمة ، ولكنه أحبَّ أن يقتدي الناس في ذلك ، وأن لا يشعر الرجل بأي غضاضة في مشاورة النساء".

كذلك من أسس استقرار الأسرة : النفقة على جميع أفرادها ، فهي حق من الحقوق التي أوجبها الإسلام على الراعي ، قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}[النساء: ٣٤] ، وقال تعالى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ

وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} [البقرة: ٢٣٣] ، وقال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَ مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧].

ومن الأمور التي تساعد على استقرار الأسرة : تحقيق العدل بين جميع أفرادها ، فحسن التربية الدينية للأبناء ، وتعليمهم شعائر الدين، والعدل بينهم عامل أساس في استقرار الأسرة ، فقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من التفريق بين الأبناء في المعاملة ، حفاظًا على الترابط الأسري ، والتآلف بين جميع أفرادها ، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قال: "تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟" قَالَ: لاَ ، قال: "اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ" ، فَرَجَعَ أَبِي ، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ" (متفق عليه).

إن الإسلام قد نظر إلى الأسرة نظرة تقدير واحترام ، فهي في نظره رباط مقدَّس له غايات سامية ، حرص على إبقائه قويًا متماسكًا ، يحقِّق أهدافه ويصمد أمام الشدائد والمحن ، ولهذا أَوْلاَها عناية فائقة ، وحاطها بجملة من الآداب التي تبقي على بنيانها قويا متماسكا ، وتحافظ على استقرار المجتمع وتحميه من كل مظاهر التطرف والتشدد والعدوان ، وتحقق التقدم والرخاء.

إن الأسرة إذا استقرت شعر جميع أفرادها بالأمن في صوره جميعها: النفسي منه والبدني والاجتماعي والاقتصادي ، مما ينعكس على أمن المجتمع وسلامته.

فالإسلام اعتبر استقرار الأسرة وسيلة فعّالة لتحقيق الأمن المجتمعي من الفساد والفوضى ، فبداية هذا الأمن تأتي من الأسرة، فالأسرة هي المدرسة الأولى التي يتعلم فيها الطفل الحق والباطل ، والخير والشر ، ويتكون فيها ضميره الحي اليقظ ، ويتعلم تحمل المسئولية وحرية الرأي ، وفي الأسرة تتحدد عناصر شخصية الطفل ، وتتميز ملامح هويته ، ومن ثم يكون إما مواطنًا صالحًا في مجتمع صالح قوي ، أو عنصر هدم وتخريب في مجتمع ضائع منهار، والأمن الذي تنعم به المجتمعات الراقية لا تفرضه قوة الدولة وحدها ، ما لم ينبع من أفراد المجتمع ، من خلال ضمائرهم وخصالهم النفسية الإيمانية ، ولا ريب أن للأسرة الدور الرئيس في ذلك كله.

اللهم هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما.

* * *

حق الطفل في التنشئة السوية والحياة الكريمة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، فطر ابن آدم على حب الذرية والأولاد ، حكمة منه (سبحانه) ليعمر بهم الديار والبلاد ، وأمرنا بتربيتهم تربية تنجيهم عذابه يوم المعاد ، فقال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦] ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن من أجل النعم التي أنعم الله (عز وجل) بها على الإنسان بعد نعمة الإيمان بالله سبحانه وتعالى نعمة الولد الذي به يُحفظ النسل، وتقر العين، فالأطفال نعمة إلهية ، وهبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده.

قال تعالى: {لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: ٤٩ ، ٥٠] ، فبالأطفال تُملأ الحياة بهجةً وسرورًا ، ويُبدل ظلام البيوت ضياء ونورا ، فهم مصابيح البيوت ، وقرة العيون ، وفلذات الأكباد ، وهم زينة الحياة الدنيا ، كما قال ربنا في القرآن الكريم: {المال وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا} [الكهف: ٤٦].

هذه النعمة العظيمة – نعمة الأطفال – تستوجب شكر الله (عز وجل) عليها ، قال الخليل إبراهيم (عليه السلام) بعد أن رزقه الله (عز وجل)

بنعمة الولد: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء} [إبراهيم:٣٩ ، ٤٠] ، فالشكر على النعم يحفظها ، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[إبراهيم: ٧] ، ومن شكرها الاهتمام بها حتى ينشأ جيل يعرف حقوق الله (عز وجل) وحقوق الوالدين والوطن والمجتمع .

ولقد اعتنى الإسلام عناية فائقةً بالأطفال وتربيتهم تربيةً تحقق للأبناء وللآباء سعادةً الدنيا والآخرة ، فاعتنى الإسلام بالطفل قبل أن يأتي للحياة فأمر راغبي الزواج بالانتقاء واختيار الزوجة الصالحة ؛ لأنّ البيوت إذا شاع فيها جوُّ الإيمان انعكست آثاره على أهله خيرًا وبرًا ، وسعادةً وهناءً ، وهذا ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين قال: "فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ" (متفق عليه).

ولأهمية هذه المرحلة في حياة الإنسان كان اهتمام الإسلام بها منذ القدم قبل ظهور المنظمات الدولية التي تهتم بشأن الطفولة ، فالطفولة مرحلة أساسية يعبر بها كل إنسان إلى مرحلة النضج والرشد، فاعتناء الإسلام بالأطفال إنما هو ليكونوا إضافة إيجابية وعنصرًا فاعلا في المجتمع ، فشرع لهم الكثير من الأحكام التي تعود على الولد والأسرة ، ثم على المجتمع بالنفع والفائدة .

واهتمام الإسلام بالطفل يبدأ منذ كونه جنينا في بطن أمه ، فنراه قد شرع له من الأحكام والتشريعات ما يكفل له حقه ، ويحافظ على آدميته واحترامه ، في عناية فائقة ورعاية شاملة ؛ نظرًا لكون هذه المرحلة هي

نقطة البدء ، التي تستحق العناية والاهتمام ، فضمن له حق الحياة وهو في بطن أمِّه ، فحرَّم الإجهاض عمدًا ، وأوجب رعاية الحامل طيلة فترة حملها ، وأباح للمرأة الحامل الفطر فى شهر رمضان إذا خافت على جنينها ، حتى ينمو الجنين نموا طبيعيا ، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أن النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قال: " إن الله تعالى وضَعَ شَطْرَ الصلاةِ ، أو نِصفَ الصلاةِ ، والصومَ عن المسافرِ ، وعن المُرضِعِ ، أو الحُبلى" (سنن أبي داود).

كذلك من مظاهر عناية الإسلام بالطفل: **اختيار أحسن الأسماء له** ، فقد ألزم الآباء باختيار الأسماء الحسنة لأولادهم التي ينادَون بها بين الناس ، فالاسم الحسن يبعث في النفس راحة وطمأنينة لا تتحقق مع الاسم السيئ ، فعَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ" (سنن أبي داود) ، فإذا ما أَهَلَّ المولود على أبويه فهما مأموران باختيار أحسن الأسماء له ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "الغُلامُ مُرْتَهَنٌ بعقيقته يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ ، وَيُسَمَّى ، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ" (سنن الترمذي) .

ولقد رغَّب النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) الأمة في أحسن الأسماء وأحبها إلى الله ، فعَنْ نَافِعٍ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَبْدُ اللهِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ" (سنن أبي داود) ، وفي رواية ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ

اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ" (صحيح مسلم) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) ينهي عن تسمية الأبناء بأسماء قبيحة ، فقال: "لاَ تُسَمِّ غُلاَمَكَ رَبَاحًا ، وَلاَ يَسَارًا ، وَلاَ أَفْلَحَ ، وَلاَ نَافِعًا" (صحيح مسلم).

والعلة من النهي عن الأسماء القبيحة مراعاة الجانب النفسي عند الطفل ، حتى لا تسبب له أي نوع من أنواع الإيذاء النفسي ، جاء رجل إلى الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يشكو إليه عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد ، وعاتبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى ، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه ، ويحسن أسمه ، ويعلمه الكتاب (أي القرآن) ، قال الولد: يا أمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئًا من ذلك ، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي ، وقد سماني جُعلاً (أي: خنفساء) ، ولم يعلمني من الكتاب حرفًا واحدًا، فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: جئت إلي تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسيءَ إليك" (تنبيه الغافلين للسمرقندي).

قال سفيان الثوري: "حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، وأن يزوجه إذا بلغ ، وأن يحسن أدبه" (البر والصلة للمروزي) ، فحسن اختيار الاسم للولد يساعد على تنشئته في حياة كريمة بعيدة عن السخرية والاستهزاء به ، ويوفر له الراحة النفسية التي يحتاجها كلما ذُكر اسمه ، فالاسم هو عنوان الشخصية.

ومن مظاهر عناية الإسلام بالطفل: أن جعل رضاعته حقًا معلومًا له، قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَ

وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ٢٣٣] ، ففي الآية الكريمة أمر للأمهات في صيغة خبر ، والمعنى: يا أيتها الوالدات أرضعن أولادكن حولين كاملين ، فالطفل في هذه السن يحتاج إلى نوعية معينة من الغذاء تساعد على بناء جسده ، وليس هناك طعام في هذه السن أفضل من لبن أمه الذي هيأه ربنا لهذه المهمة.

وصدق الله حين قال: {أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤] ، أما إن كانت الأم لديها علة طبية مشروعة تمنع من الرضاعة، أو امتنع الطفل من الرضاعة من الأم ، أو توفيت الأم ، فشريعة الإسلام أوجبت على والده إحضار مرضعٍ له بأجرٍ سلامة له.

ولقد أثبتت بعض الدراسات الصحية والنفسية أن فترة رضاعة الطفل المقررة شرعًا بحولين كاملين ضرورية لنمو الطفل نموا سليما من الناحيتين: الصحية والنفسية ، وتقوي شعور الطفل بالدفء والحنان والأمان ، وهو ملتصق بأمه مما يساعد على تنشئة الطفل تنشئة سوية وأن يحيا حياة كريمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

ومن أسس التنشئة السوية للأطفال: **الإحسان إليهم وعدم الغلظة والشدّة معهم** ، فمن المقرر شرعًا أن الرفق لا يأتي دائما إلا بكل خير ، فعن أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ" (صحيح مسلم) ، والقسوة والغلظة في التربية وتقويم سلوكيات الطفل تؤدّيان في أغلب الأحوال إلى نفوره من المربِّي ، وكرهه ، وعدم الانصياع لكلامه.

قد ورد في الأحاديث الشريفة أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يحمل الحسن والحسين (رضوان الله عليهما) على كتفيه ويلاعبهما.

وكانت طريقته (صلى الله عليه وسلم) في التربية هي اللين والرفق، فعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُنَا ، إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ: "صَدَقَ اللهُ: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن: ١٥] ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ ، حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي فَرَفَعْتُهُمَا" (سنن الترمذي).

إن المربي الرفيق – والدًا كان أو معلمًا – هو الذي يراعي هذا الأساس العظيم من أسس التربية فيؤثر الرفق واللين ، ويتجنب الغلظة والقسوة ، ويعالج الأخطاء بحكمة ورحمة ، فالقسوة تورث الطفل خوفا وجبنا ، فضلا عن تسببها في معاناة الطفل من الاضطراب النفسي والخجل

والتردد ، قال الأحنف بن قيس في إحدى نصائحه: "لا تكن عليهم قُفلا فيتمنّوا موتك ويكرهوا قُربك ويملُّوا حياتك" (عيون الأخبار لابن قتيبة).

إن التعامل بالرفق لا ينافي استعمال العقوبة عند الحاجة إليها ، لكن يجب أن نذكر أنّ العقوبة يجب أن تستعمل بحكمة ، فلا تكن على كل مخالفة يقوم بها.

كذلك من أسس التنشئة السوية للأطفال: **العدل والمساواة بينهم جميعًا** ، فالعدل بين جميع الخلق مبدأ إسلامي أصيل يجب مراعاته ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨] ، وينبغي أن يطبق هذا المبدأ خاصة بين الرجل وأولاده.

وقد وجه النبي (صلى الله عليه وسلم) الآباء والأمهات لهذا المبدأ وضرورة الالتزام به ، بل وقرن الأمر به بالأمر بتقوى الله عز وجل ، فعَنْ عَامِرٍ ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً ، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَى رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً ، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قال: "أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟" ، قَالَ: لاَ ، قال: "فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ" ، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ"(صحيح البخاري).

وكان النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند رجل مِنَ الأَنْصَارِ ، فَجَاءَ ابْنٌ لَهُ فَقَبَّلَهُ وَضَمَّهُ وَأَجْلَسَهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ جَاءَتْهُ ابْنَةٌ لَهُ فَأَخَذَ بِيَدِهَا فَأَجْلَسَهَا ، فَقَالَ

النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : " لَوْ عَدَلْتَ كَانَ خَيْرًا لَكَ ، قَارِبُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ وَلَوْ فِي الْقُبَلِ" (مصنف عبد الرزاق).

فالعدل بين الأولاد له فوائد عظيمة ، فهو من أعظم أسباب الإعانة على البر ، ويساعد على تقديم جيل صالح سوي للمجتمع ، وعلى زرع الأخوة بمعناها ومبناها بين الإخوة.

وعلى النقيض نجد التفريق بين الأولاد من أعظم أسباب العقوق والهجر والكراهية ، وزرع الضغينة بين الأبناء.

وقد أثبتت بعض البحوث النفسية أنَّ ظهور الإضطرابات النفسية والاجتماعية على الطفل يرجع في أغلبها إلى إحساس الطفل بالظلم وعدم المساواة بينه وبين أقرانه في المعاملة ، وليس أدل على ذلك من تصرف إخوة يوسف معه حين خُيِّل إليهم أن أباهم يعقوب (عليه السلام) يفضل عليهم أخاهم يوسف (عليه السلام) ، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} [يوسف: ٧-٩].

كذلك من الأسس التي وضعها الإسلام لضمان تنشئة سوية للأطفال: **التربية والتوجيه على أسس شرعية** ، فلقد أمر القرآن الكريم الآباء والأمهات بضرورة العمل على وقاية النفس والأهل من الوقوع في التهلكة، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦].

وتربية الطفل وتأديبه على أسس شرعية مطلب شرعي ، وهو أيضا حق من حقوق الولد على الوالد ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما)، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ عَلِمْنَا حَقَّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ ، فَمَا حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ؟ قال: "أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ ، وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ" (شعب الإيمان للبيهقي) ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ" (سنن الترمذي).

فمن أهمّ أسس التنشئة السوية عند الأطفال توجيههم وتربيتهم تربية فاضلة ، وينبغي أن تكون التربية والتعليم باللُّطف ، دون إحراج خاصة أمام الآخرين ، وهذا ما كان يحرص عليه النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) في تربيته للأطفال ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمًا ، فَقَالَ: "يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ" (سنن الترمذي).

وها هو النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) يربي ويوجه بأدب ورفق ضاربًا أروع الأمثلة في توجيه الطفل وإرشاده ، فعن عُمَرَ ابْنِ أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنهما) قَالَ: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي: "يَا غُلَامُ سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ" (متفق عليه) ، وكما قيل: "الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه

الطاهر جوهرة نفيسة ، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة" (موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للقاسمي).

ومن ثم ينبغي على المربي أن يكون قدوةً لأولاده ، فيتحلى بمكارم الأخلاق قبل أن يأمرهم بها ، فإن الأبناء يقلدون الآباء.

ولله در من قال:

وينشـــأ ناشئ الفتيـــان منـــا   على ما كان عـــوده أبـــــــوه

جدير بالذكر أن تربية النشء ليست قاصرة على الوالدين فحسب، فالمعلم في المدرسة يمثل قيم المجتمع ، وعليه مهمة تنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية مرتبطة بقيم وتقاليد المجتمع الذي يعيشون فيه ؛ فإن الأطفال أمانة يتحمل المجتمع بأسره مسئولية رعايتهم ، وحسن تربيتهم ، وعلى الجميع أن يدرك عظم المسئولية الملقاة عليهم تجاه الأطفال ، وليس أدل على ذلك من قوله (صلى الله عليه وسلم): "كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" ، قَالَ الراوي: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قال: "وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (صحيح البخاري) ، هذا وإن العبء الأكبر من المسئولية عن الأولاد يقع على عاتق الآباء ، فعَنْ قَتَادَةَ ، عَنِ الْحَسَنِ ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، أَحَفَظَ أَمْ ضَيَّعَ ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ" (السنن الكبرى للنسائي).

وإن الإسلام عندما نظر إلى الطفل فاعتبره إنسانا له كامل الحقوق الجسدية والنفسية والمالية والتعليمية والتربوية ، وأمر بالمحافظة عليها، إنما قصد بذلك تحقيق حياة كريمة له ؛ ليتحصل لنا من ذلك مجتمع متحضر ، تسوده روح الألفة والمودة والمحبة والرحمة.

اللهم ارزقنا منك ذرية طيبة ، وأنت خير الرازقين ، اللهم أعنا على أن نربيهم على تعاليم دينك القويم ، واجعلهم لنا ذخرًا ولأهليهم وللمسلمين أجمعين.

❊ ❊ ❊

الكلم الطيب وأدب الحوار

الحمد لله رب العالمين ، امتن على الإنسان ، بأن وهبه نعمة اللسان ، الذي به أفصح وأبان ، فقال في محكم التبيان: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: ١-٤] ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، أطهر الناس لسانا ، وأفصحهم بيانا ، وأنقاهم جنانا ، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد:

فلقد خلق الله (عز وجل) الإنسان وصَوَّره في أحسن تقويم ، وكان من آيات الله (عز وجل) الباهرة في خلق الإنسان تنوع وظائف اللسان ، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}[الروم : ٢٢] ، ونتج عن هذا التنوع في اختلاف الألسنة اختلاف في إدراك الكلام ، مفهومه ومنطوقه ، وهذا الاختلاف سنة من سنن الله (عز وجل) في خلقه ، قال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[هود: ١١٨، ١١٩] ، فالخلاف بين الناس أمر طبعي في حياة الناسِ ، فهم مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومُدركاتهم ومعارفهم وعقولهم ، ولا يتمُّ التعامل مع هذا الاختلاف إلا بالحوارِ الهادفِ الهادئ ، الذي يقرِّبُ بين وجهاتِ النظرِ ، ويخاطب العقول بالكلم الطيب؛ لتهتدي إلى طريق الخير والرشاد والصواب .

فالكلم الطيب إذًا هو لغة الحوار الناجح ؛ لذا ضرب الله (عز وجل) المثل به في القرآن الكريم بشجرة طيبة مثمرة ، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم:٢٤،٢٥] ، وقال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠].

وكان النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) يحب الكلم الطيب ، بل ويشجع عليه ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "لاَ عَدْوَى ، وَلاَ طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ" (متفق عليه) ، وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنْ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا" ، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: "لِمَنْ أَطَابَ الْكَلاَمَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ" (سنن الترمذي).

وحسن القول وطيب الكلم من أهم أسباب التذكر والخشية وصلاح الأعمال ، ومغفرة الذنوب ، وبه تقطع أسباب الخصومة ، وتغلق أبواب الفتن ، وتشيع روح المودة والمحبة ، فالكلم الطيب جامع لكل خير في الدارين ، وقد أمرنا الله تعالى بأن نقول الكلمة الطيبة لجميع الناس دون تفرقة ، قال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣] ، وقال: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٥٣].

والكلمة عنوان الإنسان ، فهي إما أن تبلغ بالإنسان أرقى الدرجات، أو تهوي به في أسفل الدركات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: "إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً ، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً ، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ" (صحيح البخاري).

والحوار بالكلم الطيب يعد من أفضل الطرق التي تؤدي إلى إزالة المبهمات ، وهو وسيلة ضرورية للتواصل والتفاهم مع الآخرين ، ووسيلة من أعظم وسائل التعارف والتآلف بين الناس ، ولا يخفى ما للكلمة من أثر طيب في العلاقة بين الناس ، والحوار بالكلم الطيب هو من أهم الطرق التي تعود بالشاردين عن الحق إليه ، و وسيلة من أنجع الوسائل لتهذيب النّفوس وتربيتها ، ولا غنى للناس عنه بأي حالٍ من الأحوال ، ومن أجل إعلاء قيمة الحوار وأهميته امتلأت آيات القرآنِ الكريمِ والسنة النبوية المطهرة بالكثير من النصوصِ التِي تُرشِدُ الأمة كلها إلَى أهميةِ الحوارِ بالكلم الطيب فِي حياةِ الناسِ ، وتُعلِّمُنَا أصول الحوار والمناظرة ، والأخذ بأسبابِ الإقناع ، والمجادلة بالتي هي أحسن ؛ فالهدف من الحوار إقناعُ الآخر لعله يهتدي إلى الصواب وفْق آدابٍ وضوابطَ ينبغي مُراعاتها ، ولا يكون ذلك إلا بالكلم الطيب ، يقول سبحانه مخاطبًا نبيه والأمة من بعده: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥].

بل إن أهل الكتاب الذين يخالفوننا في أصول العقيدة وفروعها يأمرنا ربنا حين نحاورهم ونجادلهم أن يكون حوارنا معهم بالحسنى والرفق

واللين ، يقول (عز من قائل): {وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت:٤٦]، ولا يكون ذلك إلا بالكلم الطيب ، فالرفق زينة الأشياء ، فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ" (صحيح مسلم).

وقَدْ حفلت آيات القرآنِ الكريمِ بصور من الحوار متنوعة ، فهذا حوار الله (عز وجل) مع ملائكته في شأن خلق آدم ، يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة:٣٠-٣٣]

وهذا حواره (سبحانه) مع عيسى (عليه السلام): قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة:١١٦-١١٩] ، ولقد سجل القرآن الكريم جانبًا كبيرًا من حوارات الرسل (عليهم السلام) مع أقوامهم ، والتي استعمل الأنبياء فيها كل الأساليب العقلية والنقلية ؛ ليصلوا بالعباد إلى طريق الحق والرشاد.

ومن أروع صور الحوار بين الأنبياء وأقوامهم: ما سجله القرآن الكريم من حوار رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) مع مشركي مكة ، حين حاورهم بالحسنى وهم مصرون على أنهم على الحق وغيرهم على ضلال، قال تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}[سبأ:٢٤] ، ففي هذا الحوار استخدم الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ما يعبر عنه البلاغيون بأسلوب (إنصاف الخصم) في قوله: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُم" ، ولمْ يقل: "إِنَّا عَلَى هُدى وَأنتم عَلَى ضَلال" على الرغم من علو مكانته وشرف دعوته (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا أسمى وأبلغ وأفصح تعبير عن احترام حرية الآخر في الاختيار ، وعن احترام اختياره ، حتى ولو كان على خطأ.

بل وذهب الحوار المحمدي إلى مدى أبعد من ذلك ، عندما قال القرآن الكريم في الآية التالية مباشرة للآية السابقة: {قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سبأ: ٢٥] ، فوصف (صلى الله عليه وسلم) اختياره للحق بأنه إجرام – من وجهة نظرهم السقيمة – ووصف اختيارهم للباطل بأنه عمل ، من أجل أن يستميل قلوبهم ، ثم فوض الأمر لله (عز

وجل) ليحكم بينهم ، قال تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ: ٢٦] ، كذلك من صور الحوار الهادف المثمر ما حدث بين سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وزوجه السيدة أم سلمة (رضوان الله عليها) يوم الحديبية ، فقد كان حوارًا هادئًا بين طرفين يريدان الوصول لنجاة الناس من الهلاك ، فكان من ثمرته أن امتثل الصحابة لكلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

فبعد أن انتهى النبي (صلى الله عليه وسلم) من إبرام عهد الصلح بينه وبين أهل مكة قَالَ لأَصْحَابِهِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا" ، قال: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا" (صحيح البخاري).

وفي هذا كله درْسٌ عظيمٌ ، وتربيةٌ ربانيةٌ ، نُدرِكُ مِنْ خلالِها أهميةَ الحوارِ فِي حياتِنَا ، ونتعلَّمُ أن حُسْنَ الإصغاءِ للآخرينَ – مجرد حسن الإصغاءِ إليهم ، ولَوْ كانُوا غيْرَ مُحِقِّينَ من وجهة نظرنا – يجعلنا نتفهم ما لديهِمْ من الحُجَجِ ، والأعذارِ والتأويلات ، للوقوفِ على سببِ الخلافِ وعلاجه ، وحتى يعلمَ الطرفُ الآخرُ الذي تحاوره أنكَ تُشارِكُهُ همومَهُ ، وأنكَ تسعى لإيصال الخير إليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

ولكي يكون حوارنا مثمرًا هادفًا لا بد من أن نراعي فيه عدة آداب ، منها:

الإخلاص لله (عز وجل): بمعنى أن يبتعد المحاور والمناظر عن الرياء والسمعة ، ويجعل هدفه من حواره الحرص على طلب الحق ، لا التفوق على الآخرين ، والانتصار للنفس ، وانتزاع الإعجاب والثناء، قال الإمام الشافعي (رضي الله عنه): "ما ناظرت أحدًا إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على يديه" (بستان العارفين للنووي).

التجرد للحق والانتصار له: فالمؤمن ضالته هي الحق ، فمتى وقع عليه أقر به وحازه ، ولن يصل إليه إلا إذا تجرد له.

العدل والإنصاف: فمن تمام الإنصاف قبول الحق من الخصم ، وقد ذكر القرآن نماذج للعدل والإنصاف فمما ذكره الله (سبحانه) في وصف أهل الكتاب قوله (عز من قائل): {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران:١١٣] ، ومنه ما ورد في حوار النملة مع بني جنسها حين أنصفت سليمان وجنوده ووصفتهم بأنهم لا يشعرون بالنمل في سعيهم، إذا هم قتلوهم ، وهذه حقيقة مؤكدة، وقد سجل القرآن الكريم هذا الحوار المنصف في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}[النمل:١٨].

الالتزام بالهدوء لإلزام الآخر بالحجة ، فكلما علا الصوت كان دليلا على ضعف حجة صاحبه ، ومما يذكر في هذا الأمر ما جاء من حوار حبر الأمة سيدنا عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) مع الخوارج ، تلك الفئة الضالة التي ابتليت بها الأمة ، فاستباحوا الدماء والأعراض لمجرد الهوى والجهل ، فلقد أوفد سيدنا عليٌّ بنُ أبي طالب (رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه) سيدَنا عبدَ الله بن عباس (رضي الله عنهما) إلى الخوارج المعروفين بالحرورية ، فذهب إليهم ابن عباس (رضي الله عنه) وعليه حُلَّةٌ جميلة ، فلما أقبل ، قالوا له: يا ابن عباس ، ما الذي جاء بك؟ وما هذه الثياب التي عليك؟ فقال: أما الثياب التي عليَّ ، فما تنقمون مني؟ فوالله ، لقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعليه حلة ليس أحد أحسن منه ، ثم تلا عليهم قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَات منَ الرِّزْق قُلْ هِيَ للَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالصَةً يَوْمَ الْقيَامَةِ} [الأعراف:٣٢] ، قالوا: ما الذي جاء بك يا ابن عباس؟ قال: جئتكم من عند أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وليس فيكم أنتم يا معشر الخوارج واحد من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وجئتكم من عند ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) – يعني: علي بن أبي طالب – وعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بتأويله؛ جئت لأبلغكم عنهم ، وأبلغهم عنكم ، فأنا رسول – أي وسيط – بينكم وبينهم.

قال بعضهم: لا تحاوروا ابن عباس ، لا تخاصموه ، فإن الله تعالى يقول عن قريش: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}[الزخرف:٥٨] ، فلما خافوا من الهزيمة قالوا: اتركوا هذا ، هذا جدل إنسان خَصِم! وقال بعضهم: بل نكلمه ، ولننظر ماذا يقول؟

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): فكلمني منهم اثنان أو ثلاثة ، فقال لهم: ماذا تنقمون على عليٍّ بن أبي طالب (رضي الله عنه)؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثة أمور ، قال: هاتوا ، قالوا: الأول: أن عليَّ ابن أبي طالب (رضي الله عنه) حكَّم الرجال في كتاب الله ، يعني: بعث حكمًا منه ، وحكمًا من معاوية (رضي الله عنه) – وقصة التحكيم معروفة – والله تعالى يقول: {إِنِ الْحُكْمُ إلا للهِ} [الأنعام:٥٧] ، قال: هذه واحدة ، فما الثانية؟ ، قالوا: الثانية: أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قاتل ولم يسْبِ – أي قاتلهم وما سبي نساءهم – فلئن كانوا مسلمين فقتاله حرام ، ولئن كانوا كفارًا فلماذا لم يسبهم؟ ، قال: وهذه أخرى ، فما الثالثة؟ ، قالوا: الثالثة: أنه نزع نفسه من إمرة المؤمنين لمَّا كتب الكتاب ، فلم يكتب: أمير المؤمنين ؛ بل قال: علي بن أبي طالب ، قال: أوقد فرغتم؟ قالوا: نعم ، قال: أما الأولى: فقولكم: حكَّم الرجال في كتاب الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول في محكم التنزيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ} [المائدة:٩٥] ، فذكر الله تعالى حكم ذَوَيْ عدل فيما قتله الإنسان من الصيد ، سألتكم الله تعالى! التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم أعظم ، أم التحكيم فيما قتله الإنسان من الصيد؟ ، قالوا: لا ؛ بل التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم أعظم ، قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء:٣٥] ، ناشدتكم الله تعالى! التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم أهم ، أو التحكيم في بُضع امرأة؟ ، قالوا: لا، التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم ، قال: انتهت الأولى؟ قالوا: نعم ، فالثانية؟ ، قال: أما الثانية ،

فقولكم: قاتل ولم يسْبِ ، هل تسْبون أمكم عائشة (رضي الله عنها) لأنها كانت في الطرف الآخر ، وتستحلون منها ما يستحل الرجال من النساء؟ ، إن قلتم ذلك كفرتم ، وإن قلتم ليست بأمِّنا كفرتم – أيضًا – لأنها أم المؤمنين ، فاستحيوا من ذلك وخجلوا ، قالوا: فالثالثة؟ ، قال: أما قولكم: خلع نفسه من إمرة المؤمنين ، وإذا لم يكن أميرًا للمؤمنين فهو أمير الكافرين ، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما عقد كتاب الصلح مع أبي سفيان وسهيل بن عمرو في صلح الحديبية ، قال: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، اكتب اسمك واسم أبيك ، فمحا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الكتابة ، وقال: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله" ، (فرجع منهم عن مذهب الخوارج ألفان ، وبقيت بقيتهم ، فقاتلهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)" (المستدرك للحاكم)

فانظر كيف أثَّر الحوار الهادئ القوي العميق في مثل هذه الرؤوس اليابسة ، حتى رجع منهم ألفان إلى مذهب أهل السنة والجماعة في مجلس واحد ببركة الهدوء في الحوار.

التواضع: فالتزام التواضع له دور كبير في إقناع الآخر ، وقبوله للحق ، فكلما ظهر من أحد المتحاورين التواضع ، لا يملك الآخر إلا أن يبادله بمثله أو أحسن منه ، ويلمس كلا المتحاورين خُلُقًا كريمًا ، ويسمعان كلامًا طيبًا ، وساعتها سيكون الحوار مثمرًا ، وفي الحديث الصحيح: "وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ" (صحيح مسلم) ، ومن التواضع أن تقبل الحق ممن جاء به حتى ولو كان أعدى الأعداء ،

فالمؤمن ضالته المنشودة هي الحكمة ، فهو باحث عنها لذاتها ، أنَّى وجدها كان أحق الناس بها.

البعد عن المماراة والجدل الذي لا طائل تحته ولا فائدة من ورائه ، فبسببهما تتشتت الكثير من القلوب ، وليس القصد منهما إلا إفحام الخصم أو التشهير به ، ولذا حثنا ورغبنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في البعد عن المراء فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ" (صحيح البخاري) ، وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِى رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا ، وَبِبَيْتٍ فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا ، وَبِبَيْتٍ فِى أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ" (سنن أبي داود) ، فالمراء والجدل في الحوار يعدان من التنطع في الدين ، وقد حذر منه النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلاَثًا" (صحيح مسلم).

رد الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) مصداقًا لقوله تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء:٥٩] ، شريطة أن نستنبط الأحكام بالطرق التي استنبط بها علماؤنا السابقون ، وليس بالأهواء.

الإصغاء وحسن الاستماع: فأكثرنا يجيد فن الحديث أكثر من فن الاستماع ، على الرغم من أن الله (عز وجل) جعل للإنسان لسانًا واحدًا ،

وجعل له أُذنين حتى يسمع أكثر مما يتكلم ، ولكن:{وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ}[العنكبوت:٤٣] ؛ فلابد من أن نستمع جيدًا ، وأن تستوعب ما يقوله الآخرون .

والإصغاء إلى المتحدث كان دأب النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، فربما تحدَّث إليه بعض المشركين بكلام لا يستحق أن يُسمع ، فيصغي النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ويصبر عليه حتى ينتهي من كلامه ، ثم يبدأ النبي (صلى الله عليه وسلم) في عرض وجهة نظره ، كما حدث ذلك مع عتبة بن أبي ربيعة حين جاءه ليكلمه في الكف عن دعوة الناس إلى الإسلام ، فظل النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) مصغيا إليه ، حتى إذا انتهى الرجل وفرغ من كلامه قال له (صلى الله عليه وسلم) : "أو قد فرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم ، قال: "فاسمع مني" ، قال: أفعلُ ، فقال (صلى الله عليه وسلم): {بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} [فصلت:١– ٥] ، ثم مضى رسول الله فيها ، يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما ، يسمع منه. (السيرة النبوية لابن هشام).

فبهذه الآداب والمبادئ نصل جميعًا إلى حوار بناء لا يفسد للود قضية، ولا يؤدي إلى التنازع والشقاق .

غير أن هناك آفات في الحوار تجعل منه حوارًا عقيمًا دون جدوى أو فائدة ، منها:

رفع الصوت بالكلام: وكأن المحاور يرى أن انتصاره في الحوار لن يكون إلا عن طريق مبالغته في رفع الصوت على خصمه ، والله تعالى يقول: {إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان:١٩].

تهويل مقالة الطرف الآخر وتحميلها ما لا تحتمل من المعاني ، بل يصل الحال إلى وصف كلام الآخر بالكفر ، أو الفسق ، أو الابتداع.

المبالغة في وصف الطرف الآخر بالصفات الذميمة التي تنال من شخصه واتهامه بالباطل ، فيصفه بما لا يليق من الأوصاف.

إننا جميعا في حاجة إلى أدب الحوار ، ونحن أحوج ما نكون إليه حين نتحدث إلى من نختلف معه ؛ لنحفظ له حقه في الرد والدفاع عن وجهة نظره ، دون تردد أو إحجام ، يحتاج إليه العالم ؛ ليحفظ حقوق طلابه ، ويفتح لهم صدره ، ويحتاج إليه الأب تحبُّبًا إلى قلوب أولاده ، وإفساحا لآراء جيل جديد؛ لتجد طريقها إلى الأسماع والعقول ، يحتاج إليه الزميل مع زميله ، والجار مع جاره ، والزوج مع زوجه ، وكل ذلك لا يكون إلا بالكلم الطيب.

اللهم خذ بنواصينا إلى الحق ، واجعلنا يا ربنا قوَّالين بالصدق ، وأرنا اللهم الحق حقًّا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

* * *

الإسلام دين الأمن والأمان

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فمما لا شك فيه أن الأمن والأمان من أهم دعائم المجتمعات ووسائل استقرارها ، وإن شئت فقل إنه أهمها ، فلا استقرار بلا أمن ، ولا اقتصاد بلا أمن ، ولا نهضة ولا رقي ، ولا تقدم ولا ازدهار بلا أمن.

ولقد حرص الإسلام كل الحرص على استقرار حياة الناس والحفاظ على أمنهم ، وحرَّم كل اعتداء أو ترويع يهدد هذا الاستقرار، ويضيع هذا الأمن ؛ وذلك لأن الأمن من أعظم النعم التي امتن الله بها على عباده ، يقول الحق سبحانه وتعالى مذكرًا بنعمه على أهل مكة: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [القصص: ٥٧] ، وقال سبحانه: {لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [سورة قريش] ، ففي رحاب هذا الأمن يعبد الناس

ربهم ، ويقيمون شريعته ، ويدعون إلى سبيله ، وتزدهر حياة الناس ، ويسودها الهدوء ، وترفرف عليها السعادة.

لذلك حرَّم الإسلام كلَّ سبب يفضي إلى تهديد هذا الأمن ، ومن ذلك ظاهرة البلطجة التي انتشرت في مجتمعنا في الآونة الأخيرة ، والتي أصبحت تشكل خطرًا أمنيًّا حقيقيًّا على مستوى الفرد والمجتمع.

والبلطجة: كلمة تعني استخدام العنف والقوة لترويع الناس ، والاعتداء عليهم بالبطش والظلم وأخذ ممتلكاتهم وخطف أطفالهم في بلطجة سافرة نهانا عنها نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وحذرنا منها ربنا (عز وجل) في القرآن الكريم ، وهي بهذا تعد كبيرة من الكبائر ، وإفسادًا في الأرض ؛ لأن انتشارها يقضي على الأمن والاستقرار الذي حرصت الشريعة الإسلامية على إرسائه في الأرض ، وجعلته من أهم مقاصدها التي لا تستقيم الحياة إلا بها.

ولقد اتخذت هذه الظاهرة صورًا وأشكالاً متنوعة ، ومن مظاهرها: القتل والتهديد ، والاعتداء على المنشآت والممتلكات العامة والخاصة ، وقطع الطرق ، مما يؤدي إلى شل حركة الحياة وتعطيل مسيرتها ، وذلك تحت أي مبرر من المبررات ، فالبلطجة ليست مقصورة على القتل وفقط ، بل هي مفهوم واسع النطاق ، ما بين قتل وتنكيل ، ومحاربة لله ورسوله ، وظلم للناس وأكل لحقوقهم بالباطل ، وما يترتب على ذلك من إرهاب يتمثل في إزهاق أرواح أناس أبرياء، وسرقة ونهب وتعذيب الآخرين ، ونشر الفزع والخوف في قلوب الناس ، وكل ما يضر بمصالح الوطن مما لا يقره دين ولا خُلُق ، لأن البلطجي لا ضمير له ، ولا ذِمَّة له ولا عهد ، ولا

يخضع لأي قيم إنسانية ، أو وازع ديني أو أخلاقي ، وفي ذلك يقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح البخاري).

جديرٌ بالذكر أن هؤلاء الذين يرتكبون مثل هذه الأفعال الإجرامية يعملون على نشر الفوضى والفساد في الأرض ؛ لذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بالتعنت والوقوف أمام حرماته ، فأوجب عليهم العقاب في الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة: ٢٠٥ ، ٢٠٦].

ومما لا شك فيه أن هذه الظاهرة لم تأت من فراغ ، بل لها أسبابها التي أدت إليها أو ساعدت عليها ، ومن أهم هذه الأسباب:

التربية الأسرية الخاطئة: حيث ينشغل الأبوان بحياتهما عن أبنائهما ، فلا يقومان بمتابعة حياتهم ، ولا بتقويم سلوكياتهم ، بالإضافة إلى سوء المعاملة من بعض الآباء لأبنائهم مما جعل الأبناء عرضة لهذه الظاهرة ، ولو فطن الوالدان إلى حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): الذي يرويه الإمام البخاري عن ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (صحيح البخاري) ؛ ما كانت هذه التنشئة الخاطئة التي تسببت في انتشار هذه الظاهرة ، إذ إن النشأة عليها دور كبير وعظيم في تشكيل نفسية الأبناء.

كذلك من أهم هذه الأسباب: ضعف الوازع الديني ، والبعد عن الأخلاق: فما يحدث حاليًا في مجتمعنا من ترويع وإرهاب وسفك للدماء البريئة ، وتفجير للمساكن والمركبات والمرافق العامة والخاصة، وتخريب للمنشآت ، يرجع إلى غياب الوازع الديني ، وانعدام السلوك الحضاري وانعدام القيم ، وتدهور الأخلاق ، فكلها بلطجة إجرامية ، وسلوكيات خارجة عن تقاليدنا وعاداتنا ، إنها إفساد في الأرض وإشاعة للرعب والخوف ، والإسلام بريء منها ، وكذلك كل مسلم يؤمن باللّه واليوم الآخر بريء منها ، فالدين قوام الحياة الطبيعية وعمادها ، والحياة بلا وازع ديني حياة بلا قيم ، بلا أخلاق ، لأن أساس هذا الدين العظيم هو مكارم الأخلاق ومحاسنها ، فقد روى البيهقي في سننه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (السنن الكبرى).

وتتمثل خطورة البلطجة في مخاطر كثيرة ، من أهمها:

ترويع الآمنين: فلقد جاءت شريعة الإسلام لتكفل للإنسان حقه في عيش آمن ونفس مطمئنة ، فنهت عن مجرد ترويع الآمنين ، حتى ولو كان على سبيل المزاح ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي ، لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ" (متفق عليه).

فديننا الحنيف حذَّر من ترويع الآمنين وتخويفهم ، وحرَّم التعدي عليهم ، لأنه إجرام تأْباه الشريعة والفطرة ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ) (صحيح مسلم) ، وعَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنّ النَّبِيُّ (صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (لاَ تُرَوِّعُوا الْمُسْلِمَ ؛ فَإِنَّ رَوْعَةَ الْمُسْلِمِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ) (المعجم الكبير).

بين الحرابة والبلطجة: لقد شرع الإسلام من الأحكام ما يحافظ على النفس والمال والعرض ، فنهى عن الاعتداء على الإنسان أيا كان جنسه أو لونه أو معتقده ، أو التعرض له بالإيذاء والضرر في نفسه وماله وعرضه ، واعتبر التعدي عليه أو إيذاءه فسادًا في الأرض ، ولذا عُرِف حد الحرابة بالبلطجة كما نسميها اليوم.

ومفهوم المحاربة والسعي في الأرض فسادًا يصدق على كل من وقع منه التعدي على دماء العباد وأموالهم في كل قليل وكثير وجليل وحقير ، وحُكم الله في ذلك هو ما ورد في هذه الآية ، من القتل أو الصلب أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض ، لكل من خرج على الناس بسلاحه ، يقتلهم ، أو يقطع طريقهم ، أو يغتصب أموالهم ، أو يحارب جنودهم ، أو يهين سلطانهم ، أو يعتدي على أعراضهم ، ومن ثمَّ شُرع القصاص لحفظ النفس ، وحد السرقة لحفظ المال ، وحد الزنا وحد القذف لحفظ العرض ، وحد الحرابة للمفسدين في الأرض.

فإذا زاد الترويع والاعتداء إلى حد الاستيلاء على الممتلكات بالقوة دخل ذلك في باب (الحرابة) ، وهي كبيرة من كبائر الذنوب ؛ غلَّظ القرآن الكريم عقوبتها أشد التغليظ ، وسَمَّى مرتكبيها (محاربين لله ورسوله، وساعين في الأرض بالفساد) ، فقال (سبحانه وتعالى): {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ

فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣] ، بل نفى النبي (صلى الله عليه وسلم) انتسابَهم إلى الإسلام ، فقال: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا" (متفق عليه) ، ومن فداحة هذه الجناية أن الحدَّ فيها لا يقبل الإسقاط ولا العفو باتفاق الفقهاء ؛ لأنها انتهاك لحق المجتمع بأسره ، فلا يملك المجني عليه العفو فيها.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن من مخاطر البلطجة كذلك: ظلم الناس وأكل أموالهم بغير حق ، فإن من يستولى على ممتلكات غيره بالقوة – فضلاً عن الاعتداء على النفس أو العرض – فإن ذلك يعد ظلمًا وأكلاً للأموال بغير حق ، وهذا السلوك (سلوك البلطجة) يتنافى تمامًا مع الإسلام ، وينذر بعواقب وخيمة من خلال آيات القرآن الكريم ، فقال سبحانه: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى: ٤٢].

ويحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من الظلم فيقول: "اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ" (صحيح مسلم) ، بل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) يحذر مَن يسلك سلوك هذه البلطجة

وهذا الاعتداء بأنه سيكون من المفلسين يوم القيامة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (سنن الترمذي) ، فمن يرضى لنفسه هذا المصير؟.

ونحن هنا نحذر كل ظالم وبلطجي: احذر فهذه الأموال التي تتقاضاها وتستولي عليها بالظلم والاعتداء على الآمنين لن تحقق لك الغنى الذي تريده ، بل ستكون مفلسًا أمام الله يوم القيامة.

بل إن هناك ما هو أكثر من هذا ؛ فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل للإسلام مواصفات يجب أن يلتزم بها المسلم ، فيقول في الحديث المتفق عليه: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ" (متفق عليه) ، وهؤلاء قد فرطوا في حقِّ إسلامهم.

ولعلاج هذه الظاهرة يجب الآتي:

أولاً: الاهتمام بالقيم الإيمانية والأخلاقية ، وزرعها داخل النفوس من خلال التربية الإسلامية الصحيحة ، وصدق الله حيث قال: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: ١٢٣ ، ١٢٤].

ثانيًا: التنشئة الأسرية السليمة ، القائمة على كتاب الله (تعالى) وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وتربية النفس على دوام المراقبة لله تعالى ، فإذا راقب الإنسان ربه في كل تصرفاته ، فإنه سيستحيي أن يظلم نفسه ، فما بالك بظلم الناس! وقد حثنا الله على مراقبته في كل أحوالنا ، فقال تعالى: {إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ} [آل عمران: ٥] ، فبدوام المراقبة لله نستطيع أن نتغلب على كل مشاكلنا ، ونصل إلى حلها بإذن الله.

ثالثًا: استخدام العقاب الرادع لحفظ المال والعرض والدين ردعًا للجريمة وترهيبًا من مغبتها ؛ فقسوة العقوبة هدفها منع الجريمة ، ومن ثمَّ أوجبت الشريعة الإسلامية على الأفراد والمجتمعات أن يقفوا بحزم وحسم أمام هذه الممارسات الغاشمة ، وأن يواجهوها بكل ما أوتوا من قوة حتى لا تتحول إلى ظاهرة تستوجب العقوبة العامة ، وتمنع استجابة الدعاء ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ" (سنن أبي داود) ، وعن حذيفة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ" (سنن الترمذي).

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى كل خير ، وأن يجنبنا كل مكروه وسوء ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، اللهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ مِنْ جَهْلِ الجَاهِلِينَ ، وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا ، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا ، وَزِدْنَا عِلْمًا.

* * *

النفاق والخيانة وخطرهما على الأفراد والدول

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم :{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: ٦٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا وحبيبنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، القائل في حديثه الشريف: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (صحيح البخاري) ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فمما لا شك فيه أن النفاق داءٌ عضالٌ ، ووباء قتَّال ، مهلكٌ للأفراد والأمم ، فهو من أخطر الأمراض القلبية التي تعصف بحقيقة الإيمان ، وتنقض أسسه ، وتهدم أركانه ، وهو آفة اجتماعية وخلقية خطيرة تهدد أمن المجتمع وسلامته واستقراره ؛ لذا فإن خطره أشد من خطر الكفر والشرك؛ لأنه داء إذا دب في جسد الأمة نخر عظامها، وفرق كلمتها.

كما أن سلاح الخيانة والعمالة هو أخطر ما يهدد كيان الدول ووجودها على مدار التاريخ ، الذي يعد خير شاهد على أن الدول التي اضمحلت أو تمزقت أو حتى اندثرت إنما أتيت وأسقطت من داخلها ، وكان للخونة والعملاء والمأجورين على حساب وطنهم دور كبير في ذلك على مدار التاريخ البشري ، فدائما الأخطار التي تتهدد الدول من داخلها أكبر وأخطر بكثير من تلكم الأخطار التي تتهددها من خارجها.

ولقد حدثنا القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة عن المنافقين وأوصافهم وأخلاقهم ودسائسهم ، فما رأيناها تغيرت عبر الأزمان ، ولا اختلفت باختلاف الأوطان ، ومن أهم هذه العلامات التي يُعرف بها المنافقون:

* **الكذب**، **وخلف الوعد**، **وخيانة الأمانة** ، **والفجور في الخصومة**: وهي من أقبح صفات المنافقين التي وصفهم بها النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهي من النفاق العملي الذي بينه النبي (صلى الله عليه وسلم)، حيث قال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (صحيح البخاري) ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال، أو خصلة واحدة منها كان منافقًا ، وهذه الصفات تعبث بمصالح الأمة ، وتهدف إلى هدمها .

فكثيرًا ما نرى المنافق يكذب ليوهم الغير بصدق قوله وفعله، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: ٢٠٤]، فإذا ذُكر النفاق والخداع وخيانة الأمانة في القرآن الكريم ذُكر معه الكذب ، قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: ٩، ١٠]، وحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من الكذب مبينًا آثاره قائلاً: (وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا) (صحيح

مسلم)، وسئل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: (لاَ). ووصف أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الكذب بالخيانة ، في قوله: (الصِّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ) (مصنف عبد الرزاق) .

وكذلك الخيانة والعمالة فيترتب عليهما قطع أواصر المحبة ، وتباغضٍ يفضي إلى النزاع والشقاق ، وفساد في المعاملات ، وقد بيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن خيانة الأمانة تكون على صاحبها يوم القيامة خزيًا وندامة ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَن) (صحيح مسلم)، ويكون (صلى الله عليه وسلم) خصيمه يوم القيامة ، حيث قال: (ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ) (مسند أحمد).

ومن أخطر أنواع الخيانة خيانة الأوطان وبيعها بثمن بخس وعرض زائل من الدنيا على نحو ماتقوم به الجماعات المتطرفة ومن يوالونها أو يسيرون في ركابها وعلى نهجها في بيع أوطانهم بثمن بخس.

ومن الصفات الذميمة التي حذر الإسلام منها: **الفجور في الخصومة** ، فهي جماع كل شر ، وأصل كل ذم ، وطريق للميل عن الحق ، فيجعل الحق باطلاً ، والباطل حقًا ، وقد سمى الله (عز وجل) الفجور في الخصومة لدًّا ، قال تعالى:{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: ٢٠٤]، وعَنْ عَائِشَةَ

(رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ) (صحيح البخاري).

فأقرب وصف لحال أهل النفاق أنهم ذوو الوجهين ، بل نراهم في زماننا تجاوزوا حدود ذلك بكثير ، فلهم ألف وجه ووجه ، وهم شرار الخلق، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِيْ يَأْتِيْ هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ، وَهَـؤُلاَءِ بِوَجْهٍ) (صحيح البخاري).

ومن أمارات النفاق :

* **الإفساد في الأرض وادعاء الإصلاح** ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١١، ١٢]، وللإفساد صورٌ متعددة ، منها: الإرجاف في البلاد ، وبث الوهن في نفوس المؤمنين الصادقين ، ودسُّ الأفكار المنحرفة ، والمفاهيم الخاطئة ، ونشر الفتنة بين الناس ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة: ٤٧]، ويقول سبحانه:{وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنّمَ أَشَدُ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨١]، ويقول سبحانه:{قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَ قَلِيلاً} [الأحزاب: ١٨]، ومن صور الفساد: بخس الناس حقهم ، والتقليل من شأنهم ، قال تعالى: {وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الشعراء: ١٨٣]، ومن صوره: الهدم والتخريب ، وقتل الأبرياء ، وترويع الآمنين ، وتعطيل مصالح الناس ، وعدم القيام بالمسئولية ، وكذلك الرشوة ، والمحسوبية ، وأكل أموال الناس بالباطل.

* **الكسل عن أداء العبادة، والرياء عند فعلها** ، وخاصة في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها وهي الصلاة ، قال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٥٤]، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَيْسَ صَلاَةٌ أَثْقَلَ عَلَى المُنَافِقِينَ مِنَ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا) (صحيح البخاري)، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قَالَ:خَرَجَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: (يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ) (شعب الإيمان للبيهقي).

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن من علامات النفاق وأماراته : التحالف مع الأعداء والتواصل معهم على حساب الدين والوطن ، بالتجسس ، والخيانة ، ونقل الأخبار والمعلومات ، والإفصاح عن أسرار الوطن، فالمنافق عميل يوالي أعداء وطنه على حساب أهله وجيرانه وأقربائه ، يقول الحق سبحانه: {فَتَرَى

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: ٥٢]، ويقول سبحانه: {وَإِنّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا}[النساء: ٧٢، ٧٣]، فالمنافق يفرح إذا ألمّ بالوطن وأبنائه شرّ ، أو انتشرت فيهم فتنة ، أو تفشي فيهم مرض ، أو أصابهم انكسار، قال تعالى:{إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠].

غير أن المنافقين الجدد قد ضموا إلى تلك الصفات من الكذب ، والخيانة والغدر، ونقض العهود والمواثيق ، وتأليب الرأي العام ، وخيانة الدين ، ضروبًا جديدة من الخداع ، أبرزها المتاجرة بالدين، واستغلاله لتحقيق مصالح الجماعات التي تريد أن تتخذ من الدين مطية إلى السلطة، متدثرة في ألوان شتى من التدين الشكلي والتدين السياسي ، فينسبون الإيمان لأنفسهم وينفونه عن غيرهم ، سعيًا منهم لتوفير الغِطاء الشَّرعي لأعمالِهم ، إضافة إلى ما يتسم به المنافقون الجدد من خيانة الوطن وتحقيره وبيعه بثمن بخس ، ولقد أخبر الله (عز وجل) هذا الصنف من الناس بأن الدائرة عليهم، وأن غضبه يحيق بهم في الدنيا والآخرة ، وأن ما يخططون له من إيقاع المسلمين في الشدة والعنت سيعود عليهم ، قال تعالى: {وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣]، وأخبر الله (عز

وجل) أنهم في حالهم:{مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً}[النساء: ١٤٣]، وقال سبحانه:{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[المنافقون: ٤]، وصرف الله (عز وجل) قلوبهم عن الفهم عن الله تعالى وعن رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، قال تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ}[المنافقون: ٣]، وأما عن عقابهم في الآخرة فقال الله تعالى:{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: ١٠١]، فالعذاب الأول في الدنيا، والعذاب الثاني في القبر، أما العذاب الأكبر ففي الآخرة ، حيث يجمع الله المنافقين مع من كانوا على شاكلتهم من خصال الشر في النار ، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[النساء: ١٤٠]، ويقول سبحانه:{إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَ الّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

ومن أجل حماية الدول والحفاظ على كيانها وتماسكها وسلامتها فلا بد من يقظة العيون الحارسة لأبنائها الأوفياء المخلصين أفرادا ومؤسسات ، ولا بد من تضافر جهود كل الشرفاء لقطع دابر الخونة والعملاء والمتخابرين مع الأعداء من المجرمين وفضحهم على رءوس الأشهاد ، وجعلهم عبرة لكل من تسول له نفسه أن يسلك سبيل الخيانة والعمالة ، حفاظا على ديننا وأوطاننا وأعراضنا وأنفسنا ومستقبل بلادنا وأبنائنا ، وقبل

ذلك كله مرضاة ربنا وحماية أوطاننا والحفاظ على دولنا من أن يصيبها ما أصاب الدول التي قصرت أو تهاونت في مواجهتها للخونة والعملاء وظنت أمرهم هينا ، وما هو في تاريخ الدول بهين.

اللهم طهر قلوبنا من النفاق ، وأعيننا من الخيانة وألسنتنا من الكذب، واحفظ مصر وأهلها من كل مكروه وسوء .

* * *

ذكر الله تعالى وأثره في استقامة النفس البشرية

الحمـد لله رب العـالمين ، القائـل في كتابـه الكـريم: {الَّـذِينَ آمَنُـوا وَتَطْمَـئِنُّ قُلُـوبُهُم بِـذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِـذِكْرِ اللهِ تَطْمَـئِنُّ الْقُلُـوبُ}[الرعـد:٢٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعــد:

فإن الله (عز وجل) قد أمر عباده بالإكثار من ذكره ، ووعدهم بعظيم الأجر على ذلك ، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}[الأحزاب: ٤١ ، ٤٢] ، ويقول جل شأنه: {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥] ، ويقول تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[الأنفال:٢ – ٤] ، ورغب النبي (صلى الله عليه وسلم) الأمة في الإكثار من ذكر الله ، وحثهم عليه ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (ألا أَنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟) ، قالوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قالَ: (ذِكْرُ اللهِ) (سنن الترمذي) ، وعندما جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، يقول: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ

عَلَيَّ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ) (مصنف ابن أبي شيبة).

إن ذكر الله تعالى عبادة عظيمة القدر ، ميسورة الفعل ، فضائلها أكثر من أن تعد أو تحصى ، ومما ورد في بيان فضلها ، وعظيم قدرها ما جاء عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) ، أنه قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ (رضي الله عنه) عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ (عز وجل) ، قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ: (مَا أَجْلَسَكُمْ؟) ، قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا ، قَالَ: (آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟)، قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ ، قَالَ: (أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي ، أَنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ) (صحيح مسلم) ، والذكر حياة القلوب ، وأحب الكلام إلى الله (عز وجل) ، فعن أبي موسى (رضي الله عنه) أن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) ، وفي لفظ مسلم أنه (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لاَ يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) (صحيح مسلم) ، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضي الله عنه) ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَادَهُ يومًا ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ الكَلاَمِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ)؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (مَا

اصْطَفَى اللهُ لِمَلاَئِكَتِهِ: سُبْحَانَ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ) (سنن الترمذي) ، وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَحَبُّ الْكَلاَمِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ) (صحيح مسلم).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (... سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ) ، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ) (صحيح مسلم) ، ولذلك كان ذكر الله تعالى وصية النبي (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا معاذ (رضي الله عنه) ، حيث قَالَ (صَلَّى الله عليه وسلم) له يومًا: (يَا مُعَاذُ ، إِنِّي والله لأحبك) ، فقال معاذ: بأبي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، وَأَنَا وَاللهِ أُحِبُّكَ ، فَقَالَ: (أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ ، لاَ تَدَعْ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) (سنن أبي داود).

إنّ ذكر الله (عز وجل) عبادة تلازم العبد في جميع أحواله ، والمسلم مأمور بأدائها في كل وقت ، وعلى أية هيئة ، حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٩٠ ، ١٩١] ، فحياة المسلم كلها ذكر ؛ في عبادته ، وفي أعماله ، فالصلاة ذكر ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤] ، ويقول سبحانه: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت:٤٥] ، أي: إن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ؛ الأول: أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والثاني: أنها ذكر لله (عز وجل) ، والمقصود الثاني وهو ذكر الله (عز وجل) أكبر وأعظم.

ولقد شرع لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) كثيرًا من الأذكار التي ينبغي للمسلم أن يحرص عليها ، فعن أبي هريرة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذَا أَصْبَحَ ، قَالَ: (اللهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ) ، وَإِذَا أَمْسَى قَالَ: (اللهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نموت، وإليك المصير) (سنن أبي داود) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: اللهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ، لَكَ الْحَمْدُ ، وَلَكَ الشُّكْرُ ، فقد أَدَّى الشُّكْرَ) (سنن أبي داود) ، ومن فعل مثلَ ذلكَ حينَ يمسي ، فقد أدّى شكرَ ليلتِهِ ، فما أجمل أن يبدأ الإنسان يومه بذكر الله ، ويختم يومه بذكر الله ، وهو فيما بين ذلك مداوم على ذكر مولاه.

كما أن هناك أذكارًا تقال **عند الخروج من البيت** ، **وعند دخوله**، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَالَ إِذَا خَرَج مِنْ بيْتِهِ: بِسْم اللهِ توكَّلْتُ عَلَى اللهِ ، وَلا حوْلَ وَلا قُوةَ إلاَّ بِاللهِ ، يقالُ لهُ: هُديتَ ، وَكُفِيت ، ووُقِيتَ ، وتنحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ) (سنن أبي داود) ، وعن أُمِّ سلمةَ (رضي الله عنها) ، قالت: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزلَّ أو أُزَلَّ ، أَوْ أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ ، أَوْ أجهَل أو يُجْهَل علَيَّ) (سنن أبي داود).

ومن أذكار دخول البيت قوله (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا وَلَجَ الرّجُلُ بَيْتَهُ ، فَلْيَقُلْ: اللهُمّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ ، وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ ، بِسْمِ اللهِ

وَلَجْنَا ، وَبِسْمِ اللهِ خَرَجْنَا ، وَعَلَى اللهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا ، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ) (سنن أبي داود)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟) ، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: (يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ) (صحيح مسلم).

كما أن هناك أذكارًا تقال **عند الأكل والشرب** ، كالتسمية في أوله ، والحمد في آخره ، فعن عُمَرَ بْن أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنه) ، قال: كُنْتُ غُلاَمًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يَا غُلاَمُ ، سَمِّ اللهَ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) (صحيح البخاري) ، وكان رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذَا أَكَلَ طَعَامًا قَالَ: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا ، وَسَقَانَا ، وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ) (سنن أبي داود).

كما سنّ لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر الله (عز وجل) **عند دخول السوق** ، وبين لنا عِظم أجره ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَالَ حِينَ يَدْخُلُ السُّوقَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) (سنن الترمذي) .

كما ينبغي للمسلم أن يذكر الله **عند رؤية ما يعجبه** ، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، قال الله تعالى: {وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ} [الكهف: ٣٩] ، وكذلك **عند رؤية أهل البلاء** ينبغي له

أن يحمد الله في سره ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ فَجِئَهُ صَاحِبُ بَلاَءٍ ، فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاَكَ بِهِ ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً ، عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْبَلاَءِ ، كَائِنًا مَا كَانَ) (سنن ابن ماجة).

كما أن المؤمن يلجأ إلى ربه بالذكر **عند الكرب** ، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء:٨٧،٨٨] ، وكَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقول عِنْدَ الكَرْبِ: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ) (صحيح البخاري).

هذه جملة من الأذكار سنها لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من واظب عليها كانت له هداية ونجاة من الغفلة ، وحرزًا من الشيطان ، يقول الحق سبحانه: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[الزمر: ٢٣] ، ويقول سبحانه: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥] ، ويقول جل شأنه: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف:٣٦].

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

لقد كان ذكر الله (عز وجل) لدى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منهجَ حياة يطبقونه عمليًّا، فكان مجتمعهم عامرًا بمراقبة الله تعالى، والبعد عن التعدي .

ومن ذلك ما كان من سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه) حين ولَّى سيدَنا عمرَ بنَ الخطاب (رضي الله عنه) القضاء ، فمكث سيدنا عمر (رضي الله عنه) سنةً كاملةً لا يتقدم إليه أحدٌ ، وعندها طلب من الصديق (رضي الله عنه) إعفاءه من القضاء، فقال: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟ قال عمر (رضي الله عنه): لا يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين ، عرف كل منهم ما له من حق ، فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب فلم يقصر في أدائه ، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه ، وإذا أصيب عزوه وواسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففيمَ يختصمون؟ ففيمَ يختصمون؟.

إن العبد المسلم إذا حقق ذكر الله تعالى في قلبه ، وردده بلسانه ، وطبقته جوارحه ، استقامت له نفسه ، ونال رضا الله تعالى ، وبارك الله (عز وجل) في رزقه ، وانجلي حزنه ، وغمرته السكينة والرحمة.

اللهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ ، وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ ، واحفظ بلدنا مصر، واجعلها أمنًا أمانًا سخاءً رخاءً وسائر بلاد العالمين.

حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)
أنموذج تطبيقي لصحيح الإسلام

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعـد:

فإن الله (عز وجل) قد بعث رسوله محمدًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هاديًا وبشيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، برسالةٍ خاتمةٍ عالميةٍ صالحةٍ ومصلحةٍ لكل زمان ومكان ، فاستوجب ذلك أن يكون رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في أقواله ، وأفعاله ، وجميع أحواله أنموذجًا تطبيقيًّا لصحيح الإسلام ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يلتزم منهج القرآن في علاقته مع ربه ، وعلاقته مع الناس كلهم ، على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم ؛ لذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن خلق النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قالت: (كَان خُلُقُه الُقرآن) (مسند أحمد).

إن المتدبر لسيرة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يجد أنه كان خير أسوة وقدوة في كل أحواله ، وأقواله ، وأفعاله ، ومن ذلك: **صدقه وأمانته (صلى الله عليه وسلم)**: فلقد كان (صلى الله عليه وسلم) صادقًا أمينًا طيلة

حياته ، حتى لُقِّب بين قومه بالصادق الأمين ، قبل بعثته ، وفي ذلك يقول شوقي:

لقبتمــوهُ أمينَ القــومِ في صغرٍ   وما الأمينُ على قـــولٍ بمتّهــمِ

وعندما استدعى هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب – قبل إسلامه – ليسأله عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دار بينهما حوار طويل جاء فيه أن هرقل قَالَ لأبي سفيان: هل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قال أبو سفيان: لاَ ، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قال أبو سفيان: لاَ ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا – أي أننا معه في عهد لا يمكننا أن نعرف ما يصنع بنا فيه– ، ثم قَالَ: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة" (صحيح البخاري) ، والمعنى أنني لم أجد كلمة أستطيع أن أتقول بها على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سوى هذه الكلمة.

ولقد ظهر خُلق الأمانة جليًّا واضحًا في أعلى صوره وأبهى معانيه في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الهجرة المباركة ، حيث أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) عليَّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن ينام في فراشه ، وأن ينتظر ليرد الأماناتِ المودعة عنده إلى أهلها، رغم أنهم ناصبوه العداء ، وأخرجوه ، وآذوه ، وآذوا أصحابَه (رضوان الله عليهم) ، وأخذوا منهم كل ما يملكون ؛ ذلك لأن المؤمن لا تحل له الخيانة حتى مع أعدائه ، والله تعالى يقول: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨] ، وقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ) (سنن أبي داود).

وفاؤه (صلى الله عليه وسلم): فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس ، فلم يتنكر يومًا لأحد ، ولم ينس يومًا فضل أحد ، وكافأ كل صاحب جميل على جميله ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته: (مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَدْ كَافَيْنَاهُ ، مَا خَلاَ أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (سنن الترمذي).

ومن مظاهر وفائه (صلى الله عليه وسلم) **ما كان منه (صلى الله عليه وسلم) لأم المؤمنين السيدة خديجة (رضي الله عنها)** ؛ فقد كان محبًّا ومقدرًا ووفيًّا لها في حياتها ، وبعد وفاتها ، يقول (صلى الله عليه وسلم) موضحا مكانتها: (مَا أَبْدَلَنِي اللهُ (عَزّ وَجَلّ) خَيْرًا مِنْهَا ، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النّاسُ ، وَصَدّقَتْنِي إِذْ كَذّبَنِي النّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ (عَزّ وَجَلّ) وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلاَدَ النِّسَاءِ) (مسند أحمد) ، وتقول السيدة عائشة (رضي الله عنها): (مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ ، وَمَا رَأَيْتُهَا ، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُكْثِرُ ذِكْرَهَا ، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ) (صحيح البخاري).

ومنها: **وفاؤه (صلى الله عليه وسلم) مع غير المسلمين** ، ففي يوم بدر قال (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ كَانَ مُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ، فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ الأَسْرَى لاَطْلَقْتُهُمْ لَهُ) ، وكان للمطعم جميل عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث دخل (صلى الله عليه وسلم) مكة في جواره بعد عودته من رحلة الطائف.

ومنها أيضا وفاؤه (صلى الله عليه وسلم) مع أعدائه حتى في وقت الحرب ، فعن حُذَيْفَة بْن الْيَمَانِ (رضي الله عنه) ، قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (انْصَرِفَا ، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ) (صحيح مسلم) .

كما كان (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا فريدًا ، وأسوة طيبة في تعامله مع أزواجه ، فقد عاش النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مع أزواجه حياةً طيبة، تجلت فيها كل مظاهر المودة ، والرحمة ، والتواضع ولين الجانب ، فلَم يتعالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على أزواجه ، ولم يترفَّع عليهن، بل أحسن معاملتهن جميعًا ، منطلقًا في ذلك كله من قول الله (عز وجل):{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[النساء:١٩] ، ومن قوله سبحانه : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الروم : ٢١] .

فكان (صلى الله عليه وسلم) زوجًا عطوفًا ، يتلطف مع نسائه ، وفي مشهد إنساني رائع لزوج حنون مع زوجه ، يرفع النبي (صلى الله عليه وسلم) أثر البكاء عن أم المؤمنين صفية (رضي الله عنها) ، فَيَمْسَحُ بِيَدَيْهِ الشريفتين عَيْنَيْهَا ، ويهدِّئ من روعها ، يقول أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه): (كَانَتْ صَفِيَّةُ مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي سَفَرٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا ، فَأَبْطَأَتْ فِي الْمَسِيرِ ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ) وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: حَمَلْتَنِي عَلَى بَعِيرٍ بَطِيءٍ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ عَيْنَيْهَا ، وَيُسْكِتُهَا) (السنن الكبرى للنسائي).

كما كان (صلى الله عليه وسلم) أسوة وقدوة طيبة في تعامله مع أبنائه وأحفاده ، فما أعظمه (صلى الله عليه وسلم) أبًا وجدًّا رحيمًا ، يحمل لأبنائه وأحفاده كلَّ معاني الحب والعطف والرحمة ، تقول أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها): (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلاًّ وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ، قَالَتْ: وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، قَامَ إِلَيْهَا ، فَقَبَّلَهَا ، وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ...) (سنن الترمذي) ، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ، وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا ، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ثُمَّ قَالَ: (مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ) (متفق عليه) ، وسجد (صلى الله عليه وسلم) يومًا ، فأطال السجود ، فلما قضى الصلاة ، قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، لَقَدْ سَجَدْتَ فِي صَلاَتِكَ هَذِهِ سَجْدَةً مَا كُنْتَ تَسْجُدُهَا ، أَفَشَيْءٌ أُمِرْتَ بِهِ؟ أَوْ كَانَ يُوحَى إِلَيْكَ؟ ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ ؛ وَلَكِنِ ابْنِي ارْتَحَلَنِي ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ) (المستدرك للحاكم).

على أننا نؤكد أن هذا لم يكن خاصًّا بأبنائه وأحفاده فقط ؛ وإنما كان منهجًا يطبقه (صلى الله عليه وسلم) مع الجميع ، لا يفرق بين أحدٍ منهم ،

فكان يحسن إلى الجميع ، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) ، عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالحَسَنَ ، وَيَقُولُ: (اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا ، فَأَحِبَّهُمَا) (صحيح البخاري) ، وهذا أنس ابن مالك (رضي الله عنه) ، يقول: (خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَشْرَ سِنِينَ ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ ، لِمَ صَنَعْتَهُ؟ ، وَلا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ ، لِمَ تَرَكْتَهُ؟) (سنن الترمذي).

وكذلك كان النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مثلا يحتذى في حسن معاملته لأصحابه ، فكان يشاركهم في أفراحهم ، وأحزانهم ، ويتفقد غائبهم ، ويعود مريضهم ، ويهتم بشئونهم ، ويراعي مشاعرهم في كل شئون حياتهم ، فعَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ (رضي الله عنه) ، قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ (رضي الله عنه): أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؟ قَالَ: نَعَمْ ، كَثِيرًا ، كَانَ لاَ يَقُومُ مِنْ مُصَلاَّهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَيَضْحَكُونَ ، وَيَتَبَسَّمُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (صحيح مسلم).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلمْ وَبارك عليهِ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين.

إخوةَ الإسلام:

كما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا تطبيقيًّا لصحيح الإسلام في إنسانيته ، وأخلاقه، كان كذلك (صلى الله عليه وسلم)

أنموذجًا في **وسطيته واعتداله**: فإن المتأمل في أحكام الشريعة التي دعا إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرى منهج الاعتدال والوسطية واضحًا في كل مجالاتها ، تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (صحيح مسلم) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عنه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (صحيح البخاري).

ومن أجل المحافظة على تلك الوسطية ، وذلك الاعتدال حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من كل مظاهر الغلو ، وخاصة الغلو في التدين ، فأنكر على من بالغ من أصحابه (رضوان الله عليهم) في التعبد والتقشف مبالغةً تخرجه عن حدّ الاعتدال ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) (سنن ابن ماجة).

فما أحوجنا إلى التأسي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والاقتداء بهديه ، واقتفاء أثره في نشر رسالة النور والهداية صافية رائقة كما أنزلها الله تعالى إلى الخلق أجمعين ، باللين ، والرفق ، والرحمة ، وتأليف القلوب ، فرسالة الإسلام عدل كلها ، رحمة كلها ، تسامح كلها ، نفع كلها ، إنسانية كلها.

اللهم ارزقنا حبك ، وحب رسولك (صلى الله عليه وسلم) ، وكل عمل يقربنا إلى حبك، واجعل مصرنا أمنًا أمانًا، سِلمًا سلامًا، وسائر بلاد العالمين.

صورة مشرقة من حياة الصحابة (رضي الله عنهم)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ (رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة : ١٠٠]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعــد:

فإن الله (سبحانه وتعالى) اصطفى أنبياءه ورسله (عليهم الصلاة والسلام) من خلقه ، قال تعالى: {اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج: ٧٥] ، واختار سبحانه لرسله من يعاونوهم على بلاغ رسالات ربهم ، ولقد اختار الحق (جل وعلا) لنبيه (صلى الله عليه وسلم) رجالاً أصفياء ، وصحابةً أخيارًا ، آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، يقول عبد اللهِ ابن مسعود (رضي الله عنه): (إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَاخْتَارَ مُحَمَّدًا (صلى الله عليه وسلم) ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالاَتِهِ ، وَانْتَخَبَهُ بِعِلْمِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بَعْدَهُ ، فَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابَهُ ، فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ ، وَوُزَرَاءَ نَبِيِّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَمَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ حَسَنًا ، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ ، وَمَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ قَبِيحًا ، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ) [مسند أبي داود الطيالسي].

فكانوا (رضوان الله عليهم) أصدق الناس إيمانًا ، وأكثرهم علمًا ، وأدقهم فهمًا ، وأحسنهم عملاً ، حملوا راية الدين إلى أرجاء الدنيا ،

بالحكمة والموعظة الحسنة ، فبلغوا رسالة ربهم على أحسن ما يكون البلاغ ، فاستحقوا أن يكونوا اصطفاء الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، قال في قول الله تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}[النمل: ٥٩] : أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) ، اصطفاهم الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) [جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري] ، فهم من استقوا منهج الإسلام من نبعه الصافي ، ولم يحيدوا عن طريقه المستقيم .

ولقد حفلت حياتهم بالعديد من الصور المشرقة التي جسدت التطبيق العملي لصحيح الإسلام ، منها: **الرحمة** ، فلقد غرس النبي (صلى الله عليه وسلم) في أصحابه خلق الرحمة ، ومن ذلك ما كان من سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حين رآه عيينة ابن حصن يومًا يقبل أحد أبنائه ، وقد وضعه في حجره ، فقال عيينة : أتُقبِّل وأنت أمير المؤمنين؟ لو كنت أمير المؤمنين ما قبلت لي ولدًا ، فقال عمر (رضي الله عنه): فما أصنع إن كان الله نزع الرَّحْمَة من قلبك؟ إنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماء. [جامع معمر بن راشد] ، وفي هذا الموقف تأسى سيدنا عمر (رضي الله عنه) بما كان من النبي (صلى الله عليه وسلم) مع الأقرع بن حابس ؛ حيث قبَّل النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أمامه سيدنا الْحسنَ بنَ عَلِيٍّ (رضي الله عنهما)، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشرةً مِنَ الْولَدِ مَا قَبَّلتُ مِنْهُمْ أَحدًا ، فنَظَر إِلَيْهِ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم قال (مَن لا يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ) [متفق عليه].

كما كانوا (رضوان الله عليهم) أمثلة تُحتذى في **العفو والتسامح**، ومن أرقى الصور وأعلاها ما كان من سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه) ، في عفوه عن مسطح بن أثاثة ، فقد كان الصديق (رضي الله عنه) ينفق عليه لقرابته منه وفقره ، وكان مسطح ممن تكلموا في حق السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، فلما أنزل الله براءتها ، أراد أبو بكر (رضي الله عنه) أن يمتنع عن الإنفاق على مسطح ، فأنزل الله تعالى قوله: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢] ، فقال الصديق (رضي الله عنه): بلى ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، وأعاد الإنفاق على مسطح قائلا: والله لا أنزعها منه أبدًا. [متفق عليه].

ومنها: **علو الهمة و التنافس في فعل الخيرات** ، فقد تعلم الصحابة (رضوان الله عليهم) من النبيّ (صلى الله عليه وسلم) علو الهمة ، والتنافس في فعل الخيرات ، وطلب معالي الأمور ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (...فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ) [صحيح البخاري] ، وهذا ما جعل الصحابة الكرام يتطلعون لمعالي الأمور في كل شيء ، يقول سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): (أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي ، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟) ، قُلْتُ: مِثْلَهُ ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟) قَالَ: (أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أبدًا) [سنن أبي داود] ، وهذا الصحابي الجليل كعب الأَسْلَمِي (رضي الله عنه) ، قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) لِي: (سَلْ) ، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ: (أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ) ، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ ، قَالَ: (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) [صحيح مسلم].

ومنها: **الإيثار والعفة** ، لقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في الإيثار ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَصَابَنِي الجَهْدُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَلاَ رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، يَرْحَمُهُ اللهُ؟) ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَالَ لاِمْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، لاَ تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا ، قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلاَّ قُوتُ الصِّبْيَةِ ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ ، فَنَوِّمِيهِمْ ، وَتَعَالَيْ ، فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ ، فَفَعَلَتْ ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (لَقَدْ عَجِبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلاَنٍ وَفُلاَنَةَ) ، فَأَنْزَلَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [صحيح البخاري].

وفي موقف رائع يجمع بين الإيثار الذي كان عليه الأنصار (رضي الله عنهم) ، والعفة التي كان عليها المهاجرون (رضي الله عنهم) ، يعرض سيدنا سعد بن الربيع (رضي الله عنه) على سيدنا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَوْفٍ (رضي

الله عنه) أَنْ يُنَاصِفَهُ مَالَهُ ، فَقَابلَ سيدنا عبد الرحمن (رضي الله عنه) بكل تعفف ، وطلب منه أن يدله على السُّوقِ ، وتاجر واجتهد حتى صار من أغنى أغنياء المدينة [صحيح البخاري].

ومنها: **الرجوع للحق** ، لقد كان الصحابة (رضي الله عنهم) حريصين على الحق ، ولا يستكبرون على الرجوع إليه ، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ (رضي الله عنه) ، قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي ، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: (اعْلَمْ ، أَبَا مَسْعُودٍ ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ) ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ ، فَقَالَ: (أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ) ، أَوْ (لَمَسَّتْكَ النَّارُ) [صحيح مسلم].

ومنها: **الوفاء بالعهد** ، فلقد غرس النبي (صلى الله عليه وسلم) في نفوس أصحابه قيمة الوفاء بالعهد ، وحثهم على الالتزام به ، فهذا سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) يطبق ذلك عمليًّا ؛ فقد كان بينه وبين الروم عهد ، ففكر معاوية (رضي الله عنه) أن يخرج على مقربة من حدود الروم ، فإذا انتهى الموعد باغتهم ، فلحق به رجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو يقول: الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا ، فإذا عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) ، فأرسل إليه معاوية (رضي الله عنه) ، فسأله ، فقال: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدَّ عقدة ، ولا يحلَّها حتّى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء) ، فرجع معاوية (رضي الله عنه) [سنن أبي داود].

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلمْ وَبارِكْ عليهِ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين.

إخوة الإسلام :

لقد كان الصحابة (رضوان الله عليهم) أسوة طيبة في **إعمار الدنيا بالدين** ، فقد كان لكل واحد منهم عمل يقوم به ، ويحسنه ويتقنه ، فكان منهم التاجر ، والقائد ، وحامل العلم ، وغير ذلك ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهَا حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَعْلَمُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ ، وَأَقْرَؤُهَا لِكِتَابِ اللهِ أُبَيٌّ ، وَأَعْلَمُهَا بِالْفَرَائِضِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ) [مسند الإمام أحمد].

وكانت لأعمال الصحابة (رضي الله عنهم) ثمراتها الطيبة ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يشجعهم ، ويذكر كل واحد بأحسن ما يتقن ، إكرامًا له ولعمله ، ومن ذلك ما كان من سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم تَبُوك ، حيث دخل على النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، وَمعه أَلْفُ دِينَارٍ ، فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا أَبَدًا) [فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل] ، ومنها: **تحري الحلال** ، **ومراقبة الله تعالى في الأمور كلها** ، ومن ذلك ما كان من سيدنا جرير بن عبد الله (رضي الله عنه) ؛ حيث أمر خادمه أن يشتري له فرسا فاشترى له فرسا بثلاثمائة درهم ، وجاء به وبصاحبه ليدفع له الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس: فرسك خير من

ثلاثمائة درهم ، أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال: ذلك إليك ، فقال: فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيده مائة فمائة إلى أن بلغ ثمانمائة درهم ، فاشتراه بها ، فقيل له في ذلك ، فقال: إني بايعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على النصح لكل مسلم) [صحيح مسلم].

فكان كل واحد منهم يعرف ما عليه فيؤديه ، ولا يتجاوز ما له ، ولقد ولَّى سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) سيدنا عمرَ بن الخطاب (رضي الله عنه) القضاء ، فمكث سيدنا عمر (رضي الله عنه) سنةً ، لا يتقدم إليه أحدٌ ، وعندها طلب من الصديق (رضي الله عنه) إعفاءه من القضاء، فقال: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟ قال عمر (رضي الله عنه): لا يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين ، عرف كل منهم ما له من حق ، فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب ، فلم يقصر في أدائه ، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه ، وإذا أصيب عزوه وواسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففيمَ يختصمون؟ ففيمَ يختصمون؟.

ألا ما أحوجنا إلى العودة إلى أخلاق هذه النماذج الصالحة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والتخلق بأخلاقهم ، وإظهار الصورة الصحيحة لدين الإسلام ، دين الرحمة ، والسماحة ، والإنسانية ، والسلام للناس أجمعين.

(اللهم احفظ علينا بلدنا ووطننا وشعبنا وجيشنا وشرطتنا ، واجعل مصر سخاء رخاء وسائر بلاد العالمين).

أمة اقرأ .. أمة أتقن ..
بين علماء الأمة وعلماء الفتنة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ} [الزمر: ٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

وبعـــد:

فلقد رغَّب الإسلام في طلب العلم ، وحث على الجد والاجتهاد في تحصيله ، ولا أدل على ذلك من أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو قول الله سبحانه وتعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ـ ٥] ؛ فأول أمرٍ سماوي نزل به الوحي هو الأمر بالقراءة التي هي أول أبواب العلم ، ثم أتت بعد ذلك الإشارة إلى القلم الذي هو وسيلة تدوين العلم ونقله ، وفي هذا تنبيه للناس كافة على بيان فضل العلم ، والترغيب في طلبه ، والحث عليه، وإشارة صريحة إلى أن الإسلام دين العلم والمعرفة ، وأن هذه الأمة هي أمة العلم وصناعة الحضارة.

كما سُميت سورة كاملة في القرآن الكريم باسم "القلم" ، واستهلها (سبحانه وتعالى) بقوله: {ن * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}[القلم: ١ ، ٢] ؛ تأكيدًا على أهمية أدوات العلم ووسائله ، وكفي بالعلم شرفًا أن الله (عز وجل) لم يأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالازدياد من شيء في الدنيا إلا من العلم، حيث يقول (سبحانه وتعالى): {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤] ، بل إن

النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل الخروج لطلب العلم خروجًا في سبيل الله (عز وجل) ، وبين أن الجد في طلبه سبب من أسباب دخول الجنة ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ) [سنن الترمذي] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ" [صحيح مسلم] ، فالعلم أحد أعمدة بناء الدول ، به تنهض الأمم وتتقدّم ، وبه ينال الإنسان مكانته ، ويعلو قدره.

ولقد أعلى القرآن الكريم من شأن العلماء – على اختلاف تخصصاتهم – فقال تعالى: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١] ، كما شهد الله تعالى للعلماء بأنهم أهل خشيته ، فقال سبحانه: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨] ، ولعظم قدرهم وعلو منزلتهم شرَّفهم الله (عز وجل) بالشهادة على أعظم مشهود ، فقال تعالى: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

وقد أكد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على ذلك ، فبين أن أهل العلم هم ورثة الأنبياء في إرشاد الناس ، وهدايتهم ، والأخذ بناصيتهم إلى طريق الحق والنور ، والإصلاح والبناء ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِرٍ) [سنن أبي داود] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ) [سنن أبي داود].

ولا شك أن أهل العلم الذين كرمهم الله (عز وجل) وأعلى من شأنهم ، والذين أثنى عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هم علماء الأمة المخلصون الذين أدركوا عظم الأمانة التي يحملونها ؛ أمانة العلم ، وأمانة الدعوة ، وأمانة البيان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِيَ فَحَفِظَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا ...) [مسند البزار] ، علماء الأمة المخلصون هم من فطنو لطبيعة المهمة التي اصطفاهم الله عز وجل من أجلها ، وأنها ليست مهمة تكسُّب بالعلم ، أو بالدين ، فالرسالة التي يقومون بأدائها أرقى ، وأسمى ، وأعظم من ذلك ، يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم): {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سبأ: ٤٧] ، ويقول سبحانه على لسانه (صلى الله عليه وسلم): {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} [الفرقان: ٥٧]، ويقول سبحانه على لسان أنبيائه: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب (عليهم السلام): {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: ١٠٩] ، بصيغة واحدة تؤكد وحدة الهدف ، والمنهج ، وصدق النية مع الله (عز وجل) ، وتمام الإخلاص له وحده .

إن علماء الأمة الحقيقيين هم من بذلوا وقتهم ، وجهدهم ، وقدموا علمهم خدمة لدينهم ، ووطنهم ، فسلكوا بالناس مسلك الوسطية والاعتدال ، والتسامح والرحمة ، فأثمرت دعوتهم أجيالا نافعة ، تبني ولا تهدم ، تعمر ولا تخرب ، تُعلي من القيم الإنسانية ، وترفع من كرامة الإنسان ، وتتعايش مع الناس جميعا في سلم وسلام ، وأمن وأمان ، وهذا

هو العلم النافع الذي يكون ذخرا لصاحبه بعد وفاته ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ ، إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) [صحيح مسلم] ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يستعيذ بالله من العلم الذي لا ينفع ولا يبني ولا يعمر ولا يهذب الأخلاق والسلوك ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: (سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ) [صحيح ابن حبان] ، وكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم) : (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا) [صحيح مسلم] .

إن علماء الأمة الحقيقيين هم من فقهوا رسالة العلم ، وعرفوا ثقل أمانته، فأدركوا خطورة الفتوى ، وكانوا يتحرجون منها ، لعلمهم بعظم أمرها ، وهذا ما كان عليه أهل العلم من الصحابة والتابعين ، فها هو سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، يقول: "أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟" [موطأ الإمام مالك] ، وقد سُئل الإمام مالك (رحمه الله) يومًا في أربعين مسألة ، فأجاب عن أربع منها ، وقال في ست وثلاثين منها: "لا أدري" [نهاية السول شرح منهاج الوصول] ، دون خجل ، أو تردد ؛ لأنَّ (لا أدري) هي وقاية العالم وجُنته التي لو أغفلها هلك.

وسئل الإمام الشافعي (رحمه الله) يومًا عن مسألةٍ ، فسكَت ، فقيل له: ألا تُجيب السائل يا إمام؟ فقال: "حتى أدري الفضل في سكوتي، أم في الجواب" [فتاوى ابن الصلاح] ، وكان الإمام أحمدُ بن حنبل (رحمه الله)

يُستفتَى ، فيُكثر مِن قول: لا أدري ، وسئل الشعبي (رضي الله عنه) عن مسألة ، فقال: لا أحسنها ، فقال له أصحابه: قد استحيينا لك ، فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالت: {لاَ عِلْم لَنَا إلاَ مَا عَلَّمْتنَا} [البقرة: ٣٢] [نثر الدرر] ، وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت عشرين ومائة من الأنصار ، من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يُسألُ أحدهم عن المسألة ، فيردها إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول [السنن الكبرى للبيهقي] ، وقد سئل عطاء بن يسار عن شيء ، فقال: "لا أدري" ، قيل له: أَلا تقول فيها برأيك؟ قال: "إني أستحيي من الله (عز وجل) أن يدان في الأرض برأيي" [سنن الدارمي].

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلّ وسلمْ وَبارك عليهِ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن علماء الأمة المخلصين هم أصحاب الهدْي الصالح ، والسَّمت الصالح ، والاقتصاد والاعتدال ، الذين يحملون راية الوسطية في كل زمان ينفون عن دين الله تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين.

أما علماء الفتنة الذين اتخذوا دينهم مطية لتحقيق أهدافهم ، وبلوغ أغراضهم ، فأولئك الذين تجرءوا على دين الله (عز وجل) ، وأطلقوا قذائف الفتاوى التي تضر ولا تنفع ، وتفرق ولا تجمع ، وتهدم ولا تبني ،

وتفتح على الأمة باب التكفير ، الذي حذر الإسلام من الولوج فيه ، حيث يقول الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء: ٩٤] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا ، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ) [صحيح مسلم].

لقد اتخذ علماء الفتنة من التشدد والعنت والتضييق على الناس منهجًا لهم ؛ وهو منهج بعيد عن سماحة الإسلام ووسطيته ، فقد رفع الإسلام عن الناس الحرج ، وأزال عنهم المشقة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا ، وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا) [صحيح مسلم] ، فالتشدد في الفتاوى يخالف الوسطية السمحة التي تميز بها الدين الإسلامي الحنيف ، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣] ، والوسطية تعني: العدل والاعتدال ، والبعد عن الغلو الذي هو سبب في هلاك الأمم ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) [سنن النسائي] ، وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ (رحمه الله): "إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَنَا الرُّخْصَةُ مِنْ ثِقَةٍ ، فَأَمَّا التَّشَدُّدُ فُكُلُّ أَحَدٍ يُحْسِنُهُ" [فتاوى ابن الصلاح].

على أننا نؤكد أن الجرأة على الفتوى من غير المؤهلين لها علميًّا ضلال وإضلال ، فما أكثر ما تسببت الفتوى بغير علم في الإضرار بحياة الأشخاص ، فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) ، قال: خرجنا في

سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجّه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي (صلى الله عليه وسلم) أُخبر بذلك ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (قَتَلُوهُ ، قَتَلَهُمُ اللهُ ، أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا ؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ – أَوْ يَعْصِبَ – عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا ، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ) [سنن أبي داود].

فما أحوجنا إلى أن يلزم كل منا تخصصه ، يجتهد فيما يحسنه، خشية لله تعالى، واحترامًا للعلم ، وحتى لا يضل الناس ، يقول الحافظ بن حجر (رحمه الله): "من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب" [فتح الباري] ، وكم من كلمةٍ أطلقها صاحبها – بغير علم – كانت سببا في خراب ، ودمار ، وفساد ، فالسكوت خير من كلام يضر ولا ينفع ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (... وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) [صحيح البخاري].

اللهمّ أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، وعلمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علمًا.

❊ ❊ ❊

□

حقوق الشباب ووجباتهم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

وبعـــد:

فإن مرحلة الشباب من أهم مراحل عمر الإنسان ؛ فهي مرحلة القوة البدنية ، والنضج ، والحيوية ، والنشاط ، والعطاء ، والأمل الواسع ، والانفتاح على الحياة ، ولا شك أنَّ الشباب هم عماد الأمة ، وقلبها النابض، وساعدها القويّ ، ولا ينكر أحد دورهم المهم في بناء الأوطان ، وفي نهضة الأمم ورقيها.

ولقد عبر القرآن الكريم عن مرحلة الشباب بأنها مرحلة القوة بين ضعفين ؛ ضعف الطفولة ، وضعف الشيخوخة ، فقال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم: ٥٤] ، لذا كانت النبوة والرسالة في سن الشباب، قال تعالى حكاية عن سيدنا يوسف (عليه السلام): {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[يوسف: ٢٢] ، وقال عن سيدنا موسى (عليه السلام): {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص: ١٤] ، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): (مَا بعث الله نبيًّا إلا شابًّا ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب ...) ، فهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) واجه عبدة الأصنام وهو في سن الشباب ،

قال تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} [الأنبياء: ٦٠] ، كما أشار القرآن الكريم إلى فطنة وذكاء سيدنا سليمان (عليه السلام) وهو في مرحلة الشباب ، فقال سبحانه: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: ٧٩] ، وهذا نبي الله موسى (عليه السلام) في ريعان شبابه وقوته وأمانته التي دفعت ابنة الرجل الصالح إلى التعبير عن ذلك ، كما حكى القرآن الكريم على لسانها ، في قوله تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} [القصص: ٢٦] ، وخاطب سبحانه سيدنا يحيى (عليه السلام) ليقوم بأمانة العلم ، وتحمل عبء الدعوة ، في قوة وعزم الشباب ، قال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم: ١٢] ، وقال تعالى واصفًا فتية الكهف المؤمنين: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً} [الكهف: ١٣] ، كما بين الحق سبحانه وتعالى أن الشباب والقوة والعلم من مؤهلات القيادة وتحمل المسئولية ، حيث يقول سبحانه: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٤٧].

ولأهمية هذه الفترة من عمر الإنسان فقد بين النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الله (عز وجل) سوف يسأل العبد عنها سؤالاً خاصًّا يوم القيامة ، حتى يجتهد الإنسان في الاستفادة منها ، واغتنامها فيما يعود نفعه عليه وعلى الناس ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لا تَزُولَ قَدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَرْبَعِ خِصالٍ ؛ عن عُمُرِهِ فيمَ أَفْناهُ؟ وعَنْ شَبابِه فيمَ أَبْلاهُ؟

وعَن مالِهِ من أين اكْتَسَبَهُ ، وفيمَ أَنْفَقَهُ؟ وعَنْ علمِهِ ماذا عمِلَ فيهِ؟) [المعجم الكبير للطبراني].

ولقد اهتم الإسلام بالشباب اهتمامًا كبيرًا ، وجعل لهم حقوقًا ، وعليهم واجبات ، فلهم حق **التعليم** ، **والتوجيه** ، **وحسن الإعداد** ، ولقد حكى القرآن الكريم ما كان من لقمان الحكيم مع ابنه ، حيث غرس فيه الجوانب الدينية ، وحثّه على الإصلاح و العطاء ، والتحلي بالقيم الأخلاقية ، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] ، وقال سبحانه: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: ١٦ – ١٩].

وهذا ما كان يفعله النبي (صلى الله عليه وسلم) مع الشباب ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يهتم بهم اهتمامًا بالغًا ، ويحرص على تأهيلهم وإعدادهم ، ويغرس في قلوبهم وعقولهم مبادئ الدين العظيمة ، وحب العلم والتميز ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمًا ، فَقَالَ: (يَا غُلاَمُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى

أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ) [سنن الترمذي].

وبعد التعليم الجيد ، والتدريب المتقن ، يأتي حق الشباب **في التمكين والدفع بهم – كل حسب علمه وقدراته وكفاءته – في مواقع العمل أو القيادة والمسئولية** ، وهذا ما فعله النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حيث وظف طاقات الشباب المختلفة ، ودفع بهم لخوض معتركات الحياة ؛ فقد استأمن النبي (صلى الله عليه وسلم) على دعوته شابا لم يتجاوز العشرين من عمره ، هو الأرقم بن أبي الأرقم (رضي الله عنه) الذي كان بيته مقرًّا آمنًا للنبي (صلي الله عليه وسلم) وصحابته الكرام في بداية الدعوة الإسلامية ، كما أمَّر النبي (صلي الله عليه وسلم) أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) على جيش المسلمين ، وعمره آنذاك لم يتجاوز الثامنة عشرة .

وهذا زيد بن ثابت الأنصاري (رضي الله عنه) الذي كان عمره أحد عشر عامًا عند قدوم النَّبِيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْمَدِينَةَ ، وقد أمره النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن يتعلم لغة اليهود ، ويعمل مترجمًا لرسول الله (صلى الله عليه و سلم) من وإلى لغة اليهود ، وعن ذلك يقول سيدنا زيد (رضي الله عنه): "... فَتَعَلَّمتُ لَهُ كِتَابَهُم ، مَا مَرَّت بِي خَمسَ عَشرَةَ لَيلَةً حَتى حَذَقتُهُ ، وَكُنتُ أَقرَأُ لَهُ كُتُبَهُم إِذَا كَتَبُوا إِلَيهِ ، وَأُجِيبُ عَنهُ إِذَا كَتَبَ" [مسند أحمد] ، هذا إلى جانب تعلمه السّريانية ، والْفَارِسِيَّة ، والْحَبَشِيَّة، وَالرُّومِيَّة ، وَغيرها ، ثم كان له بعد تراكم كل هذه الخبرات دوره العظيم في جمع القرآن الكريم ، فقد قال له سيدنا أَبُو بَكْر الصديق (رضي الله

عنه) في خلافته: "إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ" [صحيح البخاري] ، فقام سيدنا زيد (رضي الله عنه) بهذه المهمة الثقيلة الجليلة على خير ما يكون القيام ، هذا إلى جانب كونه (رضي الله عنه) عَلَمًا في علم المواريث والقراءات ، وكافة العلوم الشرعية التي أهلته أن يكون مفتيا وقاضيا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان (رضي الله عنهما) ، وعمره لم يتجاوز الثلاثين عامًا ، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) **يدعو لمجلسه الشباب إلى جانب الشيوخ، ويستشيرهم في كل الأمور** ، ويقول: "لا يمنع أحدًا منكم حَداثة سِنه أن يشير برأيهل ، فإن العلم ليس على حداثة السن ولا قِدمه ، ولكن الله يضعه حيث شاء" [جامع معمر بن راشد] ، فكان في مجلسه شباب ، في مقدمتهم سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) الذي قال عنه عمر (رضي الله عنه): "إن له لسانًا سؤولاً ، وقلبًا عقولاً" [المعجم الكبير للطبراني].

ولم يكن الأمر قاصرًا على الشباب من الرجال ؛ وإنما كان **للنساء الشابات دورهن الذي لا ينكر في صنع الحضارة الإسلامية** ، فكان لهن دورهن في السلم والحرب ، ومنهن السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنهما) ودورها البارز في الهجرة النبوية ، حيث كانت تقوم بالإمداد من الطعام والشراب للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وأبيها (رضي الله عنه) في رحلة الهجرة المشرفة .

بل كان لهن دورهن في أشد الأوقات وأصعبها ، ففي ساحات المعارك كن يسقين الجند ، ويسعفن المصابين ، ومن ذلك ما كان منهن يوم أحد ،

يقول أنس (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): "وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ، وَأُمَّ سُلَيْمٍ تَنْقُلَانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا – أي: ظهورهما – ثُمَّ تُفْرِغَانِها فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا ، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ" [صحيح البخاري].

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إنَّ واجبات الشباب كثيرة ، **أولها**: **تحصين أنفسهم بالعلم والثقافة** ، **والمزيد من التعلم المستمر** ، فالعلم في تطور وتقدم كل لحظة ، ولا بد لشبابنا من مواكبة التطورات والأحداث ، ومراعاة متطلبات سوق العمل ، واحتياجات الوطن ، وذلك بالاستزادة من البرامج والدورات التدريبية ، والخبرات اللازمة ، حتى يكونوا مؤهلين لمواجهة التحديات ، وإن الله (عز وجل) لم يأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالاستزادة من شيء من أمور الدنيا إلا من العلم ، حيث يقول سبحانه مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم): {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤].

ثانيها: **الحرص على الإفادة من الخبرات** ، **والحذر من الغرور** ، فينبغي للشباب أن يستفيدوا من حكمة وخبرة من سبقوهم من ذوي الخبرة ، فالعلاقة بين الأجيال المتعاقبة ليست علاقة إقصاء ، ولا صراع ؛ إنما هي علاقة تكامل ، وتناصح ، وليحذر شبابنا الغرور الذي يهدم ولا يبني ،

ويهلك صاحبه ؛ حيث يقول سبحانه: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} [الإسراء: ٣٧] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٍ: شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِرَأْيِهِ) [مسند البزار].

ثالثها: **تجديد النية لخدمة الدين** والوطن ، فالإنسان مأجور بقدر إخلاصه في عمله ، وصدق نيته ، قال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ...) [صحيح البخاري].

رابعها: **اغتنام الفرصة ببذل المزيد من الجهد** ، **وإدراك أن الطريق طويل** ، **والأمانة ثقيلة** ، ذلك أننا نعيش في مجتمع يتحرك بسرعة عالية ، ولا مكان فيه لغير المجدين والمتفانين في أعمالهم ، وفي تنفيذ المهام المسندة إليهم ، فلكي نحقق طموحاتنا ونصل للمكانة التي نرجوها لأنفسنا ووطننا لا بد أن نبذل أقصى الطاقة والجهد والوسع في أعمالنا.

خامسها: **رد الجميل للوطن الذي ربّى وعلّم ومكّن** ؛ فللوطن حق على أبنائه الذين عاشوا على ترابه ، وتربوا في خيراته ، ولهم فيه ذكرياتهم وتاريخهم ، وليكن زادنا الإصرار والعزيمة ، وسلاحنا العلم والإبداع ، وشعارنا الانتماء والعطاء؛ خدمة لهذا الوطن ، ودفاعًا عن ترابه، ولله درّ شوقي حين قال في ديوانه:

وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ   يَدٌ سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحِقُّ

ويقول حافظ إبراهيم في ديوانه:

رِجالَ الغَدِ المَأمولِ إِنّا بِحاجَةٍ   إِلى قادَةٍ تَبني وَشَعبٍ يُعَمِّرُ
رِجالَ الغَدِ المَأمولِ إِنّا بِحاجَةٍ   إِلى عالِمٍ يَدعو وَداعٍ يُذَكِّرُ
رِجالَ الغَدِ المَأمولِ إِنّا بِحاجَةٍ   إِلى عالِمٍ يَدري وَعِلمٍ يُقَرَّرُ

رِجالَ الغَدِ المَأمولِ إنَّ بِلادَكُم تُناشِدُكُم بِاللهِ أَن تَتَذَكَّروا
عَلَيكُم حُقوقٌ لِلبِلادِ أَجَلُّها تَعَهُّدُ رَوضِ العِلمِ فَالرَوضُ مُقفِرُ
قُصارى مُنى أَوطانِكُم أَن تَرى لَكُم يَدًا تَبتَني مَجدًا وَرَأسًا يُفَكِّرُ

اللهمّ بارك لنا في شبابنا ، واحفظهم من كل سوء ، ووفقهم للبناء والتعمير، واهدهم لما فيه صلاح البلاد والعباد ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين.

* * *

وحدة الوطن سبيل قوته

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣] ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُوحده لا شريك له ، وأَشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله، اللهم صلِ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـد:

فقد جاء النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) برسالة تدعو إلى **الوحدة والتـآلف** ، **وتنهى عن الفرقة والشقاق** ، فجمع أشتات العرب المتنافرين ، وجعلهم أمة واحدة ، وآخى بينهم بأخوة الإيمان ، وربط بين قلوبهم برباط الألفة ، حيث يقول الحق (سبحانه): {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[الحجرات: ١٠] ، ويقول (جل شأنه): {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣] ، كما أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالتواد ، والتراحم ، والتعاطف ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (صحيح مسلم).

على أن هذا التآلف **لم يقتصر على المسلمين فيما بينهم** ؛ **ولكنه شمل الناس جميعًا** ، حيث يقول الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣] ، وهذا ما أكده القرآن الكريم حين تحدث عن الأخوة الإنسانية بين الأنبياء وبين المخالفين لهم في العقيدة،

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [الأعراف: ٦٥] ، وقوله (جل شأنه): {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} [الأعراف: ٧٣] ، وقوله سبحانه: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [الأعراف: ٨٥] ، وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصص الأنبياء السابقين ، قال (جل شأنه): {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: ٥٢] ، ويقول سبحانه: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٩٢] ، قال الإمام البغوي (رحمه الله): "بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين ، والألفة والجماعة، وترك الفرقة والمخالفة" (تفسير البغوي).

ومما لا شك فيه أن دعوة الإسلام إلى **الوحدة والاجتماع** ، **ونبذ الفرقة والأنانية** ، **هي إحدى عوامل الحفاظ على قوة الوطن وسلامة المجتمع** ؛ لأن الفرد مهما كان قويا في مجتمع ضعيف فإنه يظل ضعيفًا، وفي المقابل إذا كان الفرد ضعيفًا في مجتمع قوي فإنه يستمد قوته من قوة المجتمع الذي يعيش فيه ؛ لذا أعلى الإسلام من قيمة المواطنة ، وأكد على أن الوطن لجميع أبنائه ، وهو بهم جميعا ؛ لأن وحدة الوطن تقتضي عدم التفرقة بين أبنائه على أساس الدين ، أو اللون ، أو الجنس ، فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، والعمل الصالح ، ومن هنا كانت وثيقة المدينة التي أقرها النبي (صلى الله عليه وسلم) مع يهود المدينة ؛ حيث أعطى اليهود كل حقوق المسلمين من الحرية ، والأمن ، والسلام ، وألزمهم فيها بالدفاع المشترك مع المسلمين عن المدينة ، في تأكيد قوي أن الوطن في الإسلام يشمل جميع المواطنين ويسعهم ، طالما التزم كل منهم واجباته ومسئولياته.

كما أعلى الإسلام من قيمة العمل بروح الجماعة ، وجعل وحدة الصف، وتكاتف الجهود ، ونبذ الخلافات واجب الأمة في كل زمان ومكان ، وهذا أمر الله تعالى في القرآن الكريم ، قال سبحانه: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا ؛ فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) (صحيح مسلم) ، ولقد ضرب النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مثلا للأمة في اتحادها ، وتماسكها ، وتآزرها بالبنيان المرصوص ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) ، ولله در القائل:

كُونُوا جَمِيعًا يَا بَنِيَّ إِذَا اعْتَرَى خَطْبٌ ، وَلاَ تتفرقُوا آحَادًا
تَأبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجتَمَعْنَ تَكَسُّرًا وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ أَفْرَادًا

ولقد ضرب لنا القرآن الكريم نماذج للوحدة التي أدت إلى الحفاظ على الوطن ، وسلامة المجتمع ، ومن ذلك ما كان من سيدنا يوسف (عليه السلام) حين أعد الخطة المحكمة ، وتعاون الجميع ، واتحدوا خلف غايتهم ، وطبقوا ذلك على أرض الواقع ، فتعاونوا ، وتكاتفوا – كل قدر استطاعته – وفق المنهج المرسوم ، ورغبة في الغاية المنشودة ، فتحقق للبلاد الرخاء ، والازدهار، والحماية ، والقوة الاقتصادية ، وجاءه الناس من كل فج عميق لينالوا من خيرات مصر ، حيث قال سبحانه وتعالى على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام): {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ

سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: ٤٧- ٤٩].

كما دعا الإسلام ورغب في كل أمر يكون سببا في وحدة الصف والاجتماع ، فدعا إلى الرحمة واللين والرفق ، فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩] ، فالرحمة واللين وخفض الجناح سبب للاتحاد وتأليف القلوب ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ ، وَالرَّوْحَةِ ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) (المعجم الكبير).

كما دعا الإسلام إلى نشر الألفة والسلام بين أبناء المجتمع على اختلاف عقائدهم ، حيث يقول سبحانه: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣] ، ويقول تعالى: {لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨]، وكان النّبي (صلى الله عليه وسلم) يتعامل مع غير المسلمين من هذا المنطلق القرآني ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يحسن إليهم ، ويقبل هديتهم ، ويجيب دعوتهم ، ويعود مريضهم ؛ إظهارًا لسماحة هذا الدين ، وحفاظًا على وحدة المجتمع وتماسكه.

وجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) المحبة بين الناس شرطًا لكمال الإيمان ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ،

وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ) (صحيح مسلم) ، ونهى (صلى الله عليه وسلم) عن خصومة الغير ، والانخراط في أسبابها ، وجعل الخيرية لمن يسارع في تحقيق التصالح والوئام ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (لاَ تَبَاغَضُوا ، وَلاَ تَحَاسَدُوا ، وَلاَ تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ) (مسند أحمد).

إن واجب الوقت وفقه الأولويات يحتمان على جميع أبناء الوطن المخلصين المدركين لطبيعة المرحلة أن **يقفوا جميعًا صفًّا واحدًا** ، حتى تحقق الكفاية لوطنهم ، كل في مجال عمله ؛ فأهل الطب يتعاونون في تحقيق الكفاية لوطنهم ، وكذلك رجال القانون ، والهندسة ، والزراعة ، والتعليم ، وغير ذلك الكثير من سائر التخصصات والصناعات ، وذلك بتنمية روح البذل والعطاء ؛ فهذا يعمل بيده ، وذاك ينفق من ماله ، وهذا يعلم الناس ، وبهذا يتم توظيف جميع الطاقات والمواهب لخدمة الوطن ، فهذا من صميم ديننا ، حيث خاطبنا الله تعالى جميعًا بصيغة الجمع التي لا تستثني أحدًا من العمل والجد ، حيثُ يقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥] ، ويقول (جل شأنه): {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: ١٠].

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن المتابع الجيد لأحداث التاريخ يدرك أن التفرق والاختلاف سبب من أسباب الهزيمة والضعف ، وقد حذرنا القرآن الكريم من ذلك ، فقال تعالى: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥] ، وقال سبحانه: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[الأنفال: ٤٦] ، كما أن التفرق واختلاف الكلمة يذهب مهابة الأمة ، ويورثها الضعف والوهن ، ويكفي في التحذير من الفرقة أن من مات عليها مات ميتة جاهلية.

من أجل ذلك حارب الإسلام كل سلوك ومظهر من شأنه أن يؤدي إلى الفرقة والاختلاف ، فترى أن الإسلام نهى عن **العنصرية** التي هي أثر من آثار العصبية الجاهلية الممقوتة ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ) (سنن أبي داود) ، كما بين النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الناس متساوون في الحقوق والواجبات ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى ...) (مسند أحمد).

كما نبذ الإسلام الكراهية ، وحذر منها ؛ لأنها الوقود المحرك لكل عدوان ، يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ؟) ، قَالُوا: بَلَى ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ) (سنن أبي داود) ؛ أي: التي تزيل الحسنات وتمحوها ، كما حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من كراهية الإنسان لأخيه ، وربط بين كمال الإيمان وسلامة الصدر، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (صحيح البخاري).

ومن هنا ، ينبغي أن نبتعد عن كل ألوان الفرقة والشقاق والتنافر ، وكل مظاهر العنف والتشدد ، قال (صلى الله عليه وسلم): (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) ، وكررها ثَلاَثًا (صحيح مسلم) ، والمتنطعون: هم المتعصبون ، والمتشددون الذين يتجاوزون حد الاعتدال في أقوالهم وأفعالهم ، وينشرون الفرقة بين الناس ، فهؤلاء أصحاب مصالح خاصة ، يوظفون الدين لمصالحهم ، وأهوائهم ، ومطامعهم السلطوية ، فيفرقون ولا يجمعون ، ويَضِلونَ ويُضِلون، ويغرسون العداوة والبغضاء في النفوس ، وقد تبرأ النبي (صلى الله عليه وسلم) من ذلك كله ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً ، فَقُتِلَ ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي ، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا ، وَلاَ يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ) (صحيح مسلم).

إن قـوة الـوطن تنبـع مـن تماسـك ووحـدة جميـع أبنائـه ، واتحـاد واصطفاف أهله ، وبعدهم عـن التشرذم والتفرق ، وهـذا مبدأ أصيل مـن مبادئ الإسلام ، نحن في أمس الحاجة إلى تطبيقه عمليًّا ، خاصة والعالم حولنا يتكتل ولا يحترم إلا الأقوياء المتحدين.

اللهم وحد صفوفنا ، وألف بين قلوبنا ، ووفقنا لما تحب وترضى ، وارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، واحفظ مصرنا، وارفع رايتها في العالمين.

* * *

الدخول في معية الله (عز وجل) (أسبابه ، وآثاره)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإنَّ معية الله (عز وجلَّ) منها معية مراقبة ، ومنها معية تأييد ، أما الأولى فتعني: إحاطته سبحانه وتعالى بجميع خلقه ، حيث يقول سبحانه: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٥٩] ويقول سبحانه : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة:٧] ، ويقول جل شأنه: {أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:١٤] ، وأما الثانية وهي معية التأييد والتوفيق والحفظ والعون والرعاية ، فقد اختص بها رسله وأنبياءه وأولياءه والصالحين من عباده ، ولقد أشار القرآن الكريم في مواطن عدة لهذه المعية العظيمة التي نالها صفوة الله من خلقه ، ومن ذلك خطاب الله (عز وجل) لنبيَّينِ كريمَين من

أنبيائه – سيدنا موسى ، وسيدنا هارون (عليهما السلام) – حيث يقول سبحانه: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي* اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه:٤٢ـ٤٦] وهي المعية التي تحدث عنها موسى (عليه السلام) حين ظن قومه أن فرعون وجنوده قد أدركوهم، وأنه لا نجاة لهم من سطوته ، فالبحر أمامهم ، وفرعون وجنوده خلفهم ، فصاحوا: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: ٦١] فأجاب سيدنا موسى (عليه السلام) بيقين الواثق في معية ربه وتأييده ونصره:{قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}[الشعراء: ٦٢].

وهي معية الله (عز وجل) لنبيه (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه الصديق (رضي الله عنه) في أثناء الهجرة ، حيث يقول سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه): كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي الغَارِ ، فَنَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟) [صحيح مسلم] وفي هذا يقول سبحانه: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة: ٤٠].

فما أعظم أن يكون العبد في معية الله (عز وجل) ، ومن كان في معية الله فلا عليه بمن عليه ومن معه ، ولكي تتحقق للعبد معية الله سبحانه

وتعالى فعليه الدخول من الأبواب الموصلة إليها ، ولا بد له أن يحقق الأسباب التي تؤهله لذلك ، ومن أهم هذه الأبواب: **تحقيق الإيمان بالله (عز وجل)** ، حيث يقول سبحانه: {وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١٩] ، ومقتضى الإيمان كما ذكر رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): (أن تُؤمِنَ باللهِ وملائكتِه وكُتبِه ورُسلِه واليومِ الآخرِ وتُؤمِنَ بالقدَرِ خيرِه وشرِّه) [متفق عليه] ، وحقيقة الإيمان أن يظهر أثر هذا التصديق في سلوك الإنسان ومعاملته مع الناس ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) [السنن الكبرى للنسائي].

وعندما سُئل الحسن البصري (رحمه الله): أمؤمن أنت؟ قال: "الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والبعث والحساب ، فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قول الله (عز وجل): {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: ٢ – ٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا" [شعب الإيمان للبيهقي] ، قال البيهقي معلقًا: فلم يتوقف الحسن في أصل إيمانه في الحال ؛ وإنما توقف في كماله الذي وعد الله (عز وجل) أهله بالجنة ، في قوله تعالى: {لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[الأنفال: ٤].

ومنها: **أن يحقق العبد التقوى والإحسان** ، حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨] ويقول

سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنّ اللهَ مَعَ الْمُتّقِينَ} [البقرة:١٩٨] ، ويقول جل شأنه: {وَإِنّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩] ، والتقوى: هي فعل كل أمر يُرضي الله (عز وجل) ، والبعد عن كل ما يسخطه سبحانه ، فهي جماع كل خير ، وقد بين القرآن الكريم معنى التقوى في مواطن كثيرة ، منها قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة:١٧٧].

ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ تَحَاسَدُوا ، وَلاَ تَنَاجَشُوا ، وَلاَ تَبَاغَضُوا ، وَلاَ تَدَابَرُوا ، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ ، وَلاَ يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هَاهُنَا) وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ) [صحيح مسلم].

وقال سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأُبي بن كعب (رضي الله عنه): ما معنى التقوى التي أكثر الله من ذكرها في كتابه؟ فقال: يا أمير المؤمنين ، أما سلكت طريقا ذا شوك؟ قال: بلى ، قال: فماذا كنت تفعل؟ قال: كنت أشمر ثيابي ، وأحترز ، قال: هذه التقوى. [التذكرة في الوعظ لابن الجوزي] .

وأما الإحسان ، فقد بين النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) حقيقته في قوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [متفق عليه] وهنا يحقق العبد تمام مراقبة الله (عز وجل) ، ويوقن تمام اليقين أن ربه لا يغفل عنه في سره وجهره ، في حركاته وسكناته ، قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَم بِأَنّ اللهَ يَرَى}[العلق: ١٤].

وكذلك من أسباب الدخول في معية الله (عز وجل) : **الصبر** ، قال تعالى: {وَاصْبِرُوا إِنّ اللهَ مَعَ الصّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦] ، وقال سبحانه: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧] ، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} [الطور: ٤٨] ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا) [مسند الإمام أحمد] والصبر: حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن الشكوى ، والجوارح عن الهلع ، ويتحقق بمجاهدة النفس ، وهو خير عطاء ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (...وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) [موطأ الإمام مالك].

ومن عوامل الدخول في الحظوة والمعية : **يقظة الضمير** ؛ فصاحب الضمير الحي يدرك أن الله تعالى معه حيث كان في السفر أو في الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، وهذا ما كان من نبي الله يوسف (عليه السلام) حين غلقت الأبواب ، وهُيِّئَتْ له أسباب المعصية ، فاستعصم بربه الذي يدرك معيته إياه

في كل لحظة ، فانطلق لسانه مرددًا قوله تعالى: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[يوسف: ٢٨] ، وهذا ما ذكرته امرأة العزيز كما بين ذلك القرآن الكريم على لسانها في قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمْ} [يوسف: ٣٢] ، ففضل استشعار المعية عظيم ، حين يتملك العبدَ خوفُ ربه (عز وجل) في الدنيا ، فيأمن من عذابه سبحانه يوم القيامة ، وفي الحديث القدسي ، يقول رب العزة (جل وعلا): (وَعِزَّتِي ، لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ ، وَلاَ أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ ؛ إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا ، أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا ، أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [الزهد والرقائق لابن المبارك].

كما يحظى الإنسان بالدخول في معية الله (عز وجل) **بذكر الله تعالى**: حيث يقول سبحانه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥٢] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ...) [متفق عليه].

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوةَ الإسلام:

إنَّ للمعية آثارًا عظيمة يجني العبد ثمرتها في دنياه وآخرته ، منها: أن من دخل في معية الله (عز وجل) **وقاه الله كل شر** ، **وأذهب عنه كل ضر** ،

قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤] ، وقال سبحانه: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٣] ؛ أي: كافيه ، قال (جل وعلا): {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر:٣٦] ، ومَن توكل على الله ووثق بكفايته حقيقةً ، فلن يتمكّن منه عدوٌّ ، ولن يخيب له مطلوبٌ ، ولن يفوته مرغوب ، وعندما نقف عند قول الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩] ، وقوله سبحانه: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [طه: ٤١] ، وقول جل شأنه لنبيه (صلى الله عليه وسلم): {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: ٤٨] ، وقوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} [يونس: ٢] ، ندرك عظمة المعية ، وفضلها ، وجميل آثارها.

ولا شك أن الدخول الحقيقي في معية الله تعالى والانضواء تحتها أهم أبواب **السكينة** ، **والطمأنينة** ، **والصحة النفسية** ، والبعد عن كل جوانب التوتر ، والقلق ، والاضطراب ، والاكتئاب ؛ إذ كيف يقلق من كان يأخذ بصحيح الأسباب ، ويدرك أن الأمر كله بيد من أمرُه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؟ حيث يقول الحق سبحانه : {قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[آل عمران: ٢٦] ، ويقول سبحانه: {ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[فاطر: ٢] .

إن استشعار العباد معية الله (عز وجل)، واستحضارهم عظمته سبحانه ، يحقق لهم وللمجتمع **أعلى درجات السلام النفسي** ، **والتعايش السلمي**، **والأمن المجتمعي**؛ لأن العباد إذا عَلِموا عِلْم اليقين أنهم لا يغيبون عن نظر الله (عز وجل) يستقيم سلوكهم ، وتحسن أخلاقهم ، فيلتزمون أمره سبحانه ، ويجتنبون نهيه جل وعلا، ويقفون عند حده ، ويأخذون بالأسباب ليصلحوا دنياهم بدينهم ، فيعيش الفرد في سلام مع نفسه وأسرته وعائلته وجيرانه وزملائه وأصدقائه والمجتمع والناس أجمعين ، وتلك رسالة الإسلام التي جاءت رحمة للعالمين .

اللهم أدخلنا في معية نصرك وتأييدك ، واشملنا بفضلك ، وأسبغ علينا نعمك ، وارزقنا الإخلاص ، واحفظ مصرنا ، وسائر بلاد العالمين .

* * *

علو الهمة سبيل الأمم المتحضرة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:٢١] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأَشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، اللهمّ صل وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الدين الإسلامي بتعاليمه الراقية يحثُّ الناس على علو الهمة ، والجد والاجتهاد ، والإعمار ، وينهى عن الكسل والخمول والإفساد ، وهذا مما جاءت به الرسالات السابقة، حيث يقول الحقُّ سبحانه وتعالى: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى} [النجم:٣٦-٤١] ، ولقد بين النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) قدر علو الهمة وذلك حين قال في حديثه الشريف: (إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ ، وَمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ ، وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا) (السنن الكبري للبيهقي) ، وقال سيدنا عُمَر بن الخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): "لاَ تُصَغِّرُنَّ هِمَّتَكُمْ ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَقْعَدَ عَنْ الْمَكْرُمَاتِ مِنْ صِغَرِ الْهِمَمِ" (أدب الدنيا والدين) ، وقد قيل: من علامة كمال العقل علوُّ الهمة ، ولله در أبي الطيب المتنبي حينما قال في ديوانه:

وَلَـم أَرَ في عُيُـوبِ النّاسِ شَيْئًـــا   كَنَقصِ القـــادِرِينَ على التّمَـــامِ

على أن علو الهمة ليس قاصرًا على مجال معين ؛ وإنما ينبغي أن يتحقق في كل ما يقوم به الإنسان في حياته ، ومن ذلك : **العبادة** ، فلقد حفز الشرع الشريف على المسارعة والمسابقة في ميدان العبادة ، حيث يقول (تعالى): {وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣] ، وقد ضمن الحق سبحانه وتعالى جزيل الأجر لمن سعى ، وجد واجتهد في عبادته ، فقال سبحانه: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء:١٩].

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) صاحب همة عالية في كل شئون حياته ، **ومنها عبادته** ، فقد خاطبه ربه (سبحانه) قائلا : {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً}[المزمل: ١-٥] ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يقوم من الليل حتى تتورم قدماه ، وعندما سئل في ذلك ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (أَفَلاَ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟) (متفق عليه) ، وما أكثر تحفيزه (صلى الله عليه وسلم) أصحابه وأمته على **التميز وعلو الهمة** ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ) (صحيح البخاري) ، وعن رَبِيعَة بن كَعْبٍ (رضي الله عنه) ، قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي: (سَلْ) ، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (أَو غَيْرَ ذَلِكَ؟) ، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) (صحيح مسلم).

وعلـو الهمـة في العبـادة يقتضـي: **حسـن أدائهـا** ، **وأن يظهـر أثرهـا في سـلوك الإنسـان وأخلاقـه** ، فـلا يكـذب ، ولا يخـون ، ولا يغش ، ولا يأكـل أمـوال النـاس بالباطـل ، فيتوافـق أداء العبـادة مـع الغايـة منهـا ، فتتحقـق الاستقامة التي هي أساس هذا الدين القويم.

ومن أهم ميادين علو الهمة: **ميـدان العلـم** ، فقد أمرنـا الـنبي (صلى الله عليه وسلم) أن نسأل الله تعالى علما نافعًا يعود أثره على خلق الله تعالى جميعا ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَتَعَـوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ) (سنن ابن ماجه) ، وكـان مـن دعائـه (صلـى الله عليـه وسلم): (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِـكَ مِـنْ عِلْـمٍ لاَ يَنْفَـعُ...) (صحيح مسلم) ، فـالعلم النافع هو السلاح الحقيقيُّ الذي تقوى به الدول ، وتتقدم بـه الأمـم ، فمـا تقـدمت دولـة إلا بـالعلم ، ومـا تخلفـت أخـرى إلا بتكاسـلها وتأخرهـا في ميدان العلم.

وكـان الصحابة والتابعون (رضوان الله عليهم) **أعلـى النـاس همـة في طلب العلم** ، فهذا سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) كان ذا همة عاليـة في طلب الحديث ، وكان يقول: "إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَشْغَلُنِي عَنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) غَرْسُ الْوَدِيِّ ، وَلاَ صَفْقٌ بِالأَسْوَاقِ إِنِّي إِنَّمَا كُنْتُ أَطْلُبُ مِنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَلِمَةً يُعَلِّمُنِيهَا وَأُكْلَةً يُطْعِمُنِيهَا ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: أَنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْتَ أَلْزَمَنَا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْلَمَنَا بِحَدِيثِهِ" (مسند أحمد)، ويقـول سيدنا عبـد الله بـن عبـاس (رضـي الله عنهمـا): "... كَـانَ لَيَبْلُغُنِـي الْحَـدِيثُ عَـنِ الرَّجُـلِ ، فَآتِيـهِ وَهُـوَ قَائِـلٌ ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِـي عَلَـى بَابِـهِ ، فَتَسْفِي الـرِّيحُ عَلَـى وَجْهِـي التُّـرَابَ ، فَيَخْـرُجُ

فَيَرَانِي ، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ، مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لاَ ، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ ، فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ) (سنن الدارمي) ، وقال إسماعيل بن يحيى: سمعت الشافعي (رحمه الله) يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين ، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين (سير أعلام النبلاء) ، وكان الإمام أحمد (رحمه الله) يحفظ ألف ألف حديث ، وقيل: كان الإمام النووي يحضر في اليوم اثني عشر درسًا (البداية والنهاية لابن كثير).

كما جدَّ علماؤنا القدامى في حمل أمانة العلم في كل مجالاته ، **وبلغوا رسالته للناس بكل تجرد** ، إرضاء لله تعالى ، ونفعًا للبشرية كلها ، فسجلوا بذلك أسماءهم وعلومهم بحروف من نور في ذاكرة التاريخ ، قال تعالى: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ}[الرعد:١٧].

ومن ميادين علو الهمة: **العمل** ، فقد أعلت الشريعة من شأن العمل ، ورفعت منزلته ، حيث ربط القرآن الكريم بين العبادة والعمل، وجعلهما قرينين ، وفي ذلك يقول الحق (جل شأنه): {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة:١٠] ، وقد وعد الله (عز وجل) من أحسن في عمله بالحياة الطيبة في الدنيا ، والنعيم المقيم في الآخرة ، فقال الله سبحانه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[النحل: ٩٧] ، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً}[الكهف:١٠٧].

وليس أدل على شرف العمل من أن جميع الأنبياء (عليهم السلام) كانوا يعملون ، فكان آدم وإبراهيم ولوط (عليهم السلام) زُرَّاعًا ، وكان نوح (عليه السلام) نجارًا ، وإدريس (عليه السلام) خياطًا ، وصالح (عليه السلام) تاجرًا ، وداود (عليه السلام) حدادًا ، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سبأ:١٠ ، ١١] ، فالإنسان تعلو قيمته ، ويشرف بما يجيد ويحسن ، فالعمل خير من سؤال الناس ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا ، فَيُعْطِيَهُ ، أَوْ يَمْنَعَهُ) (صحيح البخاري).

وليس المراد مجرد العمل ؛ وإنما المراد **إتقان العمل** ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ) (شعب الإيمان للبيهقي) ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حريصًا على أن يكون لكل فرد عمل طيب ، ينفع به نفسه وغيره ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ) ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: (يَعْمَلُ بِيَدِهِ ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ) ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: (يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ) ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: (فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ) (متفق عليه) ، فحث (صلى الله عليه وسلم) من يعجز عن العمل على الإمساك عن ضرر الناس ، وجعل ذلك عملا يثاب عليه ؛ لأنه وقى الناس من شروره وضرره.

ومن أعلى درجات الهمة: الهمة في خدمة المجتمع ، وإعانة الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وقضاء حوائج المحتاجين ، والنجدة والشهامة ، فقد جَاءَ

رجل إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ؟) ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفعهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِيِنًا ، أَوْ تطردُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ ، مَلأَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ ، أَثْبَتَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الأَقْدَامُ) (المعجم الكبير).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

إن من أجَلِّ الميادين التي ينبغي أن نتنافس جميعًا فيها ، وأن نكون أصحاب همة عالية: **خدمة الوطن** ، فخدمة الوطن من الإيمان؛ وقد أمرنا الله تعالى بالتنافس في ميدان الخير ، والنفع الذي يعود أثره على الوطن، حيث يقول الحق سبحانه: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[البقرة: ٤٨] ، وقد مدح الله (جل

شأنه) عباده الذين يسارعون في بذل الخير للناس ، ويبين سبحانه أن ذلك الخير ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ، يقول تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠] ، بعلو همة ، ورغبة في نفع الناس ، وثقة كاملة في فضل الله تعالى وتوفيقه.

ومن الهمة العالية: **الهمة في بناء الأوطان** ، وتحمل المسئولية المجتمعية ، والمنافسة في أعمال البر ؛ من صيانة المساجد ، وبناء المدارس ، وتجهيز المستشفيات ، وعلاج المرضى ، فكل ذلك من الصدقات الجارية ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهْرًا ، أَوْ حفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (مسند البزار).

فما أجمل أن يكون بيننا **تنافس في خدمة الوطن الذي يحتوينا جميعًا** ، **ويعود خيره وفضله على جميع أبنائه** ، ونحقق ذلك بالتكاتف والاتحاد ، والوعي ، والتراحم ، ومد يد العون للجميع ، فالوطن لنا جميعًا، ويتقدم بنا جميعًا ، ولسنا أقل إرادة ، ولا قوة ، ولا جهدًا من غيرنا ، فنحن أصحاب الحضارة والأصالة والتاريخ ، ولا بد أن نعلم أن تحقيق السبق والتفوق يتطلب اقتحام الصعاب والأهوال ، وإنكار الذات ، فالمكارم منوطة بالمكاره ، والمصالح والخيرات لا يُتوصل إليها إلا بالجهد والمشقة ، ولله در أبي تمام في قوله:

بصُرْتُ بالرَّاحةِ الكُبرى فلمْ أرهَا تُنَالُ إلاَّ على جسرٍ منَ التَّعبِ

اللهم ارزقنا هِمما عالية نحوز بها السبق ، والفضل ، والتقدم ، والرقي ، فيما ينفعنا في الدنيا والآخرة ، واحفظ ديننا ، وبلادنا ، وسائر بلاد العالمين.

* * *

السنة النبوية المشرفة ، ومكانتها في التشريع

الحمد لله رب العالمين ، القائلِ في كتابه الكريم: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: ٧]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، القائل: (تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُم بِهِ ، فَلَن تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ ، وَسُنَّةَ نَبِيِّه) [المستدرك للحاكم] ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعــد:

فقد أرسل الله (عز وجل) رسله وأنبياءه (عليهم السلام) لهداية البشر ، والأخذ بأيديهم من الظلمات إلى النور ، ومن طريق الهلاك إلى طريق النجاة والفلاح ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥] ثم ختم (سبحانه) الرسالات بسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فجاء كما قال الله تعالى عنه: {شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب:٤٥ ، ٤٦] ، برسالة خاتمة ، صالحة لكل زمان ومكان ، وأنزل عليه القرآن الكريم ، كتابًا محكمًا ، معجزًا ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم أوحى إليه السنة المشرفة مفصِّلة للكتاب ، وشارحة له ، حيث يقول تعالى: {وما ينطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى}[النجم: ٣ ، ٤] ، ويقول سبحانه: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل: ٤٤]، ويقول نبينا

(صلى الله عليه وسلم) : (أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) [مسند الإمام أحمد].

والمتدبر لكتاب الله (عز وجل) يجد أن الله (سبحانه وتعالى) قد **جمع بين أوامره تعالى** ، **وأوامر نبيه** (صلى الله عليه وسلم) في أكثر من موضع ، يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[الأنفال: ٢٤] ، وقرن بين رضاه سبحانه ورضا نبيه (صلى الله عليه وسلم) في قوله (جل شأنه) : {وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ}[التوبة: ٦٢] .

كما قرن الله (عز وجل) **طاعته بطاعة نبيه** (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يقول سبحانه: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ}[النساء: ٨٠] ، وجعل سبحانه هذه الطاعة سببًا في الرحمة ، يقول (جل وعلا) : {وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[آل عمران: ١٣٢].

ويقول (جل شأنه): {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[النور: ٥٦]، وتتحقق هذه الطاعة باتباع سنته (صلى الله عليه وسلم) ، يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١].

وقد أجمع علماء الأمة وفقهاؤها على حجية السنة المشرفة ، وأنها المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله (عز وجل) ، يقول سبحانه: {وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[النساء: ١١٣] ، ويقول تعالى: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}[الأحزاب: ٣٤] ، والسنة

المشرفة تشمل: قولَه (صلى الله عليه وسلم) ، وفعلَه ، وتقريرَه ، يقول الحق سبحانه وتعالى: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:٢١] ، وذلك في جميع أحواله (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ عبد اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَأُرِيدُ حِفْظَهُ ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ عَن ذَلِكَ ، وقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَتَكَلَّمُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ؟ فَأَمْسَكْت ، ثم ذَكَرْت ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ إلى فِيهِ ، فَقَالَ : (اكْتُبْ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إلاَّ حَقٌّ) [مصنف ابن أبي شيبة] .

فالقرآن الكريم هو الأصل الأول للتشريع ، والسنة المطهرة هي الأصل الثاني ، حيث إنها شارحة ومفسرة ومبينة لما جاء في كتاب الله (عز وجل)؛ لأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلم الناس بمراد الله سبحانه ، وقضاؤه (صلى الله عليه وسلم) وحكمه من قضاء الله تعالى وحكمه ، يقول الحق سبحانه : {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}[الأحزاب:٣٦] ، ويقول تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[النساء: ٦٥] ، ويقول سبحانه: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الآمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الآمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ}[النساء: ٨٣]، وحذرنا الله سبحانه من مخالفة أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال

تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النور: ٦٣].

ولقد فصّلت السنة النبوية المشرفة كثيرا مما ورد مجملا في القرآن الكريم ، فقد جاء الأمر بالصلاة والزكاة في القرآن مجملا ، فقال سبحانه: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ٤٣] ، فكيف نقيم أركان الإسلام من صلاة ، وزكاة ، وحج دون توضيح من السنة المشرفة؟ حيث فصل النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك ، فقال: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) [صحيح ابن حبان] ، فبيَّن الكيفية بفعله وبقوله (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا ، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا) [متفق عليه] ، وفي الزكاة فصلت السنة كثيرا من فروعها ، وحددت أنصبتها، وكذلك الحج ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (خُذُوا عني مناسِكَكم) [السنن الكبرى للبيهقي] ، وحين جاء رَجل إلى سيدنا عِمْرَان بنِ حُصَيْنٍ (رضي الله عنه) وقال له: مَا هَذِهِ الآحَادِيثُ الَّتِي تُحَدِّثُونَاهَا وَتَرَكْتُمُ الْقُرْآنَ؟ فقال له: أَرَأَيْتَ لَوْ أَتَيْتَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ الْقُرْآنَ ، مِنْ أَيْنَ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ صَلَاةَ الظُّهْرِ عِدَّتُهَا كَذَا ، وَصَلَاةَ الْعَصْرِ عِدَّتُهَا كَذَا ، وَحِينَ وَقْتِهَا كَذَا ، وَصَلَاةَ الْمَغْرِبِ كَذَا؟ وَالْمَوْقِفَ بِعَرَفَةَ وَرَمْيَ الْجِمَارِ كَذَا؟ [الموافقات للشاطبي].

وكما فصلت السنة النبوية المجمل من القرآن الكريم فهي أيضا قد تقيد المطلق ، ومن ذلك تقييد الوصية بالثلث وأنه لا وصية لوارث ، فعَنْ سَعْد بن أبي وقاص (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ ، فَقُلْتُ: لِي مَالٌ ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: (لاَ) ، قُلْتُ: فَالشَّطْرِ؟ قَالَ: (لاَ) ، قُلْتُ: فَالثُّلُثِ؟ قَالَ: (الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ...) [صحيح البخاري] ، كما بينت السنة النبوية أن الوصية لا تكون لوارث ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (لاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ) ، [سنن ابن ماجة] وذكرت السنة المطهرة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، وكذلك تحريم الجمع بين المرأة وخالتها ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (لاَ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا ، وَلا عَلَى خَالَتِهَا) [صحيح مسلم].

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

ونحن إذ نؤكد على مكانة السنة وحجيتها ، ومنزلتها في التشريع ، فإننا – في الوقت نفسه – نفرق بوضوح بين ما هو من سنن العبادات، وما يندرج في أعمال العادات التي تختلف باختلاف الزمان والمكان وعادات الناس ، مثل ما يتصل باللباس ، ووسائل السفر ، وغير ذلك مما يرجع لأعراف الناس ، فلكل عصر عاداته التي تختلف عن العصر الذي قبله ، وليس من المعقول القول أن نحمل الناس على عادة معينة في السفر أو اللباس أو الطعام بحجة الاقتداء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، فمرجع العادات إلى العرف وإلى ما يلائم العصر والبيئة ، ما لم يخالف ثابت الشرع

الشريف ، فحين عد الإمام الشافعي (رحمه الله) غطاء الرأس من لوازم المروءة ، كان ذلك مراعاة لظروف بيئته وعصره ، واليوم لا غضاضة في ذلك ؛ لأن العرف والذوق لا ينكران ذلك .

ونؤكد أن أعدَى أعداء السنة نوعان : أولهما : **المتاجرون بالدين ، المحرفون له** ، الذين يلوون أعناق النصوص لمآرب خاصة ، فيسفكون الدماء ، ويخربون باسم الدين ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، والدين منهم براء ، وهؤلاء هم المتنطعون الذين حذرنا منهم النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) ، قَالَهَا ثَلاَثًا [صحيح مسلم].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قَالَ: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ) [مسند الإمام أحمد] .

وثانيهما: **الذين لم يأخذوا أنفسهم بنور العلم وأدواته** ، وقد بيَّن (صلى الله عليه وسلم) خطورتهم فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً ، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) [متفق عليه] ، فالسنة الشريفة بريئة من أي تطرف يجنح بها عن سماحتها ، وعن وسطية الإسلام ومنهجه ، وتطرف آخر ينكرها بالكلية ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (يُوشِكُ رَجُلٌ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي ، فَيَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلاَلاً اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وَمَا كَانَ فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) كَمَا حَرَّمَ اللهُ) [سنن الدارقطني].

إن الغلو والتفريط تطرف بعيد عن وسطية الإسلام ومنهجه ، وظلم كبير للسنة النبوية التي تتسق كل الاتساق مع المقاصد العامة للقرآن الكريم ، وبفهم مقاصدها نقف على المقاصد العامة لديننا الحنيف ، وهو بلا شك عدل كله ، رحمة كله ، سماحة كله ، تيسير كله ، إنسانية كله ، وأهل العلم قديمًا وحديثًا على أن كل ما يحقق هذه الغايات الكبرى هو من صميم الإسلام ، وما يصطدم بها أو يتصادم معها إنما يتصادم مع الإسلام وغاياته ومقاصده.

ومن هنا يأتي دور العلماء المتخصصين في تقويم زيغ أهل الضلال والانحراف ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ) [مسند البزار].

إننا في حاجة ماسة إلى أن نفهم السنة من خلال مقاصدها ، ومراميها ، وألا نجمد أو نتحجر عند ظواهر النصوص ، دون فهم أبعادها ومقاصدها ، ويتحقق ذلك بقراءة مقاصدية عصرية للسنة النبوية المشرفة ، تتواكب مع روح العصر ومستجداته ، وتقرب السنة النبوية العظيمة إلى الناس ، هذا هو التجديد الذي تدعو إليه السنة المطهرة ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا) [سنن أبي داود].

اللهُمَّ وفقنا لفهم كتابك الكريم وسنة نبيك (صلى الله عليه وسلم) ، وعلمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما تعلمنا ، واحفظ بلادنا ، وسائر بلاد العالمين.

* * *

فهرس الخطب

م	الموضوع	الصفحة
*	مقـــــدمة .	٥
٥١	هذا هو الإسلام .	٧
٥٢	حماية الشأن العام والمصلحة العامة .	١٤
٥٣	من سنن الله تعالى الكونية إجراء المسببات على الأسباب .	٢٣
٥٤	العمل التطوعي ... أهميته وضوابطه .	٣٠
٥٥	حرمة التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية .	٣٧
٥٦	رعاية المسنين وحماية حقوقهم.	٤٦
٥٧	مكانة مصر في القرآن والسنة .	٥٤
٥٨	ضوابط البيع والشراء .	٦٢
٥٩	النفع العام في ميزان الشرع الشريف .	٧٢
٦٠	التنافس في الخيرات وخدمة الأوطان .	٧٩
٦١	التنمية الشاملة وسبل تحقيقها .	٨٨
٦٢	البناء الاقتصادي السديد وأثره في استقرار المجتمع .	٩٨
٦٣	من صور المال الحرام .	١٠٥
٦٤	قيمة الوقت .	١١٠
٦٥	دور الشباب في بناء المجتمع .	١٢٠
٦٦	ظاهرة أطفال الشوارع وأهمية تربية النشء والعناية باليتيم.	١٢٩

م	الموضوع	الصفحة
٦٧	نحو علاقات أسرية ومجتمعية سوية تكفل اليتيم وترعى المحتاج.	١٣٩
٦٨	وَاجِبُ المُعَلِّمِ والمُتَعَلِّمِ .	١٥٢
٦٩	الصحبة وأثرها في بناء الشخصية.	١٥٩
٧٠	دعوة الأنبياء والرسل للإصلاح في ضوء القرآن الكريم	١٦٧
٧١	الأخلاق أساس الحضارات الراقية .	١٧٩
٧٢	الحفاظ على البيئة ودورة في التنمية .	١٨٧
٧٣	النظافة والجمال من سمات المجتمع المتحضر .	١٩٧
٧٤	الحفاظ على المياه وترشيد استخدامها .	٢٠٥
٧٥	فضل الشهادة وكرامة الشهيد .	٢١٣
٧٦	مفهوم الشهادة بين الحقيقة والادعاء .	٢٢١
٧٧	الوفاء بالعقود والعهود وحرمة التلاعب بها أو التحايل عليها .	٢٢٩
٧٨	براءة الإسلام من العمليات الانتحارية والتفجيرية والتخريبية .	٢٣٦
٧٩	سماحة الإسلام ونبذه لكل مظاهر العنف .	٢٤٤
٨٠	لا للإرهاب والإفساد .	٢٥٤
٨١	حرمة الاعتداء والتخريب وضرورة البناء والتعمير .	٢٥٩

م	الموضوع	الصفحة
٨٢	مخاطر التطرف الفكري والانفلات الأخلاق .	٢٦٧
٨٣	الدين المعاملة .	٢٧٦
٨٤	نعمة الأمن والاستقرار .	٢٨٨
٨٥	عوامل القوة والنصر ، وأسباب الهزيمة والضعف .	٢٩٦
٨٦	قيمة العمل بين بناة الأوطان ودعاة الهدم .	٣٠٥
٨٧	نحو علاقات أسرية سوية مستقرة .	٣١٣
٨٨	حق الطفل في التنشئة السوية والحياة الكريمة .	٣٢٥
٨٩	الكلم الطيب وأدب الحوار .	٣٣٦
٩٠	الإسلام دين الأمن والأمان .	٣٤٩
٩١	النفاق والخيانة وخطرهما على الأفراد والدول .	٣٥٧
٩٢	ذكر الله تعالى وأثره فى استقامة النفس البشرية .	٣٦٥
٩٣	حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) أنموذج تطبيقي لصحيح الإسلام .	٣٧٢
٩٤	صورة مشرقة من حياة الصحابة (رضي الله عنهم) .	٣٧٩
٩٥	أمة اقرأ .. أمة أتقن .. بين علماء الأمة وعلماء الفتنة .	٣٨٦
٩٦	حقوق الشباب ووجباتهم .	٣٩٣
٩٧	وحدة الوطن سبيل قوته .	٤٠١
٩٨	الدخول في معية الله (عز وجل) "أسبابه ، وآثاره "	٤٠٩

م	الموضوع	الصفحة
٩٩	علو الهمة سبيل الأمم المتحضرة .	٤١٧
١٠٠	السنة النبوية المشرفة ، ومكانتها في التشريع .	٤٢٥
*	فهرس الموضوعات .	٤٣٢

❊ ❊ ❊